أخبار اليوم
قطاع الثقافة

إحسان عبد القدوس



ونسيت أنى امرأة

الأعمال الكاملة

دار
قطاع الثقافة

إحسان عبد القدوس

ونسيت أنى امرأة

قصة

مجموعة الأعمال الكاملة

دار

أخبار اليوم

قطاع الثقافة

تصميم الغلاف

د. عبد الكريم محمود

■ ■ ■

إدارة التسويق

تليفاكس : ٢٥٧٩٥٨٩٦

email : thakafa.ad@gmail.com

■ ■ ■

صفحتنا على الفيس بوك

www.facebook.com/thakafabookstores

■ وكلاؤنا بالخارج ■

دولة الإمارات العربية مكتبة أخبار اليوم

شركة الإمارات للطباعة والنشر والتوزيع

٠٠٩٧١٤٣٦٦٠٣٣٧ _ ٠٠٩٧١٥٠١٤٩٩٧١٤

السعودية ودول الخليج سلسلة مكتبات العبيكان

٠٠٩٦٦١٤١٦٠٠١٨ _ ٠٠٩٦٦٥٠٣٢٧٩٧١٧

مكتبة جرير

٠٠٩٦٦٥٠٢١٧٧٧٠٢ _ ٠٠٩٦٦٦٤٦٢٦٠٠٠



كل منّا له وجهان ..

وجه للناس ووجه داخل نفسه والمستحيل هو التوفيق بين الوجهين ..

إحسان

١

أحس بأنى وصلت إلى ما يمكن أن يسمى « سن الملل » أو لعله سن اليأس فمنذ شهور ولعلها أعوام وأنا أعيش فى حالة زهق وانقباض وأرقب كل ما يجرى حولى كأنه وقع دقات حوافر بغل عجوز يتحرك وهو يجر خلفه عربة لا يعرف ما فيها ولا يهمه أن يعرف ، ولا يدرى إلى أين يساق ولا يهمه أن يدرى.

وأحياناً أتعجب من هذه الحالة التى أعانيها.. حالة الملل والزهق.. فإنى أعتبر نفسى امرأة ناجحة حققت كل ما أرادته لنفسها إلى أن وصلت إلى ما أنا فيه الآن.. أنا عضوة فى مجلس النواب ، ورئيسة جمعية النساء العاملات ، وسكرتيرة اتحاد المرأة العربية.. وأنا فى كل مكان.. لا يمكن أن يقام حنل رسمى أو شعبى تدعى إليه النساء إلا وأكون فى مقدمتهن.. ولا يمر أسبوع إلا وتنشر الصحف صورتى وكلمة أو كلمتين عنى أو نقلاً عنى.. وأنا ما زلت حريصة على كل ذلك.. حريصة على الظهور فى كل نشاط مجلس النواب ، وحريصة على الاحتفاظ بمظهر نشاط جمعية النساء العاملات ، وحريصة على الاتصالات التى يفرضها اتحاد المرأة العربية ، وإذا أقيم حفل رسمى أو شعبى ولم أدع إليه ثرت بينى وبين نفسى وسعيت إلى أن توجه لى الدعوة .. وإذا مرت مناسبة لم تذكر فيها

الصحف اسمى ولم تنشر صورتى ثرت أيضاً بينى وبين نفسى كأنى أدافع عن وجودى واستطعت أن أجرى اتصالات ينشر بعدها اسمى وصورتى.. ورغم ذلك فالملل والزهق لا يفارقاننى.. فإذا ما جلست فى اجتماع لمجلس النواب أو لإحدى الجمعيات وجدت عقلى وخيالى يأخذانى بعيداً عن كل ما أسمعه من كلمات الخطباء والمتحدثين وإذا حضرت حفلاً أحسست كأنى أتحرك داخل حديقة كل أزهارها وأوراقها ذابلة.. ذبلت فى إحساسى من كثرة ما تعودتها.. حتى عندما تنشر الصحف صورتى ، ألقى عليها نظرة ثم ألقيها جانباً فى قرف وامتعاض ، كأنى أستخف بالدوافع التى أدت إلى نشر هذه الصورة.. حتى عندما أساهم فى اتخاذ القرارات التى تبدو كأنها قرارات وطنية هامة أحس كأنى أردد بهذه القرارات دروس القراءة الرشيدة التى تعلمناها فى مدرسة روضة الأطفال.. باء فتحة باء.. جيم كسره جى.. عين ضمة عو.. كلها قرارات أشبه بألحان مزيكة حسب الله.. لا جديد فيها.. الجديد ليس من اختصاصنا... إنه من اختصاص الجهات العليا.. والجهات العليا يمثلها رجل.. كاسم الله.. مذكر.

وكنت من خلال نوبات الملل والزهق التى تنتابنى أتساءل : لماذا أردت كل هذا الذى حققته ؟

لأكون سعيدة ؟!

هل أنا سعيدة ؟

أو ربما لا أؤدى خدمة وطنية فى الارتفاع بمستوى المرأة ونصرة قضيتها وتحريرها.

هل السعادة يمكن أن تنحصر فى أداء الخدمة الوطنية ؟

أم أن الخدمة الوطنية كانت على حساب سعادتى ؟

وكنت ألوم نفسى على هذه التساؤلات.. كنت أشبه نفسى

بالإنسان الغنى المليونير الذى يتصور أن الفقير أسعد منه لأنه لا يتحمل مسئولية الحرص على استغلال وصيانة هذه الملايين ، ولمجرد أنه - أى الشخص الغنى - لم يجرب متاعب ومآسى الفقر.. أو كالمرأة العاملة الناجحة فى عملها التى تحسد المرأة المتفرغة لبيتها لأنها لم تجرب متاعب وذل المرأة التى تعيش معتمدة اعتماداً كاملاً على رجل.

ولكن لا شك أن هناك سبباً لهذه النوبات التى أعانيها.. نوبات الملل والزهق التى تكاد تصل بى أحياناً إلى حد الانهيار النفسى.

يجب أن أجد هذا السبب.

وإن كنت قد وجدته فيجب أن أعترف به.

إنى أعترف.

أعترف بأن فى حياتى نقطة فشل تكررت أكثر من مرة.. وتحولت نقطة الفشل إلى مركز فشل دائم ، وقد كنت دائماً أقوى من الفشل.. أقوى فى السيطرة عليه وتغطيته بحيث لم أترك له مجالاً ليؤثر على أو يعرقل طريقى أو يمس كيانى أو يجرح الصورة التى أبدو بها أمام الناس.. مرت كل هذه السنوات الطويلة من عمرى دون أن يكون لهذا الفشل أثر يمكن أن يضطرنى إلى الاعتراف به ولكن الآن.. وبعد أن وصلت إلى هذا السن.. لم أعد أحتمل تجاهلى فشلى.. أصبحت ذكريات فشلى أقوى منى.. ويجب أن أعترف بها لأنقذ نفسى من الانهيار الكامل.. أعترف بها حتى بينى وبين نفسى لعلى أستطيع أن أستمر فى حمل مسئولية الشخصية الأخرى.. الشخصية التى كنت ارتفع بها دائماً عن مستوى الفشل.

إنى أعترف..

■ ■ ■

ربما أخترت طريقى فى الحياة منذ كنت طفلة.. وربما لم يكن

اختيارى نتيجة إرادة أو نتيجة دراسة أو نتيجة تجارب ، ولكنه كان انعكاساً لطبيعتى أو للشخصية التى ولدت بها والتى كانت تثيرنى وتفرض على أن أضع نفسى فى المقدمة.. أن أتفوق فى كل ما أضع نفسى فيه حتى أصل إلى المقدمة.. والمقدمة التى اخترتها لم تكن نفس المقدمة التى يمكن أن تختارها أى فتاة.. المقدمة التى تحددها الشخصية الأنثوية.. ذكاء الأنثى.. وجمال الأنثى.. وإغراء الأنثى.. واحتياجات الأنثى... كل ذلك لم يكن يثيرنى أو يحدد لى الطريق.. وليس معنى ذلك أنى كنت أنكر جمالى وذكائى كأنثى.. ولكنى كنت أرفض أن أخصص هذا الجمال وهذا النوع من الذكاء لمجرد أن أحقق ما تطمع فيه أى فتاة عادية.. أى أن أتزوج وأكون أما.. الزواج والأمومة ليس كل ما تصلح له المرأة.. خادمة زوجها وخادمة أولادها.. لست أنا... لا أريد أن أكون خادمة... أو إذا ارتفعنا بمعنى الخدمة فإنى لا أريد أن أكون خادمة فى هذا النطاق الضيق.. نطاق العائلة.. أريد أن أكون خادمة فى النطاق العام.. نطاق المجتمع.. أن أكون شخصية قيادية زعيمة.. أن أخدم كقائدة تفرض آراءها. لا كتابعة تتلقى الآراء فى صيغة أوامر، أو تتلقى الأوامر فى صيغة آراء.

ربما كانت هذه هى المقدمة التى كانت تدفعنى إليها طبيعتى منذ كنت طفلة دون أن أتعمدها.. ومنذ كنت طفلة وأنا أثير بين أفراد العائلة حيرة كبيرة.. فقد كنت اختلف عن أختى الكبرى.. أختى فتاة عادية تحاول أن تكون صورة من أمها.. تهوى أعمال البيت وتجيدها وتعد نفسها إعداداً كاملاً لتكون زوجة رائعة. وتعد نفسها للأمومة وهى لا تزال طفلة ، فكانت تهوى جمع العرائس وتقضى كل فراغها فى الاهتمام بها. ثم أصبحت تهوى تدليل أطفال العائلة وأطفال الأصدقاء.. أما أنا فكنت لا أطيق أعمال البيت.. لا أطيق المطبخ ولا

الإشراف على الخدم ولا الاهتمام بالديكور.. ليس معنى ذلك أنى كنت مهملة أو متكلة اتكالاً كاملاً على أهل البيت.. لا ، ولكن كنت فقط لا أتحمل إلا مسئولية ما أحتاج إليه.. كنت أجيد طهو بعض الأطعمة الخفيفة ولكن لم أكن أعطى المطبخ وقتاً أكثر لأتعلم طهو كل أصناف الأطعمة.. وكنت أهتم بحجرتى فى البيت وأنا المسئولة عنها وحدى ، ولكن ليس إلى الحد الذى أجعل منها حجرة فريدة فى نظامها وديكورها.. ولم أكن أهتم كثيراً عندما كانوا يقولون إن حجرة أختى أجمل من حجرتى.. إنها فعلاً أجمل. ولكنى لست من التفاهة بحيث أضيع وقتى فى تجميل غرفتى.. يكفى أنها حجرة نظيفة مرتبة وفيها كل ما أحتاج إليه.. ولم أكن أيضاً أطيق اللعب بالعرائس ، ولا اللعب مع أطفال العائلة والأصدقاء. ولكنى كنت أفضل الألعاب الأكثر انطلاقاً.. كنت أتفوق فى «نط الحبل » وفى لعبة «الحجلة» ثم أصبحت متفوقة فى السباحة.. ثم بدأت أتساءل بينى وبين نفسى لماذا يكون للأولاد ألعاب لا يلعبها البنات.. وكنت أراقب الأولاد الذين يلعبون الكرة فى الأرض المجاورة وأنا أقاوم نفسى حتى لا أندفع وألقى بنفسى بينهم وألعب معهم.. ولكنى لعبت ما هو أعجب من كرة القدم بالنسبة للفتاة.. فقد كان ابن عمى يلعب الملاكمة ومن المتفوقين فيها. فأخذت ألح عليه أن يعلمنى ويدربنى على هذه اللعبة حتى رضى أخيراً وهو يضحك كأنه يمثل دوراً مضحكاً فى أحد أفلام السينما ، ولكنه فوجئ بأنى أمارس التدريب بجدية وأنى أريد أن أدرس اللعبة فعلاً.. ولم يرحمه منى إلا أنى اكتفيت بدرس أو ثلاثة ثم عدلت عن اللعبة ، وإن كنت بعد ذلك مارست رياضة أخرى كان الأولاد على أيامى يحتكرونها وهى رياضة المبارزة بالسيف أى «الشيش»..

وكل هذا لم يكن له أثر فى حياتى.. فقد أقمت حياتى كلهامنذ

كنت طفلة حتى اليوم على عنصرين متكاملين وهما العلم والاتصالات الاجتماعية..

ومنذ دخلت المدرسة وأنا دائماً «الأولى» فى أى امتحان ، حتى فى امتحان التوجيهية كنت الأولى ، فقط فى امتحان ليسانس الحقوق تأخرت إلى الترتيب الرابع بين الخريجين.. ولم يكن إصرارى على أن أكون الأولى دائماً يعنى أنى متفرغة تفرغاً كاملاً للمذاكرة ، ولا شىء فى حياتى إلا المذاكرة ، كما يتهم كثير من أوائل الطلبة ، وكما يقال بأن الطالب الذى يستطيع أن يكون الأول فى امتحان المدرسة لا يستطيع أن يكون الأول فى امتحان الحياة.. لا.. لم أكن من هذا النوع من الأوائل.. ربما كنت الأولى بحكم الموهبة ، فإن اهتمامى بالمذاكرة والمراجعة لم يكن يشغلنى عن الحياة العامة خصوصاً داخل المدرسة أو داخل الجامعة.. كان تفوقى فى الدراسة يصحبه دائماً تفوق فى الحياة المدرسية.. كنت أساهم فى كل النشاط المدرسى حتى فى فرق التمثيل وفى احتفالات المناسبات ، وكنت رئيسة لكل تنظيم ، وكان بينى وبين الناظرة والمدرسات نوع أقرب إلى الصداقة منه إلى علاقة المدرسة والتلميذة ، وكان هذا يسهل لى قيادة كل طالبات المدرسة والإشراف على تنظيم كل النشاط المدرسى.. وكنت فى أغلب المناسبات أتولى إلقاء الخطاب باسم الطالبات.. تعلمت من صغرى أن أكون خطيبة.. ولم أكن حتى فى هذه السن أقرأ ما يكتب لى من خطب ، بل كنت أكتب بنفسى ما أقوله ، وأنى أضحك الآن عندما أتذكر ما كنت ألقيه من كلمات.. إنها كلمات فيها كثير من النفاق.. نفاق عاطفى.. وأحياناً نفاق متعمد خصوصاً إذا كانت خطبة ألقيها ترحيباً بزيارة إحدى الشخصيات للمدرسة.. وقد كانت هذه مرحلة تدربت فيها على فن النفاق أو فن الدبلوماسية كما يسمون النفاق.. والدبلوماسية عنصر أساسى من

عناصر التعامل مع المجتمع ، وكثير من الخطب التى ألقيها اليوم فى مجلس النواب أو فى إحدى الجمعيات تعتمد على الدبلوماسية.. ولأكون أكثر صراحة أقول إنها تعتمد على النفاق.. ولكنه نفاق يقوم على موهبة فى فن الخطابة بحيث يكتسب قوة الإقناع وليس كالنفاق المفضوح الذى كان يتضمن الكلمات التى ألقيها وأنا طالبة فى المدرسة الثانوية.. وبالمناسبة.. النفاق لا يعنى مجرد المديح والتأييد فإن النفاق قد يتطلب أحياناً الهجوم والمعارضة.. أقولها كمجرد درس لمن يقرأ هذه الاعترافات.

ولم تكن هذه هى كل حياتى فى المدرسة الثانوية فقد كنت فى الوقت نفسه أعيش الحياة العامة فى كل صورها خصوصاً مجال الحركة الوطنية والحركة الثقافية. كنت أسعى إلى أن أثبت وجودى فى كل مكان أعتقد أنه يجب أن يكون لى فيه وجود. وأنى أذكر ما قمت به عام ١٩٣٥..

كنت ما زلت فى الخامسة عشرة من عمرى ، وانطلقت حركة وطنية عنيفة تطالب بجلاء القوات البريطانية وإعلان دستور ١٩٢٣ و.. يسقط هور ابن التور.. وهور هو اسم الوزير البريطانى الذى رفض المطالب المصرية وكان يجب أن تشترك مدرستى فى هذه الثورة.. أنا التى قررت ذلك فقد كنت لا أقبل أن تكون قيادة مدارس البنات فى الحركات الوطنية مخصصة لمدرسة السنية.. يجب أن تنتقل القيادة إلى مدرستنا.. اليوم الأول وقبل أن تتحرك كثير من المدارس بما فيها مدارس الأولاد ، ذهبت إلى المدرسة فى الصباح واستطعت أن أجمع الطالبات وأعلن بهن الإضراب.. وحاولت الناظرة والمدرسات أن يقنعانى بوقف هذا الإضراب.. لم يحاولن معى القسوة فكلهن يحببننى ويقدرن أنى طالبة جادة فى كل شىء لا أحاول شيئاً لمجرد اللهو.. وحتى لا أحملهن مسئولية أكبر فقد قررت

أن يستمر الإضراب حتى الساعة الحادية عشرة ثم ندخل جميعاً الفصول.. وهذا أرضى حضرة الناظرة لأنها نسبت إلى نفسها أنها انتصرت على الطالبات.. أما أنا فقد اقتنعت بإنهاء الإضراب لأنى كنت حائرة فى فهم تفاصيل هذه الحركة الوطنية بل كنت فى الحقيقة أجهل موقف الحكومة القائمة وموقف الوزير البريطانى هور وليس عندى أى فكرة عن دستور ٢٣.. وبعد أن خرجت يومها من المدرسة ذهبت إلى ابن عمى وكان طالباً فى الجامعة ومن أعنف المتحمسين الوطنيين وجلست معه طويلاً حتى أفهمنى كل ما أستطيع أن أعيه عن هذه الثورة ، ثم صحبنى معه إلى مقر اتحاد الطلبة.. وهناك اعترف بى مندوبة وممثلة لمدرستى فى الحركة الوطنية.. أصبحت زعيمة.. الفارق بينى وبين هدى شعراوى هو فارق السن.. وكانت هذه أول مرة أتصل فيها بأى تجمع وطنى وسياسى ، وأول مرة أتحمل مسئولية عمل سياسى جماعى وهو ما قادنى بعد ذلك إلى هذا التاريخ الطويل من العمل السياسى الذى انتهى بى إلى ما أنا فيه الآن.. وقد عدت فى اليوم التالى إلى المدرسة واستطعت أن أخرج جميع الطالبات فى مظاهرة ، كانت أول مظاهرة للطالبات أيامها وقد فاجأت البوليس بحيث تركها حرة إلى أن كادت تصل إلى الجامعة ثم أحاط بها بعد أن اجتازت كوبرى الجلاء الذى كان يسمى أيامها كوبرى الإنجليز.. وتقدم منى ضابط بوليس مصرى ومعه ضابط إنجليزى وطلبا منى أن أفض هذه المظاهرة.. وإنى أذكر أيامها أنى لم أكن أخاف البوليس ولكنى كنت أخاف الجماهير التى تجمعت حولنا يتفرجون علينا وكثيرون من الطلبة والشبان انضموا إلينا حتى بدأت شخصية التظاهر الخاصة بنا تضيع.. لذلك قلت لضابط البوليس إننا لن ننفض إلا إذا وصلنا إلى الجامعة ، وأن البوليس بدلاً من أن يفكر فى الاعتداء علينا

وفضنا بالقوة عليه أن يتحمل مسئولية حمايتنا فنحن كلنا بنات صغيرات وكل ما نفعله هو أننا نؤيد آباءنا وإخوتنا الكبار.. ولعل الضابط الإنجليزى أعجب واقتنع بالخطاب الذى ألقيته فى وجهه وأنا صبية فى هذه السن فتركنا فعلاً نسير حتى الجامعة بينما رجال البوليس يطاردون ويضربون كل من يتجمع حولنا من أفراد الجمهور.. ولا شك أنى كنت أيامها متسرعة فى التحريض وقيادة هذه المظاهرة فقد بدأت كل شىء بلا إعداد.. إنى لم أفكر حتى فى كيفية العودة إلى بيوتنا وسط زحام المظاهرات ، ولهذا فقد تعبنا إلى حد البهدلة.. ولكننا كنا مقتنعات يومها بأن كل شىء يهون فى سبيل الوطن..

وفى اليوم التالى صدر قرار بإغلاق المدرسة وقبل إعلان إغلاقها كانت معظم العائلات قد قررت منع بناتهم من الذهاب إليها.. وتحملت أنا النتيجة.. نتيجة الزعامة.. بكل ما تتحمله الزعامة من تأييد وهجوم.. أصبحت فى نظر البعض ملاكاً وفى نظر البعض شيطانة..

ولا أريد أن أستمر فى سرد حياتى العامة.. إنها حياة لا تحتاج إلى اعتراف لأنها حياة مفتوحة معروفة وإن اختلف الرأى فى تقديرها..

أريد أن أعترف بحياتى الخاصة..

والحياة الخاصة لأى فتاة تعنى قصة حب..

وليس فى حياتى قصة حب.. وليس معنى ذلك أنى حرمت نفسى من الحب متعمدة ، أو أنى لا أعرف الحب.. لا.. منذ صباى وأنا أقرأ كثيراً من قصص الحب ، ومن دراسات عن الحب ، بل إنى قرأت كثيراً عن الجنس ، وكنت أتعمد أن أبحث عن الكتب العلمية الجادة التى تعرض أبحاثاً عن اللقاءات الجنسية بين الرجل والمرأة وأقرؤها

بنفس الاهتمام الذى أقرأ به كتب كلية الحقوق وكأنى أستوعب أسرار الحياة.. ثم إنى أنثى فى حاجة إلى الحياة الطبيعية لأى أنثى والتى تبدأ فى التحرك منذ سن الثانية عشرة.. ولكنى لم أجد أبداً الفتى الذى يمكن أن يرفعنى إلى مستوى الحب الذى قرأت عنه.. وليس معنى ذلك أن لا أحد من الشبان حاول معى.. كثير.. كثير.. وأنا أحس إلى حد الغرور بأنى على مستوى من الجمال والجاذبية يكفى لشد أى فتى.. ولكنى كنت أصد كل هذه المحاولات لأن حياتى العامة كانت دائماً أقوى من حياتى الخاصة ولأن لا أحد من كل هؤلاء استطاع أن يشدنى من حياتى العامة إلى حياتى الخاصة الخاصة.. ولم أكن أصد هذه المحاولات التى يبذلها الشبان أى «البصبصة» صداً قاسياً منفراً ما دامت كلها محاولات لا تصل إلى حد محاولة الاعتداء.. إنما كنت أتقبلها بابتسامة حلوة كأن كل ما أسمعه هو كلمات إطراء وإعجاب وتعبد فى فن الخالق.. كانت هذه المحاولات تثير غرورى ، وكان غرورى يمنحنى القوة على ألا أخاف منها ، ويمنحنى القدرة على أن أوقفها عند الحد الذى أريده.. إنى مؤمنة بأن الرجل لا يستطيع أن يأخذ من المرأة أكثر مما تريد المرأة إعطاءه.. وبما أنى لا أريد أن أعطى شيئاً أكثر من أن أتركه لحظات يقول فيها هذه الكلمات فهو لن يأخذ أكثر من ذلك ، وبعد ذلك فإنى قادرة على أن أحول اهتمام هذا الرجل إلى موضوع آخر غير موضوع الغزل.. لذلك فإن كل الذين بدءوا بكلمات الغزل انتهوا إلى أصدقاء من خير الأصدقاء ، وانقلب غزلهم إلى نوع من الاحترام الكبير لشخصى حتى أصبحوا يلجأون إلىَّ فى مشاكلهم مع البنات الأخريات ، وإن كنت قد احتفظت دائماً بثقتى فى أنى أستطيع أن أعيد أياً منهم إلى حالة الغزل التى بدأها وأستطيع أن أصل به إلى ما أريد..

هذه الحالة التى كنت أعيشها جعلتنى أضع للحب صورة خاطئة أقنع نفسى بها.. أصبحت مقتنعة بأن الحب هو لعبة أوقات الفراغ.. وبما أنه ليس لدى أى وقت فارغ فلا وقت لى للعبة الحب.. كأن الرجل بالنسبة لى هو مجرد قصة من القصص العاطفية التى أقرؤها لمجرد التسلية أو لمجرد اللعب بأحاسيسى بدلاً من أن ألعب بأوراق الكوتشينة..

ولكن هناك شىء آخر غير الحب.. هناك الزواج..

والزواج هو مجرد تنظيم داخل المجتمع الإنسانى للعلاقة بين الأنثى والذكر.. بين المرأة والرجل.. فما دام الله قد خلق الإنسان فى صورة رجل وخلقه فى صورة امرأة ، وجعل كل صورة تكمل الأخرى. وكل صورة فى حاجة إلى الأخرى لتغطية دوافع طبيعية من كيان الإنسان.. أى دوافع الجنس.. وبما أن هذه الدوافع يترتب عليها تأثير مباشر على المجتمع الإنسانى كإنجاب الأطفال مما يترتب عليه مسئولية اجتماعية يتحملها الرجل والمرأة معاً ، ولذلك فإن المجتمع الإنسانى منذ وجد وهو يحاول تنظيم هذه المسئولية.. وهذا هو ما يسمى الزواج.. وقد تعددت وتضاربت نظم الزواج بين مختلف المجتمعات الإنسانية ولكنها فى النهاية تسعى إلى هدف واحد هو تنظيم المسئولية الاجتماعية لارتباط الرجل بالمرأة..

هذا هو الزواج كما أراه..

وحتى لو افترضنا أنى أرى الزواج كمجرد عملية تنظيمية أقرب إلى الصفقات التجارية أو الإجراءات الإدارية فليس معنى ذلك أنى أتصور أن الزواج يمكن أن يتم بلا إحساس.. مجرد ممارسة جنسية وتعامل فى متطلبات الحياة.. لا.. لا يمكن فحتى العمليات التجارية يحكمها الإحساس الشخصى ، إنك لا تشترى كيلو لحمة أو كيلو برتقالاً إلا إذا كان إحساسك الشخصى الخاص يدفعك إلى اشتهاء

واختيار اللحمة أو البرتقال.. وكذلك الزواج ، فإذا لم يتم نتيجة علاقة عاطفية قوية وهو ما يسمى الحب ، فيجب أن يتم على أساس الاختيار الحر.. والاختيار هو مسئولية شخصية كاملة.. ليست مسئولية الأب ولا مسئولية الأم.. إنها مسئولية الفتاة نفسها فى اختيار زوجها أو مسئولية الشاب فى اختيار زوجته.. والمسئولية العاطفية فى الزواج قد يحركها القلب.. وقد يتغلب فيها حكم القلب على حكم العقل. أما مسئولية الاختيار المجرد فيحركها العقل.. وقد يتغلب فيها العقل على القلب.

ومنذ وعيت أنوثتى وأنا أرسم مستقبلى على أساس أن أتزوج.. لم أرفض أبداً فكرة الزواج بل كلما كان العمر يتقدم بى ازداد ارتباطاً بفكرة الزواج.. كنت مقتنعة أن الزواج هو بالنسبة لى استكمال لوضعى الاجتماعى .. والمجتمع قد لا يهمه أن يتزوج الرجل.. أى أن الرجل الأعزب يبقى محتفظاً بوضعه الاجتماعى سليماً ولكن المجتمع لا يرحم الفتاة التى لا تتزوج.. قد يتهمها بالقبح الذى جعل الرجال ينفرون منها ، أو يتهمونها بفضيحة أخلاقية ، أو يتهمونها بالجنون ، ثم يطلقون عليها لقباً يضعونه فى مستوى ألقاب الحيوانات الشاذة.. لقب «عانس».. وربما كان هذا التفريق بين الرجل والمرأة فى حتمية الزواج ، يرجع إلى اختلاف مسئولية كل منهما نحو المجتمع... فالمرأة هى المسئولة عن إنجاب الأطفال.. عن استمرار المجتمع واستمرار الحياة الإنسانية.. هى المصنع الذى يمد المجتمع بعناصر الاستمرار.. أما الرجل فهو مجرد العامل الذى يعمل داخل هذا المصنع ، فإذا لم يعمل أو لم يؤد عمله فهناك غيره.. وهذا هو ما يؤدى إلى اختلاف حكم المجتمع على المرأة العاقر والرجل العاقر.. إن حكمه على المرأة العاقر أشد وأقسى.. وكل هذه الأسباب - وغيرها كثير - هى التى تدفع المجتمع إلى سوء معاملة المرأة التى

لا تتزوج حتى لو استطاعت هذه المرأة أن تكون طبيبة ناجحة. أو تحصل على دكتوراه علمية. أو تؤدى خدمات للشعب كله.. أبداً.. كل هذا لا يكفى حتى تتمتع المرأة باستكمال وضعها الاجتماعى.. يجب أن تتزوج..

ولهذا قررت منذ البداية أن أتزوج.. وربما كان هناك دافع آخر يلح على وأنا أنتقل من سن الصبى إلى سن الشباب.. دافع احتياجى إلى الجنس الآخر.. إنه احتياج لا يمكن أن تنكره امرأة حتى لو دخلت الدير.. احتياج مستمر حتى لو نجحت فى مقاومته.. وكانت تمر بى أيام تشتد بى هذه الحاجة.. أحتاج إلى رجل يحتضننى.. يقبلنى.. نشترك معاً فى ممارسة أنوثتى ورجولته.. وقد قلت إنى كنت أقرأ القصص العاطفية المحلية والعالمية فى أوقات فراغى ، كنوع من الدراسة الاجتماعية. وكنت أقرأ كتب الدراسات الجنسية كنوع من الاطلاع العلمى ، ولكن هذه القصص وهذه الدراسات كانت تصل بى غالباً إلى تغلب إحساسى الذاتى بالعاطفة والجنس على اهتماماتى العلمية ، فأتعذب.. أتعذب وأجد نفسى فى حالة فرار إلى الحياة العامة والدراسات المجردة كنوع من المقاومة لنفسى.

ويزداد اقتناعى بأن أتزوج..

ولا شك أنى لو كنت صادفت الحب فى أى مرحلة من حياتى لتزوجت الرجل الذى أحبه حتى قبل أن أتم تعليمى.. ولكنى لم أحب.. وعشت على أن أتزوج زواج عقل... زواج اختيار يقتنع به عقلى.. وعقلى كان مصمماً على ألا أتزوج إلا بعد أن أتخرج فى الجامعة ، وبعدها أبدأ فى عملية الاختيار..

وقد تزوجت أختى الأكبر ، وهى فى السادسة عشرة من عمرها.. لم تتزوج عن حب ، كما لم تتزوج بعقلها ولكنها تزوجت بعقل أمها.. وكان زواجاً موفقاً لا يزال صورة مستمرة رائعة للحياة العائلية

والاجتماعية.. أما أنا فقد كان بين عقلى وعقل أمى تباعداً كبيراً.. لم تقتنع أبداً بحياتى العامة ولا بتفرغى للدراسة وكانت فرحتها عندما تتلقى نتيجة الامتحان وتجدنى الأولى بين الناجحات لا تستمر إلا ساعات ، تبدأ بعدها فى الحديث عن الزواج وتعرض على أسماء المرشحين ، ولم أكن أرفض هؤلاء المرشحين ولكنى كنت أرفض الزواج نفسه.. وتثور أمى وتتهمنى بأنى مغرورة مجنونة ، ولكن أبى كان دائماً بجانبى.. إنى أقرب إليه بعقليتى. ولأنه لم يرزق بأولاد فلم يكن له إلا أختى وأنا ، فقد كان فرحاً بهوايتى وتفرغى للدراسة ، وكان يؤيد اشتراكى فى الحياة العامة بما فيها مظاهرات الطلبة. كأن كل ذلك كان يعوضه عن حرمانه من الأولاد.. أنا أصبحت ولده ، ولعله كان يعلق على كل آمال الأب فى ابنه الولد لا فى ابنته ، ولذلك كان يرفض إلحاح أمى ويصمم هو الآخر ألا أتزوج إلا بعد أن أتخرج فى الجامعة.. لأن الأولاد لا يتزوجون إلا بعد التخرج.. وأنا ولد !

وكنت قد التحقت بكلية الحقوق ، ولم ألتحق بها لمجرد أنى قررت التخصص فى دراسة الثانوية ، ولا لأنى كنت أريد أن أمارس المحاماه ، ولكن الدافع الأول لاختيارى كلية الحقوق هو أنها كانت أيامها الكلية القائدة لكل الحياة الجامعية ، وكان خريجوها هم المتخصصون فى الحياة الجامعية ، وهم المتخصصون فى الحياة السياسية والتطورات الوطنية ، وأغلب رجال الحكم منهم.. الطريق السهل لكى تكون وزيراً هو أن تبدأ بأن تكون رجل قانون وخريج كلية الحقوق ، وهو ما انتقل بعد الثورة إلى الكلية الحربية ، وأصبح الطريق السهل لكى تكون وزيراً هو أن تبدأ بأن تكون ضابط جيش..

ورغم ذلك فقد هويت دراسة القانون واستغرقتنى كلى.. بدأت أحس من خلال دراسة الأفرع المتعددة لعلوم القانون أنى أدرس

الإنسان كله منذ وجد الإنسان على ظهر الأرض.. أدرسه من أدق تفاصيله.. وأخذتنى هذه الدراسة من كثير من أوجه نشاطى الاجتماعى والسياسى.. والواقع أن الحياة الاجتماعية والسياسية كانت أيامها شبه مجمدة ، فقد كانت أيام الحرب العالمية الثانية (٣٩ – ٤٥) وكانت الحركات الوطنية العامة الصريحة قد خفقت فى انتظار انتهاء الحرب ، ولم يعد يتحرك داخل الجامعة إلا تنظيمات بعض الأحزاب التى يقودها طلبة محترفون ويقودونها دفاعاً عن الحزب الذى ينتمون إليه لا دفاعاً عن قضية وطنية ، أو كانت تحركات لتنظيمات سرية تؤيد الألمان فى الحرب نكاية وكراهية فى الإنجليز.. ولذلك فقد تفرغت تقريباً للدراسة واتسعت دراستى إلى أبعد من مقررات الجامعة ، ورغم ذلك فإنى لم أنزو كلية عن الحياة العامة واستطعت أن أكتسب صداقة كل أساتذة الجامعة وأنصاف الأساتذة والمعيدين ، وتعرفت على كثير من الطلبة.. واشتركت فى كثير من الندوات والاجتماعات.. أصبحت معروفة داخل الجامعة.. بل وخارجها.. فقد بدأت سلسلة تعارف بكبار الشخصيات السياسية والاجتماعية وخصوصاً كبار المحامين... وكنت أفرح وأعتز بنفسى وأنا أقدم نفسى بعنوان «طالبة فى كلية الحقوق » والغزل يحيط بى مع كل تحركاتى.. إن نسبة الغزل ترتفع داخل الجامعة عنها فى خارجها.. ربما لأن الفتاة تبدو أجمل وهى بين زملائها.. أو ربما لأن نسبة الجمال فى الشوارع أكبر من نسبتها داخل المدرجات ولذلك تستأثر الطالبات بالاهتمام بعيداً عن منافسة الشارع.. ولم يكن نصيبى من الغزل محدوداً بزملائى الطلبة.. كان لى نصيب كبير من غزل الأساتذة وخصوصاً من غزل المعيدين.. وكنت أتبع نفس الأسلوب الذى قررته.. فأنا لا أنفر من الغزل ولا أقابله بالصد العنيف ولكن أستطيع دائماً أن أوقفه عند الحد الذى أريده وأستطيع

أن أحوله إلى صداقة من نوع آخر ولذلك ومع مرور الوقت اكتسبت كياناً محترماً بين زملائى وصداقة الكثيرين وإن كنت قد حرمت من كلمات ومحاولات الغزل.. إلى أن بدأ عبدالحميد يشغل فكرى..

كنت قد وصلت إلى السنة الرابعة فى كلية الحقوق سنة التخرج.. ولم يكن عبد الحميد طالباً معى ولا من خريجى الحقوق ، ولكنه كان صديقاً للعائلة ، ووالده يرتبط بصلة قرابة بعيدة بأمى.. ولم نكن نتزاور إلا نادراً ولكنه بعد آخر زيارة عائلية بدأ يتردد علينا كثيراً.. كان يزورنا وحده وكان يستطيع دائماً أن يستغل صلة القرابة البعيدة ليبرر زيارته.. وفهمت.. وفهمت أمى وأختى ولعل أبى قد فهم أيضاً.. إنه يريدنى ولعل أول ما جعلنى أفكر فى الاستجابة له هى خفة دمه.. إن مظهره رائع.. قوامه وسمرته ووسامة رجولته.. ولكن الأقوى من مظهره هو خفة دمه.. خفة بلا مغالاة أو تبذل.. إنه يستطيع أن يجعلنى أضحك كلما أرادنى أن أضحك.. وهو يأخذ الحياة كلها من ناحيتها الحلوة المتفائلة.. حتى الحياة السياسية يراها كما هى حياة طبيعية تؤدى من تلقاء نفسها إلى كل ما نريده منها ، بلا ضجيج ، وبلا معارك ، وبلا عقد.. يريحنى فى كل ما نتناقش فيه ويتركنى مرحة ضاحكة..

وبدأت أفكر فى أن أختاره زوجاً.. إنى فى وقت يجب أن أقرر فيه الاختيار فإنى سأتخرج فى الجامعة بعد شهور وقد وعدت نفسى ووعدت عائلتى بأن أتزوج بعد التخرج.. فلماذا لا يكون عبدالحميد.. ولكنه يختلف عنى تماماً.. إنه يكبرنى بثلاثة أعوام فقط وقد تخرج فى كلية التجارة منذ عامين ، ولم يكن ترتيبه الأول أبداً فى أى امتحان من امتحانات الدراسة ، ثم إنه يكتفى بأن يكون مجرد موظف ، ويبدو أنه راض عن وظيفته معتمداً على دخله الكبير من حوالى مائة وخمسين فداناً ورثها عن أبيه.. ثم إنه يأخذ الحياة

بمنتهى السهولة.. يتعجب لماذا يحاول طالب أن يتفوق ليكون ترتيبه الأول.. لماذا لا يكتفى بالنجاح.. ويتعجب من هؤلاء الذين يحيلون حياتهم إلى معارك ، فى حين أن ما يمكن تحقيقه بمعركة يمكن تحقيقه بلا معركة.. إنه مختلف عنى تماماً ورغم ذلك فإنى أستريح له.. ليس حباً..ولكنه مجرد راحة.. راحة من نفسى.. ربما أرتاح إليه لأنه يمثل الناحية الأخرى.. أهرب من ناحيتى إلى ناحيته ، ويهرب من ناحيته إلى ناحيتى.. وأنا أداوم التفكير.. أنى أتزوج بعقلى لا بقلبى.. وعقلى من طبيعته أن يتعمق فى الدراسة وأنا لا أنتهى من دراسة عبدالحميد.. وسألته مرة لماذا التحق بكلية التجارة.. إنه نوع من الدراسات التى لا أميل لها ولا تجذبنى ، فلماذا اختارها هو..

وأجاب فى بساطة :

– كنت أحتار فى مناقشة التاجر الذى يشترى حصيلة أشجار الموالح فى أرضى.. وقررت أن أدرس حتى لا أحتار.. وفعلاً.. لم أعد أحتار..

قلت :

– لعلك اكتشفت أن التاجر كان يستغلك..

قال فى هدوء :

– لا.. هو الذى اكتشف أنى بدأت أفهم فأغنانى عن محاولة اكتشاف أى شىء عنه.. لم يكن الخطأ خطأه ولكنه كان خطئى لأنى لم أكن أفهم.. مجرد الفهم يغنى عن كل المشاكل..

ولم أقتنع بما يقوله.. إنها عقلية تكتفى دائماً بالسهل.. ولكنه يبدو سعيداً بهذه العقلية.. وأهم ما يجب أن أشترطه فى الرجل الذى أختاره زوجاً هو أن يكون رجلاً سعيداً. وعبدالحميد سعيد.

وأخذت أزداد اقتناعاً باختياره زوجاً ، بل إنى بدأت أرتب حياتى على أساس وجوده.. وأذكر أنه كان يوماً فى زيارتنا.. زيارة العائلة

كلها.. وقال وهو يناورنا :

– إلى الغد.. تعودت على قهوتكم..

قلت بسرعة ودون مراعاة أبى وأمى وأختى وزوج أختى الذين كانوا حولنا ، وكأن عبدالحميد قد أصبح ملكاً خاصاً لى :

– لا.. ليس غداً.. سننتظرك الخميس القادم.

وابتسمت العائلة كلها وقال عبدالحميد وهو يضحك :

– لماذا ؟

قلت فى حزم أقرب إلى السذاجة:

– لأنى أذاكر.. لا تنس الليسانس..

وقال فى بساطة :

– أنت عبيطة..

ولم أكن أتصور أبداً أنى عبيطة.. كنت أعتقد أنه يداعبنى كأنه يريد أن يقول إن حرمانه منى عبط فضحكت.. ولكن لعلى كنت فعلاً عبيطة..

٣

بدأت أعيش حياتى على أساس وجود عبدالحميد.. أصبح عبدالحميد جزءاً من حياتى رغم أنه لم يكن قد فاتحنى فى الزواج بعد.. وبدأ عقلى يرسم تنظيماً دقيقاً لهذه الحياة كأنه عقل مهندس يرسم خطوط عمارة.. ومنذ البداية وأنا أحسب حساب كل شىء على أساس طموحى الشخصى.. وكنت أترك هذا الطموح يتغلب على كل ما عداه.. يتغلب على عواطفى وعلى عواطف عبدالحميد.. بل إنى كنت أبذل فى دراسة القانون أكثر مما أبذله فى دراسة عبدالحميد نفسه ، حتى أفهمه ، وحتى أجعل من نفسى المرأة التى تسعده.. ربما كان هذا يعبر عن أنانيتى.. إنسانة لا تفكر إلا فى نفسها وفيما تريده.. وربما كان مجرد عبط كما تعود عبد الحميد أن يصفنى.. عبيطة.. عبيطة لأن طموحى إنسانى قبل كل شىء حتى نسيت أنى امرأة ، وأنى فى حاجة لأن أكون امرأة أكثر من حاجتى لأن أكون زعيمة وطنية.

وكنت قد حددت لعبدالحميد يومين فى الأسبوع لزيارتنا.. يوم الاثنين لتناول الشاى، ويوم الخميس لتناول العشاء ، وبقية أيام الأسبوع لا أريد أن يزعجنى أحد وأنا أدرس استعداداً لامتحان الليسانس.. وقبل عبدالحميد هذا التحديد رغم أنه كان يستطيع أن يزورنا كل يوم ، ورغم أننا لم نكن قد أعلنا ارتباطنا بشىء.. ربما كان

أيامها يأخذنى بمقاييس عقلى وهو واثق أنه يـ ما ما يستطيع أن يسيطر على ويتولى هو تحديد المواعيد.. وقد حدث أن جاء يوماً فى غير الموعد المحدد.. كان يوم أربعاء على ما أذكر.. وجلس مع بابا وماما وبقيت أنا فى غرفتى أذاكر ولم أخرج إليه.. ولم يحتج عبدالحميد ولم يبد عليه أنه اهتم وكأنه جاء لمجرد الدردشة مع بابا، وحتى عندما جاء فى اليوم التالى – يوم الخميس – لم يعاتبنى لأنى لم أخرج إليه من غرفتى.. كأن كل شىء طبيعى.. كأنه يريدنى كما أنا.. والواقع أنى أنا التى تضايقت واغتظت وأحسست كأنه يتعمد إهمالى وأنى لا أساوى عنده أن يثور لأنى امتنعت مرة عن لقائه.

وبعد أسبوع أو أسبوعين – لا أذكر الآن بالضبط – جاء عبدالحميد مرة أخرى فى غير المواعيد المقررة.. كان يوم أحد.. وسمعته يسأل ماما :

– أين سعاد ؟

وسمعت أمى تجيبه :

– كالعادة.. تذاكر فى غرفتها.

وفجأة وجدت باب حجرتى يفتح وعبدالحميد واقف أمامى بكل وسامة رجولته وابتسامته المرحة ، ثم مال نحوى وأنا جالسة إلى مكتبى وهمس قائلاً :

– سعاد ما رأيك لو تزوجنا.

ولم أفاجأ.. كنت دائماً فى انتظار أن يفاتحنى فى الزواج.. ولكنى فوجئت بالأسلوب الذى فاتحنى به ، مفاجأة حلوة أنستنى أنه دخل إلى وأنا فى قميص النوم والروب كما تعودت أن أكون وأنا أذاكر.

وقلت وأنا أحاول أن أخفى الفرحة التى تفضحها ابتسامتى :

– اليوم لا يوم الاثنين ولا يوم الخميس.. اليوم شغل.

وأجاب ضاحكاً :

– الزواج شغل كل أيام الأسبوع ما عدا الجمعة.

وقلت ضاحكة :

– بالعكس.. الزواج شغل يوم الجمعة فقط.

وسكتنا عن الضحك ، وتعلقت عيناى بعينيه كأن كلا منا يلقى بنفسه فى داخل الآخر ، وعاد يهمس :

– ما رأيك ؟

وهززت رأسى بالإيجاب الصامت.. نعم... نتزوج.. ثم تنبهت فجأة كأنى استرددت عقلى وقلت :

– بعد الامتحان يا عبدالحميد..

واقترب منى أكثر. شفتاه قريبتان من شفتى ، ولم أتراجع.. ولكن عقلى لايزال مسيطراً على.. وقلت :

– أقصد أن نؤجل الحديث فى الموضوع إلى ما بعد الامتحان.

وهمس :

– إنه ليس موضوعاً نتحدث فيه.. موضوع نعيشه.

وشفتاه..

إنه يقبلنى..

وكانت أول قبلة أستسلم لها... التجربة الأولى فى حياتى.. وأنا فى الواحدة والعشرين من عمرى... وبدأت أعيش القبلة.. بدأت تتحرك فى هذه الأحاسيس التى كنت أتخيلها وأنا أقرأ القصص العاطفية والدراسات الجنسية.. وأحسست بيدى تمتد وتتحسس ذراعه... تتحسس جسده. أريد أن ألمس جسد رجل.. ولكن عقلى لا يزال يقاومنى.. إن كل هذه الأحاسيس هى غذاء أوقات الفراغ.. وأنا لست فى وقت فراغ.. إنى أذاكر.. وقاومت.. قاومت نفسى ، وانتفضت واقفة كأنى أهرب.. أهرب من نفسى.. وقلت من خلال أنفاسى المتهدجة :

- دعنى الآن.. يجب أن أعود للمذاكرة... الامتحان قرب.

ونظر إلى عبدالحميد من خلال ابتسامة تحمل معنى الشفقة.. الرثاء.. كأنه يشفق على حبيبته العبيطة.. وقال :

- غداً.. الاثنين.. يوم الشاى.

ومد يده ومسح بها على شعر رأسى كأنه قسيس يهبنى بركته.. بركة الحب... ثم خرج من الغرفة.. وعدت إلى مكتبى ولكنى لم أستطع أن أعود إلى كتبى.. إن تصور مستقبلى مع عبدالحميد يأخذنى بعيداً.. لم أستذكر شيئاً ليلتها رغم أنى حاولت أن أستعين بأسلوب الاستذكار بالقلم ، أى أن أكتب ما أقرأه.. وهو الأسلوب الذى كنت ألجأ إليه عندما أكون متعبة أو عندما يكون هناك ما يشغلنى.

وقمت فى الصباح التالى وأنا ساخطة على نفسى ، أحس كأنى على وشك أن أدمن عبدالحميد... كأنى تناولت أول جرعة من مخدر قد تنتهى بى إلى إدمان المخدرات.. وقررت أن أقاوم هذه المخدرات فألقيت بكل نفسى فى النشاط اليومى للجامعة.. المحاضرات والدراسات الفرعية «السكشن» ثم أخذت أطارد الأساتذة والمعيدين وأدخل معهم فى مناقشات حول المواد الدراسية رغم أنى لم أكن فى حاجة إلى هذه المناقشات.. واكتشفت وأنا بين الطلبة أن هناك حركة داخل الجامعة لمقاومة القرار الذى اتخذه أحمد ماهر بأن تعلن مصر الحرب بجانب بريطانيا والحلفاء.. وكان أحمد ماهر هو رئيس الوزراء ورئيس الحزب السعدى ، وكانت الحرب العالمية قد انتهت تقريباً.. وقد بدأت هذه الحرب ومصر ترفض الاشتراك فيها رسمياً رغم أن القوات البريطانية كانت تحتل مصر كلها وتسيطر على كل إمكانياتها سيطرة كاملة ، بل إن الجيش المصرى كان يحارب مع الإنجليز فعلاً فى بعض المواقع على الحدود أو أنه كان جيشاً يقدم

الخدمات .قوات الحلفاء.. ورغم ذلك رفضنا إعلان الحرب رسمياً ضد هتلر وموسيلينى كما فعلت الهند وباقى المستعمرات الإنجليزية ، وأعلن على ماهر أيامها وكان رئيساً للوزراء ، شعاراً يقول فيه : « هذه حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل ».. إلى أن تمت هزيمة هتلر وموسيلينى ولم تبق من القوى المحاربة المعادية للحلفاء إلا اليابان.. أى انتهى خطر الحرب عن مصر... فقام أحمد ماهر - وهو شقيق على ماهر - وقرر إعلان الحرب رسمياً بجانب الحلفاء ، أى بجانب بريطانيا ، وكانت حجته أن إعلان الحرب رسمياً من جانبنا يعطينا الحق فى حضور مؤتمرات التصفية العالمية.. وثارت النزعة الحزبية فرفضت الأحزاب المعارضة هذا القرار واستجابت الأغلبية الشعبية لهذا الرفض كمجرد كراهية للإنجليز وهو الرفض الذى انتهى باغتيال أحمد ماهر.. وقد قلت إنى فى سنوات الجامعة كنت مبتعدة عن الاهتمام بالسياسة أو الاشتراك فى الحركات السياسية ، لأن الحركة الوطنية الواقعية كانت مجمدة ولأن المطالبة بجلاء القوات البريطانية أثناء الحرب العالمية كان مستحيلاً ، ثم لأن الجامعة أيامها لم يكن فيها عدد من الطالبات يكفى لقيام تنظيم منهن منفصل عن تنظيم الطلبة وأتولى زعامته.. ولكنى فى هذا اليوم وجدت نفسى مندفعة للاشتراك فى مظاهرات رفض إعلان الحرب.. لم يكن هذا الاندفاع نتيجة لدراسة سياسية ، ولا نتيجة للانضمام إلى تنظيم معين ، ولكنه كان نتيجة تأثير أول قبلة تبادلتها مع رجل وخفت أن أدمنها.. أن أدمن عبدالحميد.. فكنت أبحث عن أى شىء أستعيد به شخصيتى العامة.. شخصيتى التى كنت أعتز بأنها أقوى من شخصية أى بنت من البنات المستسلمات لأنوثتهن.. وتحمست للمساهمة فى المظاهرات إلى حد أن ألقيت بين

المتظاهرين خطاباً طويلاً استعدت به كل كيانى كزعيمة للجيل السياسى الجديد.

وعدت إلى البيت فى الساعة السادسة مساء.. عدت وأنا مبهدلة.. شعرى منكوش.. ووجهى معفر.. وثوبى مكرمش ، وحذائى مترب ، ووجدت عبد الحميد ووالدته مع بابا وماما ، والجميع فى انتظارى.. ودخلت إليهم كما أنا ، وجلست دون أن أستأذن حتى أصلح من نفسى.. وأم عبدالحميد تنظر إلى فى دهشة ثم تنقل عينيها إلى ابنها كأنما تتهمه فى ذوقه وتسأله.. أهذه هى التى تريد أن تتزوجها.. وقال لى عبدالحميد :

– تأخرت..

ونظرت إليه فى تعجب كأن ليس من حقه أن يحاسبنى ، وقلت وأنا أنظر فى عينه كأنى أهم أن ألقى خطاباً سياسياً آخر :

– الحركة قوية.. لا أعتقد أن إعلان الحرب سيتم.

وقاطعنى عبدالحميد ضاحكاً وهو يقول :

– الأهم هو إعلان خطوبتنا.

وابتسمت.. لم أستطع أن أقاوم الابتسامة.. ولكنى عدت أقول :

– أنا أتكلم جد يا عبدالحميد.. الحركة كبيرة ولن تنتهى إلا إذا..

وقاطعنى بابا ضاحكاً :

– عبدالحميد بيتكلم جد.. تقدم لى رسمياً بطلب إعلان الخطوبة.. وأنا أعرف رأيك مقدماً..

ولم أستطع أن أستمر فى المقاومة ، تغلبت على أنوثتى وشملنى الحياء الأنثوى الذى ينتاب كل فتاة وهى تعلن أنها تعطى نفسها لرجل.. ولم أتكلم ، وقالت ماما :

– قومى يا سعاد بدلى ثوبك وأصلحى نفسك.. أرسلنا لأختك تأتى إلينا.

وقمت أجرى كفتاة صغيرة.. وذابت كل مقاومتى النفسية وأنا واقفة أمام مرآتى أتزين وأنتقى ثوبى وأعقص شعرى حتى أبدو كعروسة حلوة.. وتغيبت عنهم طويلاً كأنى عروسة تسوق الدلال إلى أن جاءت أختى وزوجها ، فخرجت إليهم لنقضى سهرة عائلية طويلة كنت أحاول خلالها أن أعود إلى أحاديث السياسة والحركة الجامعية فتقاومنى العائلة كلها وتعود بى إلى الأحاديث العادية الضاحكة ، ولكنى صممت ألا نعلن الخطوبة ولا نلبس الدبل إلا بعد أن انتهى من الامتحان.. لا شىء قبل الليسانس.. واكتفينا ليلتها بأن وضع عبدالحميد يده فى يد بابا وقرءا الفاتحة وكلنا نضحك وكأننا لسنا فى حاجة إلى هذه الرسميات.

وانتهت ليلتها السهرة الحلوة ، وعدت إلى غرفتى لاتذكر أنه مضت ليلة أخرى لم أجلس فيها إلى مكتبى ولم أذاكر وأحسست كأنى أصبحت مهددة فى مستقبلى كله.. وعدت إلى روح المقاومة.. مقاومة المخدرات.. مقاومة عبدالحميد.

■ ■ ■

ربما كان مما فاتنى أيامها.. أيام أول رجل فى حياتى.. هو أن أدرس الحياة الخاصة لهذا الرجل.. ذوقه.. مزاجه.. ما يريده وما لا يريده ، وكان كل ما أعرفه عن حياة مصطفى الخاصة هو ما يصرح لى به خلال أحاديثنا.. إنه يحب الموسيقى ويحتفظ بمجموعة كبيرة من الإسطوانات القديمة والحديثة والعربية والإفرنجية.. وهو يبدأ سهرته كل ليلة فى « بار » يجتمع فيه مع أصدقائه ثم يذهب معهم أحياناً إلى محل من المحال المشهورة.. سميراميس أو شبرد أو مينا هاوس ليتناول العشاء على نغمات الموسيقى ، وأحياناً فى بيت أحد الأصدقاء ليلعبوا الورق أو الطاولة.. وهو يحب الكوتشينة والطاولة والبلياردو ولكنه ليس مقامراً إلى حد الإدمان.. وهو يحب الرقص

الإفرنجى بل إنه يعتبر نفسه من أمهر من يجيدون الرقص من أول التانجو إلى رقصة «السامبا» التى ظهرت أيامها.. وكنت أسمع أحاديثه عن كل هذه الحياة دون أن أهتم.. مجرد أحاديث... حتى عندما كان يحدثنى عن هواياته للرقص لم أكن أهتم بأن أسأله عن الفتيات أو النساء اللاتى يراقصهن.. بل إنه روى لى قصة حب تتعلق به قبل أن ينتقل بقلبه إلى ، فلم أشعر بالغيرة من ماضيه ولم أحاول أن أستدرجه إلى تفاصيل هذا الحب لأقارن بينى وبين من أحبها قبلى.. وقد كنت مختلفة عنه فى كل هواياته ، فأنا أسمع الموسيقى بالصدفة.. وأذهب إلى المحال العامة لأنى مضطرة للذهاب.. ولا ألعب الكوتشينة ولا الطاولة وحتى الشطرنج الذى علمه لى أبى لا ألعبه إلا نادراً.. كما أنى لم أعش مغامرات عاطفية كهذه التى عاشها ، لم أشعر مرة بأنى فى حاجة إلى إشباع عاطفة تنقصنى ، وكل ما أحتاج إليه هو ما يدلنى عليه عقلى الذى دلنى على حاجتى إلى الزواج.. كل هذه النواحى التى تكون حياة عبدالحميد الخاصة كانت فى نظرى مجرد وسائل لملء أوقات الفراغ.. لا شىء منها له قيمة تدفع الإنسان إلى التعلق والارتباط به..

وأذكر أننا بعد أن انتهيت من امتحان الليسانس وقبل ظهور النتيجة أن دعانى عبدالحميد إلى العشاء فوق سطح فندق سميراميس ، الذى كان أيامها المكان الذى يجمع أرقى شخصيات المجتمع المصرى ، وذهبت لا لأنى أحب ليالى سطح سميراميس ، إنما فقط لأن خطيبى يريد أن يذهب.. عقلى يقول لى أن أذهب لا مزاجى.. وقد صحبنا معنا ليلتها أختى وزوجها كما كانت التقاليد تقضى بألا نخرج وحدنا إلا بعد الزواج.. ودقت الموسيقى هناك ودعانى عبدالحميد للرقص.. وفوجئت.. إنى لم أرقص أبداً ، وكل ما أعرفه عن الرقص هو صورة لبضع خطوات كانت أختى قد دربتنى

عليها فى يوم من أيام الفراغ.. وقلت فى إصرار :

– أنا لا أرقص..

وقال من خلال ابتسامته المرحة :

– أعلمك..

قلت :

– ليس هذا وقته..

قال :

– لو أردت الحقيقة فإنى أعلم أنك لا تصلحين للرقص.. الرقص يتطلب التحليق مع النغم.. أن نطير كما تطير العصافير.. وأنت ملاك بلا أجنحة ، وكل ما أريده هو أن ألف ذراعى حولك.. وهذا حقى.

وضحكت وأنا أمد يدى وأضعها فى يده :

– يكفيك الليلة أن تلف أصابعك حول أصابعى.

وقالت أختى كأنها تنهرنى :

– سعاد.. لا تكونى مجنونة.. قومى وارقصى كما يريد عبدالحميد.

وربما كانت أختى تقدر المسئولية الواقعية أكثر منى ، فما دام زوجها يريد أن يرقص فخير لها أن تراقصه وإلا كانت تتنازل عنه ليراقص امرأة أخرى.. كان يجب أن أقدر هذا.. أو كان يجب على الأقل أن أسايره فى هوايته ومزاجه إلى أن أستطيع أن أخلصه منها وأنقله إلى مزاج آخر.. ولكنى لم أكن أفكر فى كل هذا ، كان كل فكرى محصوراً فى مظهر الزعامة الذى كنت حريصة عليه من صغرى ، هل يصح أن ترقص الزعيمة ؟.. أن تتمايل أمام الشعب على نغمات التانجو والرومبا حتى لو كان زوجها يريد ذلك.. لا..

وأصبحت فى حالة كأن كل طلبة وطالبات الجامعة قد تجمعوا فى سطح فندق سميراميس ليتفرجوا على الزعيمة وهى ترقص.. لا.. لن

لن ترقص الزعيمة... وعبدالحميد يلح.. وأختى تلح.. وزوج أختى يقول ضاحكاً :

– إذا لم ترقصى مع عبدالحميد فسأشدك من يدك وأراقصك أنا.

وقمت أرقص..

وألصقنى عبدالحميد فوق صدره وسلط على خبرته فى الرقص ، ولأنه يعلم أنى لا أجيد الخطوات فقد كان واقفاً بى تقريباً لا يخطو ولكنه يهتز بى هزات رقيقة مع نغمات الموسيقى.. وشخصية الزعيمة لا تزال مسيطرة على فأحاول أن أبعد صدرى عن صدره.. ولكنه يشدنى.. وأتعمد أن أبعد خدى عن خده ولكنى أجد نفسى فى كل هزة كأنى أتمنى أن يلمس خدى خده.. وبدأت شخصية الزعيمة تضعف وتغلبها شخصية المرأة.. إنى أحس بعبدالحميد.. أحس به كله.. أحس به كأنه فى داخلى.. وهو خبير ماهر ، إنه يثير إحساسى به كأنه ينفخ فى النار.. يجب أن أقاوم.. لا أستطيع أن أترك نفسى لكل هذا الإحساس وأمام الناس.. إلى أن استطعت أن أنزع نفسى من بين ذراعيه وأهرب عائدة إلى المائدة وأنا أضحك ضحكة كبيرة أحاول أن أخفى بها كل ما يتحرك فى جسدى من أحاسيس أثارها عبدالحميد.. وقد أصبح الرقص من يومها مشكلة بينى وبينه.

وظهرت نتيجة الليسانس..

إن ترتيبى الرابع.. لست الأولى.. وأحسست كأن عبدالحميد هزمنى.. كأنه نجح فى أن ينزلنى إلى مستواه.. وثرت إلى أن بكيت وحدى فى غرفتى كأنى فقدت كل شىء.. وربما فكرت يومها فى أن أختار بين الصورة العامة التى أرسمها لنفسى.. صورة التفوق فى كل شىء.. صورة الأولى فى كل امتحان والزعيمة فى كل اجتماع.. أو أختار صورة المرأة التى يجب أن تتزوج وأن تضع حياتها الزوجية قبل حياتها العامة.. وحتى أخرج من هذا الاختيار أقنعت

نفسى بأن عبدالحميد ليس مسئولاً عن تأخرى فى ترتيب الناجحين.. وأنا المسئولة.. أنا التى لم تنظم حياتها على الوجهين.. وجه طموحها العام ووجه احتفاظها بالرجل الذى اختارته.. وكل ما أحتاج إليه هو مزيد من التنظيم ومزيد من المقاومة..

وتزوجنا..

وحتى فى حفل الزواج كان لكل منا مزاجه.. عبدالحميد كان يريده حفلاً عائلياً نسافر بعده مباشرة إلى الإسكندرية لقضاء شهر العسل.. وأنا أريده حفلاً كبيراً صاخباً يليق بالزعيمة ويجمع كل الأتباع. ولا أحس بأى أهمية لما يسمى شهر العسل ، وحققت ما أريده.. أقمنا الحفل فى مبنى الاتحاد النسائى الذى كانت تتولاه السيدة هدى شعراوى وكنت أساهم فيه وعلى علاقة بكل عضواته ، وشملت قائمة المدعوين العشرات.. كل أساتذة كلية الحقوق ، وكل أصدقائى من الطلبة والطالبات ، وكل الشخصيات التى عرفتها خارج الجامعة ، بينما لم يكن عبدالحميد قد دعا أكثر من خمسة من خاصة أصدقائه بجانب أفراد عائلته.

تزوجت الزعيمة..

وكانت فرحة الزعيمة بهذا الزحام الذى يحيط بها وهذا الجمهور الذى يحييها أقوى من فرحتها بالزواج نفسه وأقوى من فرحتها بالعريس بل إنى أحسست ساعة الزفة.. زفة العروس.. أحسست كأن الموسيقى التى أسمعها هى موسيقى السلام الملكى ، وأن أغنية «اتمخترى يا حلوة يا زينة» ليست إلا نشيداً وطنياً يطلقونه تحية للست الزعيمة.. وكنت أسير فى موكب الزفة والطرحة البيضاء فوق رأسى وذراعى فى ذراع عبدالحميد ، وأسير مرفوعة الرأس كأنى فى حفل افتتاح البرلمان ، وأبتسم للجمهور ابتسامة هادئة رزينة كأنى ملكة إنجلترا فى موكب رسمى.. كان قد ضاع منى خلال

الحفل كل إحساس بأنى عروسة وأن هذه حفلة زفافى ، وأصبح كل ما أحس به هو أنى شخصية مهمة.. قائدة.. زعيمة.. وهذه الشخصيات التى تجمعت حولى لم يجمعهم أبى ، ولم يستطع أن يجمع مثلهم فى فرح أختى ، ولا جمعهم عريسى عبدالحميد ، أنا التى جمعتهم كشخصية عامة ناجحة ، وكل هذا أنسانى عبد الحميد نفسه ، لم يعد بالنسبة لى إلا شخصية أقرب إلى شخصية كبير الياوران الذى يزينون به موكب الزعيم ، ولم ألحظ ضيقه من كل هذا الذى يدور من حوله ولم أسمع تعليقاته الساخرة الجارحة التى يوزعها على كل شخصية تقع عليها عيناه فى نكات هامسة كأنه يخفف بها عن ضيقه.

وانتهى حفل الزفاف.. كانت الساعة قد بلغت الثانية صباحاً ، وكنت أعتقد أننا سنقضى بقية الليل فى بيتنا إلى أن نسافر إلى الإسكندرية فى اليوم التالى أو بعد أيام لنقضى شهر العسل.. ولكن عبدالحميد شدنى من يدى وقال وهو يجرنى خلفه :

– جاء الوقت الذى يكون لى فيه رأى..

ثم دفع بى إلى داخل سيارته وأنا ما زلت فى ثوب العروس وجلس إلى مقعد القيادة وانطلق إلى طريق الإسكندرية ، وصرخت :

– إننا لم نأخذ حقائبنا..

وقال فى لهجة جادة :

– لن نكون فى حاجة إليها الليلة.

وفهمت ما يقصده ، وانتقلت كل أحاسيسى فجأة إلى ما أنا مقبلة عليه.. ليلة الدخلة ، أنا فى أحضان زوجى عبدالحميد.. وبدأت تأخذنى كل صُور المعاشرة الزوجية.. امرأة ورجل.. وأسترجع كل ما قرأته من دراسات عن الجنس وكل ما مر بى من لقاءات الحب خلال فترة الخطوبة.. وبدأت أحس كأن شفتى ترتعشان تحت تأثير

قبلة ، وذراعى تتوجعان تحت ضغط أصابع عبدالحميد.. وحاولت أن أقاوم كل هذه الأحاسيس على الأقل إلى أن نصل إلى الإسكندرية ، فأخذت أتحدث عن الحفل وعن المدعوين ، وعبدالحميد يقاطعنى ويتحدث عن أيامنا التى بدأنا نعيشها.. عن بيتنا.. وعن حبنا.. وفتح الراديو لتنطلق منه الموسيقى التى يحبها ، ووجدت نفسى أميل برأسى على كتفه وأنام.

وفتحت عينى وأنا فى الإسكندرية ونظرت إليه وأنا حائرة مترددة.. إنى الآن لست زعيمة ولا قائدة.. عبدالحميد هو الزعيم وهو القائد.. يا سيادة الزعيم كيف ندخل الفندق بلا حقائب.. وأنا فى حاجة إلى أشياء كثيرة تحتاج إليها كل فتاة وكلها ليست معى.. يا سيادة الزعيم دعنا نعود إلى القاهرة.. علشان خاطرى.. أنا خائفة.. أنا العذراء البريئة التى خطفها الرجل المتوحش.. وعبدالحميد يضحك ويحيطنى بنكات تضحكنى معه.. ثم يميل ويقبلنى وهو لا يزال يقود السيارة :

ووصلنا إلى فندق سان استفانو ، وخطف عبدالحميد مفتاح الغرفة التى كانت محجوزة لنا وجرى وهو يشدنى لأجرى معه.. إلى أن ألقانى على الفراش.. فراش العروسين..

ولم يعد فى إلا أحاسيس..

تبخر كل شىء من رأسى وأنا أعيش أحاسيسى.. أحاسيس العروس.. أحاسيسى بالرجل الأول فى حياتى.

وبقينا فى غرفتنا يومين لا نخرج منها ونلتف بملاءات السرير كلما وقفنا على أقدامنا ، إلى أن أرسلوا لنا حقائبنا من مصر.

وجاءت مع الحقائب أمى وأمه.

وقد خفف وجود أمه وأمى من سيطرة زعامة عبدالحميد على.. بدأت أسترد زعامتى.. كنت كلما خلوت إليه فى غرفتنا تبخر كل ما فى رأسى كشخصية عامة تبحث عن مستقبل كبير ناجح.. وأصبح

فى هذه الساعات القصيرة امرأة.. كلى امرأة ، وبعدها أعود مباشرة إلى الشخصية العامة.. شخصية الفتاة المكافحة.. وليس معنى ذلك أنى كنت لا أريد من عبدالحميد إلا هذه الساعات القصيرة التى يحيلنى فيها إلى مجرد امرأة.. لا.. إنى أريده دائماً بجانبى.. وحياتنا الخاصة لا يجب أن تؤثر فى حياتنا العامة.. الساعات القصيرة لا يمكن أن تأخذ اليوم كله.. وقد كنت أحادث عبدالحميد فى الموضوعات العامة حتى ونحن فى الفراش.. إن مصر تدخل فى مرحلة سياسية جديدة بعد أن انتهت الحرب.. ونشاط الأحزاب والجمعيات أصبح يتجه إلى العنف.. ما دورنا فى كل ذلك.. عبدالحميد لا يريد أن يكون له أى دور.. إنه يقرأ الصحف ويسمع المناقشات التى تصادفه كأنه مجرد متفرج ، وكنت أحياناً أثور عليه ونحن فى فراش شهر العسل.. ولكنها ثورة حلوة أقرب إلى التدليل.. فإنى أثق فى وطنيته رغم اختلافنا فى تحديد مسئوليات هذه الوطنية.. إنى أعلم أنه رغم كل استهتاره بالحياة العامة فلن يهرب أبداً من المسئولية.. قد يحارب.. قد يضحى بنفسه فى سبيل وطنه.. ولكن الوطنية فى نظره ليست موضوع حديث طوال اليوم ، وليست مظاهرات ، وأحزاب وجمعيات سرية ، إنها تصرف فردى يحدده الفرد لنفسه.. لم أشك أبداً فى أحاسيس عبدالحميد الوطنية رغم الخلاف الكبير بينى وبينه فى كل ما يخص الحياة العامة.

وكان هناك موضوع آخر أواجهه منذ اليوم الأول من شهر العسل :

الأطفال..

هل أنجب ؟

ومنذ قررت الزواج وأنا مقتنعة بأنى يجب أن أؤجل الإنجاب سنوات... لا أولاد ولا بنات.. فإنى مصممة على استكمال نجاحى كشخصية نسائية عامة.. قائدة وزعيمة.. وهو ما يتطلب منى التفرغ

لمتطلبات هذه الحياة العامة.. لعملى.. لاتصالاتى واجتماعاتى ودراساتى.. لا يمكن أن أتنازل عن هذا التفرغ فى سبيل شىء سهل وهو إنجاب الأولاد ، ثم لا يمكن أن أنجب وأحتفظ بحياتى العامة إلا على حساب أولادى.. إنى أعلم أن الطفل يحتاج إلى وقت أمه.. وليس عندى الآن وقت كأم.. وحرام أن أنجب وأهمل أولادى فى سبيل نفسى أو أهمل نفسى فى سبيل أولادى.

وقد قلت كل ذلك لعبدالحميد وعدت أذكره به ونحن فى صبيحة يوم الدخلة..

وقال عبدالحميد وابتسامته الحلوة المثيرة تملأ وجهه :

– أنا شخصياً لا أدرى إذا كنت أريد طفلاً أو لا أريد.. لا أريد أن أكون أباً ولا أرفض أن أكون أباً.. والطفل هو هدية من الزوجة لزوجها.. فإذا أهديتنى طفلاً فشكراً ، وإذا لم تهدينى فشكراً أيضاً لأنك توفرين على تكاليف هديتك وتحتفظين لى بشبابى ولا تلقين فى وجهى بلقب بابا الذى ينقلنى إلى عالم العجائز.

وضحكت يومها.. وبدأ يتحمل معى فى حب وحلاوة كل ما كان يسببه مشروع تحديد النسل ، أقصد منع النسل ، من إزعاج لمتعة اللقاءات الزوجية.

ولكن هناك موضوعاً أهم :

الخطوة الأولى فى مستقبلى..

لقد تخرجت فى كلية الحقوق بترتيب الرابع ، أصبح من حقى أن أعين معيدة فى هيئة التدريس بالكلية ، ورغم أنى لم أكن متحمسة للاستقرار فى الكلية حتى أحصل على الدكتوراه وأن أنتقل من معيدة إلى أستاذة إلا أنى كان يجب أن أبدأ بقبول مركز المعيدة.. إنه أشبه باللقب العلمى يشرف صاحبه ويجعل له تقديراً ومكانة خاصة فى المجتمع.. لقب « معيد » أشبه بلقب « بك » ولقب أستاذ أشبه

بلقب «باشا».. وأنا أحب أن أزهو بحمل لقب «بك» خصوصاً وأنه لم يكن عدد «باكوات» الجامعة بين النساء على أيامى يزيد على خمسة أو ستة.. وبابا يلح على أن أسعى لأعين معيدة فى الجامعة ، إنه هو الآخر يريد أن يزهو بأنه أب سعاد بك ، ويطمع فى أن يصبح يوماً أب الدكتورة سعاد.. سعاد باشا..

وكان قد مضى عشرة أيام من شهر العسل ونحن فى الإسكندرية ، ورغم حلاوة هذه الأيام فقد بدأ الضيق يغلبنى.. وبدأ عقلى يلح على أن أعود إلى القاهرة لأبدأ فى إجراءات تعيينى فى الجامعة وفى نشاطى العام.. ثم ما هو شهر العسل.. لماذا لا نفترض أن العمر كله عسل.. عمر الزواج ، ربما كانوا قديماً فى حاجة إلى تحديد شهر العسل بمعنى أنه الشهر الذى يتعارف فيه الزوجان جسدياً بعد أن تم تعارفهما روحياً وعقلياً أثناء شهور الخطوبة ، ولكن التعارف الجسدى ليس فى حاجة إلى تفرغ كامل لمدة ثلاثين يوماً.. إنه تعارف يتم طبيعياً خلال الحياة اليومية العادية.. وربما كان المقصود هو أن يتمتع الزوجان بإجازة من العمل حتى يستغرقا فى متعة لقائهما ، ولكن الحياة الزوجية يجب أن تبدأ بالحياة العادية أى أن يستمر الزوج فى عمله والزوجة فى عملها حتى يعرف كل منهما الآخر وهو فى واقعة لا وهو فى إجازة.. قد تستريح الزوجة لزوجها وهو فى إجازة ولا تستريح معه وهو فى عمله ، أو العكس.. فلماذا يبدأ الزواج بفترة إجازة مفتعلة ثم تفاجأ الزوجة بزوجها وهو شخصية أخرى بعد انتهاء الإجازة ، أو يفاجأ الزوج بزوجته إذا كانت تعمل بعد أن تخرج من فترة التفرغ له ؟!

كان هذا هو منطقى أو هذه فلسفتى التى دفعتنى إلى أن أقرر العودة إلى القاهرة ، ولم يمر سوى عشرة أيام من شهر العسل ، ولم يكن عبدالحميد يؤمن بهذه الفلسفة.. إنه يؤمن بفلسفة الإجازات

حتى ولو استمرت العمر كله.. وقد كان سعيداً وكل منا متفرغ للآخر حتى أنه كان يتمنى أن نقضى العمر كله ونحن فى حالة التفرغ ، وقد بدأ يعرض على أن نقوم برحلة إلى أوروبا على ظهر مركب تستمر إلى أبعد من شهر العسل.. إنه يريد أن يعيش عمر العسل فى هذه الحالة من التفرغ حتى لو استقال من وظيفته واكتفى بدخله من الأرض التى ورثها عن أبيه.

وقبل أن أفاتح عبدالحميد فى العودة إلى القاهرة قلت لأمى فاتسعت عيناها وفغرت فاهاً كأنها تواجه مصيبة وقالت :

– يا مجنونة.. ألا تحبينه ؟

وقلت وأنا أعرف أن عقليتى تختلف عن عقليتها :

– طبعاً أحبه.. ولكن ما الفرق بين الحب فى الإسكندرية والحب فى القاهرة ؟

وقالت الأم المنزعجة ؟

– إن القاهرة ستأخذك من زوجك ، إنى أعرفك ، ستنشغلين عنه بالجامعة والمحاضرات والكلام الفاضى.

قلت :

ولكنى سأعود دائماً إليه..

قالت ماما :

– لكى تعودى إليه يجب أولاً أن تتعودى على الحياة معه.. إن الحب ليس مجرد إحساس إنه حياة وأنت تنتقلين إلى حياة جديدة يجب أن تتعوديها إلى حد ألا تستطيعى حياة أخرى.. إنك الآن تعيشين مع رجل ولم تجربى الحياة معه فى بيت واحد وفراش واحد.. وكيف يكون وهو نائم ، وماذا يفضل فى إفطاره.. وكيف تعطينه ما يريد وكيف تأخذين ما تريدين.. إنها حياة فى حاجة إلى دراسة عملية أصعب وأعمق من كل ما درسته فى الجامعة.

قالت ساخرة :

– إنك تتحدثين بمنطق الزوجة المتفرغة ، كأختى ، لا تنسى أنى مسئولة أيضاً عن حياة أخرى ، عن مستقبلى كامرأة تعمل..

وقالت وهى تكاد تصرخ فى وجهى :

– يا مجنونة.. إنك بعقلك تسعين لخراب بيتك.

وقلت ساخرة :

– لا تخافى.. حتى لو كنت لست من هواة المطبخ فعقلى يستطيع أن يحتفظ لى ببيتى..

وتركتها لأقول لعبدالحميد إنى أريد أن أعود إلى القاهرة غداً.. ولم يمر على شهر العسل سوى عشرة أيام.. ونظر إلى عبدالحميد فى دهشة ثم انقلبت دهشته إلى ابتسامة ساخرة وقال وهو يهز كتفيه كأنه لا يهتم :

– اسبقينى أنت إلى القاهرة غداً.. وأعدى بيتنا.. وسألحق بك..

وفوجئت.. أحسست كأنه يريد أن يثبت أنه أقوى منى.. لم يحاول أن يتمسك ببقائى فى الإسكندرية.. فى شهر العسل.. ثم يتركنى أعود وحدى.. وقلت :

– لماذا لا نسافر معاً ؟

وقال ضاحكاً :

– حتى أوحشك.. وأعود وأجدك غارقة فى بحر الشوق..

قلت :

– إنك لست غاضباً..

قال وهو يبتعد عنى خارجاً من غرفتنا.. الغرفة التى شهدت أول لقاء بين زوج وزوجته :

– أبداً.. لقد أحببتك وأنا أعرف أنى أحب فتاة عبيطة.

ولم أكن أدرى أيامها أنى عبيطة.

٣

كانت المشكلة الأولى التى واجهتنى بعد الزواج هى مشكلة بيتى.. بيت من خمس غرف، حجرتان للنوم، وحجرة استقبال وحجرة طعام وحجرة مكتب..

وكما هى العادة فقد تولت تأثيثه أمى وأختى لأنى كنت متفرغة لدراستى وحياتى العامة وكنت اكتفى بإلقاء نظرة سريعة على ما يختارانه وأوافق بسرعة حتى أريح نفسى من الجدل والنقاش ومتاعب فترة إعداد جهاز العروس، وأذكر أن الشىء الوحيد الذى جادلت فيه وأصررت على اختياره هى مرآة التواليت التى توضع فى حجرة النوم فقد تعودت أن ألبس ثيابى وأتجمل وأنا واقفة على قدمى كأنى رجل ولذلك فإنى فى حاجة إلى مرآة طويلة أقف أمامها وليست مرآة قصيرة تضطرنى للجلوس أمامها.

وقد ندمت بعد أن أصبحت سيدة هذا البيت.. ندمت لأنى تركت حرية الاختيار والتجهيز لأمى وأختى فالبيت يعبر عن شخصية سيدته، وشخصيتى تختلف اختلافاً تاماً عن شخصية أمى وأختى.. ليس فى هذا البيت شىء منى.. وليس فيه ذوقى ولا رأيى ولا شخصيتى.. إنه صورة مكررة لكل البيوت التى يعبر تأثيثها عن قيمة ما تملكه من مال لا عن قيمة ذوقك.. حجرة الصالون من الأثاث المذهب المفروش بالقماش لمطرز « الأوبيسون » «والمائدة» وحجرة

الطعام من الطراز الإنجليزى والمائدة متسعة طويلة كأنها مائدة اجتماع مجلس إدارة لا مائدة جلسة مريحة لتناول طبق من الملوخية. وحجرة النوم يتوسطها سرير مذهب «كابتونيه» من طراز لويس الخامس عشر وتحيطه دواليب تكفى لتجمع فيها ثياب الجيش المصرى.. و... و... نفس الصورة التى تتكرر فى كل بيت كأنها صورة طابع بريد لا يختلف كل طابع عن الآخر إلا فى ثمنه.. ثم لماذا خمس غرف.. إننا اثنان، زوجى وأنا، فما حاجتنا إلى خمس غرف. لماذا لا تكون فى البيت غرفة نوم واحدة فإذا جاءنا ضيف وأراد النوم أرسلناه لينام فى فندق أو أعددنا له أريكة يمكن أن تتسع لتصبح سريراً، ولماذا لا يكون السرير مختصراً على مقاس اثنين والدواليب فى داخل الحائط « بلا كار » حتى نترك مساحة أكبر فارغة، ولماذا لا نجمع بين المكتب والصالون فى حجرة واحدة، ولماذا أيضاً لا نضع مائدة الطعام داخل المطبخ ما دام مطبخاً متسعاً يفتح النفس للأكل.

ثم كيف أتحمل مسئولية كل هذا البيت وكل هذه الغرف الخمس وأنا امرأة مشغولة.. امرأة عاملة.. ربما على أيامنا لم يكن للمرأة العاملة حساب فى إعداد الحياة العائلية بحيث تستطيع أن تجمع بين مسئوليتها عن بيتها ومسئوليتها عن عملها، وفى المجتمعات الأكثر تقدماً أعفيت المرأة العاملة من كل عبء الحياة العائلية حتى تستطيع أن تعمل وترتاح... هناك تعيش الزوجة العاملة والزوج فى حجرة واحدة أو حجرتين لا لأنهم فقراء ولكن كنوع من تنظيم الحياة، بل إن فى بعض المجتمعات تتولى الدولة رعاية الطفل منذ يولد حتى تتفرغ الأم لعملها.. ونحن هنا فى مصر تطورنا وتقدمنا فى رعاية مطالب المرأة العاملة من ناحية حق الإجازة فى حالة الولادة، ومن ناحية الدعوة إلى إنشاء بيوت الحضانة ولكن الذى لم يتطور ولم يتقدم هو عقلية المرأة العاملة نفسها، إنها لا تزال عقلية تخضع

للمظهر الطبقى.. المظهر الاجتماعى.. هل هى فقيرة أو غنية، وهل هى من عائلة كبيرة أو من عائلة عادية، هذا المظهر هو الذى يسيطر على حياتها الخاصة ولو على حساب حياتها العامة أى على حساب عملها، فتسعى إلى السكن فى بيت كبير، وتفرط فى إنجاب الأولاد، وتكرر نفس حياة أمها فى مسئوليتها عن الحياة العائلية دون أن تقدر أن أمها كانت متفرغة للبيت.. كانت عاملة فى البيت لا عاملة خارج البيت.. ولذلك فإن معظم نسائنا العاملات أقرب إلى أن يكن فاشلات.. فاشلات فى العمل وفاشلات فى البيت، وهو ما يمكن أن يقال عنى أنا نفسى.. أنا الزعيمة والشخصية المهمة فى الحركة النسائية.

وقد جاءت معى إلى البيت « أم زكية » وهى سيدة عجوز تعيش فى خدمة العائلة منذ كنت طفلة، وحسنين وهو شاب نوبى يشترك مع أم زكية فى أعمال البيت.. وكنت أقوم من النوم مبكرة كل صباح قبل أن يستيقظ زوجى عبدالحميد، فأطوف بغرف البيت وأصدر تعليماتى لأم زكية وحسنين ثم أتناول إفطارى بسرعة وأعد إفطار عبدالحميد وأتركه له ثم أخرج إلى عملى.. إلى الجامعة.. وأحياناً كنت أتعمد أن أوقظ عبدالحميد حتى يوصلنى بسيارته إلى عملى، وأحياناً كثيرة أتركه فهو يفضل النوم ولا يحس بشخصيته كاملة إلا إذا ذهب إلى عمله متأخراً حتى يتميز عن بقية الموظفين، وأركب الأوتوبيس فأيامها لم يكن فى القاهرة أزمة مواصلات وكانت مقاعد الدرجة الأولى فى الأوتوبيس مريحة هادئة أشبه بمقهى يلتقى فيه الطلبة والأساتذة وهم فى طريقهم إلى الجامعة.

وكانت المشكلة الأكبر التى واجهتنى فى أول زواجى هى مشكلة إعداد طعام الغذاء، لا لأنه ليس لدى وقت للمطبخ، ولكن لأنى لا أجيد الطهى ولست من هواته... وقد بدأت بأن قررت أن أتناول الغذاء عند أمى يوماً فى الأسبوع ويوماً آخر عند حماتى أم عبدالحميد، وقد

رفعت المعدل فأصبحنا نتناول الغذاء عند أمى يومين فى الأسبوع لا يوماً واحداً.. وفى باقى أيام الأسبوع كنت أعود إلى البيت وأستطيع أن أعد بمساعدة أم زكية،طبقاً من اللحم المشوى أو اللحم المسلوق والخضراوات المطهوة بالزبدة وطبقاً من السلاطة، وأقنع عبدالحميد أن هذا هو أمتع طعام صحى وكنت أحياناً أسرق من عملى بعض ساعات المساء وأدخل المطبخ وأعد طبقاً دسماً كأن يكون «مسقعة» أو طبقاً من ورق العنب المحشو، ثم احتفظ به لليوم التالى لأقدمه ساعة الغذاء، ثم تطورت إلى مرحلة أخرى بأن اتفقت مع طباخ كانت تستعين به أمى عندما تقيم وليمة.. على أن يطبخ لنا مرتين فى الأسبوع ونحتفظ بالأطباق المطبوخة داخل الثلاجة طوال أيام الأسبوع وكل هذا الارتباك هو نتيجة لأن مجتمعنا كله وتقاليدنا لا تحسب حساب المرأة العاملة إنما كلها تقاليد تقوم على أساس تفرغ المرأة للبيت .. فالمرأة العاملة لا تستطيع أن تجعل الوجبة الرئيسية فى كل يوم هى وجبة الغذاء.. بل الأفضل أن تكون الوجبة الرئيسية هى وجبة العشاء على أن يكون عشاء مبكراً فى السابعة أو الثامنة مساء... كما يحدث فى المجتمعات المتقدمة، حتى تكون قد انتهت تماماً من متطلبات عملها سواء كانت تعمل فترتين تنتهى الفترة الثانية منها فى الخامسة أو السابعة مساء أو كانت تعمل فترة واحدة تنتهى فى الثانية كمواعيد العمل فى الوظائف الحكومية، حتى تستطيع بذلك أن توفق بين الوقت الذى يحتاجه العمل والوقت الذى يحتاجه البيت مع الاحتفاظ بهدوئها وراحة أعصابها فى العمل وفى البيت.. وأكثر من ذلك، فإن إعداد المواد الغذائية الاستهلاكية التى تباع فى المحال أصبح يحسب فيه حساب ما تطلبه حياة المرأة العاملة، فاللحم لا يباع كما يقطع من جسد الحيوان بحيث يحتاج بعد ذلك إلى إعادة تنظيف وتقطيع وتليين بل إنه يباع فى أكياس جاهزة نظيفة من النايلون وكل كيس يضم النوع الذى يطلبه الزبون معداً إعداداً كاملاً

بحيث لا يحتاج من الزبون بعد أن ينقله إلى البيت إلا أن يضعه بضع دقائق فوق النار ثم يأكل طبقاً كاملاً من «الفليتو» أو «الكستليتة» أو «الكباب» أو «شاتو بريان» وكذلك الخضروات تباع فى أكياس صغيرة مجهزة بحيث تلقيها مباشرة فوق النار.. وكذلك كل شىء.. كل شىء محسوب فيه حساب مجتمع المرأة العاملة.. المجتمع الذى لم نصل إليه بعد لا فى مصر ولا فى أى بلد عربى.. أقصد أى بلد متخلف.

ومهما ذكرت من التفاصيل فإن بيتى فى الواقع لم يكن بيتاً عائلياً مستقراً كاملاً كان أقرب إلى مكان لقاء بينى وبين زوجى، أو كان كأننا نتردد على فندق نعيش فيه، لأنى لا أنا متفرغة لهذا البيت كست بيت كاملة، ولا زوجى تعود أن يعيش فى بيت ليست له سيدة متفرغة.. وكان الأقسى والأصعب من كل شىء على هذا البيت هو الاختلاف الكبير بين شخصيتى وشخصية زوجى عبدالحميد.. اختلاف ليس مقصوداً ولا هو نتيجة وضع معين، ولكنه اختلاف فى طبيعة كل منا ودوره فى الحياة.

كان عبدالحميد يبدو هادئاً إلى حد الكسل، وهو دائماً فى حالة اكتفاء ذاتى.. يكفيه ما هو فيه.. وطموحه لا يتعدى أن يكون سعيداً نفسياً يقاوم كل ما يمكن أن يعكر هذه السعادة.. وكنت مقتنعة بأن هذا التكاسل من عبدالحميد ليس نتيجة عجز فى شخصيته بل على العكس إنه نتيجة الثقة الزائدة فى نفسه، فهو دائماً واثق أنه يستطيع أن يحصل على ما يريد وما دام لا يريد شيئاً فلا شىء يستحق منه الاهتمام.. لو أراد أن يكون مثلاً وكيل وزارة لاستطاع ولكنه لا يريد، ولو أراد أن يجعل من المائة وخمسين فداناً التى يملكها خمسمائة لاستطاع ولكنه لا يريد.. وهكذا كل شىء.. لا يريد رغم أنه يستطيع.. وهذا الاكتفاء جعل حياته فى نظرى حياة فارغة.. إن يومه كله ينقسم إلى حركتين.. حركة الصباح ليذهب إلى الوزارة،

وحركة المساء التى يحدد بها أين يقضى الوقت الفارغ فإذا لم يقضه معى فمن السهل عليه دائماً أن يشغل نفسه بأى شىء آخر.. وربما كان من واجب الزوجة الأساسى ومن مسئولياتها العائلية أن تشغل وقت زوجها الفارغ، ولكنى لا أستطيع أن أتحمل مسئولية كل هذا الفراغ الذى يعطيه لى عبدالحميد.. أنا نفسى شىء مختلف عنه وليس أمامى وقت فارغ أبداً.. إن يومى مزدحم بعشرات الحركات.. إنى أذهب إلى الجامعة لأحضر فصول «السكشن» كمعيدة وفى الوقت نفسه تزدحم أوقاتى داخل الجامعة بلقاءات مستمرة مع الطلبة ومع الأساتذة ومع التجمعات السياسية.. أناقش وأساهم برأيى فى كل شىء.. ثم بعد أن أخرج من الجامعة أتحرك فى لقاءات مع مختلف الجمعيات النسائية وبعض المراكز الحزبية، وأحضر محاضرات أو أشترك فى ندوات، أو أتردد على بعض كتاب الصحف، وبعد هذا تقودنى الحركة إلى كتبى لأستمر فى إعداد نفسى لنيل الدكتوراه وكنت قد قررت أيامها أن أتخصص فى الاقتصاد السياسى.. فكيف أستطيع بعد هذا كله أن أجد فراغاً يضمنى مع فراغ عبدالحميد.. وليس معنى هذا أنى أهملته على حساب طموحى ولكنى أدخلته - أدخلت عبدالحميد - ضمن التنظيم المرتب لحياتى، فبقيت مستمرة فى تخصيص ليلتين لنا نحن الاثنين.. يومى الاثنين والخميس، كما تعودنا قبل الزواج.. وفى الليلتين أترك نفسى كلى لعبدالحميد يفعل بى ما يريد، قد نذهب إلى السينما وبعدها نتناول العشاء فى مينا هاوس أو سميراميس وأحياناً عند مطعم العاجاتى الكبابجى أو فى كازينو الحمام بالجيزة.. ثم أكون له فى فراشنا.. وطبعاً لم يكن عبدالحميد يشركنى خلال هاتين الليلتين فى هواياته الخاصة.. الكوتشينة والطاولة والبلياردو والويسكى ولا حتى فى الرقص فقد كان قد يئس منى كراقصة، وكنت أنا كلما اتسعت حياتى العامة أزداد إصراراً على ألا

أرقص.. عيب أن ترقص الزعيمة.. ولا شك أنه مع الأيام بدأ الملل والفتور يتسلل إلى هذه الليالى.. ليالى الاثنين والخميس.. وبدأنا ندعو الأصدقاء، وكانت المشكلة هى اختيار نوع الأصدقاء.. فالنوع الذى يعجبنى وأستريح له لا يعجب عبدالحميد ولا يستريح له.. والعكس..

وقد حاولت كثيراً أن أشرك عبدالحميد فى حياتى العامة.

كنت خارج حياتى الجامعية قد بدأت الاتصال بالشخصيات السياسية المعروفة.. وكان مركزى كمعيدة فى الجامعة وكشخصية نسائية يجعلهم يرحبون بهذه الاتصالات بل يسعون إليها.. ولكنى بدأت أكتشف أن المصالح الخاصة والمصالح الحزبية هى التى تتحكم فى كل آراء وتصرفات هذه الشخصيات، وقدرت أنى لا أستطيع أن أحتفظ بصداقة واحد منهم إلا إذا انضممت إلى الحزب الذى ينتمى إليه أو على الأقل ربطت مصالحى بمصالحه.. وكانت مناقشاتى مع كل منهم لا تعدو ترديد آخر الأخبار السياسية أو إطلاق أخبار جديدة معظمها كاذب، والمعارضة لمجرد المعارضة والتأييد لمجرد التأييد.. حتى المحاضرات التى كنت أحرص على سماعها كانت أقرب إلى الهتافات اللفظية منها إلى الدراسات العميقة التى تعتمد على التحليل والاسترشاد.. وكنت أفرح عندما ينسبنى كل حزب إلى نفسه.. الوفديون يعتبروننى وفدية، والسعديون يعتبروننى سعدية، والدستوريون يقدرون صداقتى، والشخصيات المستقلة تتباهى بأنى منهم.. ولكنى مع الأيام بدأت أخاف هذه الفرحة، فإن كلا منهم يحاول استغلالى فعلاً فى الدعوات الحزبية، وبدأ اسمى ينشر فى الصحف مع كل اجتماع أحضره، والمجلات الأسبوعية تنشر اسمى مع كل زيارة أقوم بها لأحد من هذه الشخصيات حتى لو كانت زيارة لزوجته أو ابنته.. بدأت أخاف لأن صورتى أمام الرأى العام بدأت تهتز، وربما كان يمكن أن تنتهى إلى تصورى كأنى امرأة

انتهازية أو نصابة، ولست الشخصية المثقفة المتفرغة للعلم كما أحب أن أبدو.. ولذلك فقد بدأت أحول نشاطى واتصالى إلى التجمعات السياسية البعيدة عن الحكم والنفوذ.. وكانت هناك جمعيات صغيرة بين شخصيات مثقفة وتضم أعداداً من طلبة الجامعة.. جمعيات تبدو أنها ثقافية وإن كان كل منها يؤمن بأيدلوجية معينة.. كان بينها تجمعات شيوعية.. وتجمعات اشتراكية.. وتجمعات فاشية أيضاً، ثم كانت هناك أحزاب معروفة ولكنها بعيدة عن الحكم.. كالحزب الوطنى، والحزب الاشتراكى الذى كان يحمل اسم مصر الفتاة تحت زعامة الأستاذ أحمد حسين، وحزب الإخوان المسلمين.. وكنت أتصل بكل هذه التجمعات كمجرد زائرة، أدعى لسماع أو إلقاء محاضرة، أو للاشتراك فى ندوة.. كان هذا هو كل شىء.. وقد كنت أرتاح فعلاً إلى هذه التجمعات أكثر من ارتياحى إلى الأحزاب الكبيرة، ربما لأنها لا تزال بعيدة عن ممارسة الحكم وربما لأنها تضم عدداً كبيراً من الشبان الأكثر حماساً من شباب أحزاب الحكم الذين وصلوا إلى حد الاحتراف المأجور، وربما لأنهم كانوا فعلاً أكثر إقبالاً على الدراسات الجدية لأنهم كانوا يبحثون عن مستقبل جديد لمصر ويحتارون فى رسم صورة هذا المستقبل بين مختلف الأيدلوجيات، وهم دائماً فى حاجة إلى قراءة كتاب أو سماع بحث سياسى جاد.

وقد ألقيت بنفسى محاضرة بين أفراد تجمع صغير كان يطلق على نفسه اسم «جماعة التحرر الثقافى» ويتخذ لنفسه مكاناً فى حجرتين ببدروم إحدى العمارات بشارع قصر العينى، وألقيت محاضرة أخرى فى اجتماع ضيق فى مبنى الحزب الوطنى الذى كان مكتباً للأستاذ فتحى رضوان المحامى.. وكنت أستقبل بفرحة عامة وترحيب كبير ربما لمجرد أنى امرأة ولأنى معيدة فى الجامعة.. وإن كانت هذه الاتصالات أيضاً كادت تشدنى إلى مصائب كبيرة..

وأذكر أني كنت فى اجتماع أحد هذه الهيئات الصغيرة وفى اليوم

التالى ألقيت قنبلة نسب الاتهام فيها إلى هذه الهيئة وقبض على كل أعضائها، وكان وزير الداخلية أيامها من الشخصيات المستقلة التى سبق أن تعرفت إليها ، صادقت السيدة زوجته وفوجئت بها تتصل بى وتدعونى إلى زيارتها، وفوجئت أكثر عندما وجدت الوزير نفسه جالساً فى انتظارى، وبمجرد أن جلست إليه قال لى :

– طبعاً سمعت عن القنبلة والمتهمين بها.

قلت :

– سمعت.

قال :

– لقد كنت معهم فى نفس الليلة.

قلت :

– لم أكن معهم ولكنى كنت عندهم ألقى محاضرة عن مستقبل مصر الاقتصادى.

قال :

– كان مطلوباً القبض عليك معهم.

قلت :

– كانت تكون جريمة فى حقى وفى حق القانون وفى حق الواقع.

قال :

– لا حقك ولا حق القانون هو الذى أنقذك لم ينقذك إلا صداقتنا أنا وزوجتى لك.

قلت :

– الحمد لله.. ولكن يجب أن تعترف بأن أسلوب القبض الجماعى على أعضاء حزب أو هيئة هو أسلوب مخرب، فإنه حتى داخل الحزب الواحد فإن المسئولية توزع، وقد يلقى أحد الأعضاء قنبلة لا يدرى عنها العضو الآخر شيئاً.

قال ساخراً من عقليتى :

– إن الحكم لا يختار بين الأساليب عندما يحمى نفسه.. إن الحاكم وهو يحمى نفسه يضرب بعنف ولا يهمه قياس درجة العنف.. لو أننا اعتقلناك الآن فلا أحد كان يمكن أن يفرق بينك وبين أى معتقل آخر لأن الحاكم معذور دائماً وهو يحمى نفسه.. إن القنبلة لم يطلقها على الحاكم شخص ولكن أطلقتها فكرة سياسية ومبدأ سياسى، أو تنظيم سياسى، فكل من يحمل هذه الفكرة أو المبدأ وكل من فى داخل هذا التنظيم مسئول، ويجب أن نحمى الحاكم منه.

وكانت المرة الأولى التى أسمع فيها تعبير «حماية الحاكم لنفسه» وقد اتخذته بعد ذلك موضوعاً لدراسات طويلة استمرت سنوات عمرى كله. وشهدت خلالها الحاكم وهو يقبض على الآلاف ويبعدهم إلى آخر الدنيا، دون أن يأمن على حماية نفسه. وإلى الآن لم أستطع أن أجد الأسلوب الذى يمكن أن يحمى به الحاكم نفسه إلا أن يترك الشعب فى انتظار أن يترك هو نفسه الحكم. وكلما قصرت فترات الانتظار كلما زاد اطمئنان الحاكم على نفسه.

المهم أنى حاولت أن أشرك زوجى عبدالحميد فى هذه الحياة.. حياتى العامة.. كنت أدعوه أن يأتى معى ليسمع محاضرة ألقيها فى إحدى الجمعيات فيرد ضاحكاً :

– أنت امرأتى ولا أستطيع أن أمارس حقوق الزوجية وأنت تلقين خطاباً فى جمعية.. تعالى.. اجلسى هنا فوق ركبتى ودعينى ألعب بأصابعى فى خصلات شعرك.. وأميل بشفتى فوق عنقك.. بينما تلقين على خطابك.. هذه هى الطريقة الوحيدة التى يستطيع بها الزوج أن يسمع كلام زوجته.

وضحكت مع عبدالحميد وجلست على ركبتيه وقبلته كأنى أعتذر له لأنى أعتدى على حقوقه الزوجية.

ورغم أنه لم يصحبنى أبداً إلى أى اجتماع إلا أنى كنت أحرص

دائماً على أن أبلغه كل شىء.. كنت أحدثه عن موضوع خطابى قبل أن ألقيه وأسرد له كل المناقشات التى تجرى فى أى اجتماع، وأروى له أخبارى فى الجامعة بين الطلبة والأساتذة.. ثم بدأت أدعو أصدقائى ومعارفى.. رجالاً ونساء إلى البيت.. أصدقاء لا يعرفهم عبدالحميد ولكنى أريده أن يعرفهم.. كنت أريد أن أقدم حياتى الزوجية إلى الأصدقاء وأقدم الأصدقاء إلى حياتى الزوجية.. وكنت أستأذن عبدالحميد طبعاً قبل أن أدعو أحداً إلى البيت والواقع أن معظم المدعوين كانوا دائماً من الرجال.. أحياناً رجال وزوجاتهم وأحياناً رجال بلا زوجات.. وكان عبدالحميد يستقبلهم بابتسامة باردة، ويجلس بينهم كانه ليس منهم.. وقد كنت أحاول دائماً أن أوجه الحديث مع ضيوفى إلى مواضع تهم عبدالحميد مواضيع خاصة بالزراعة أو التجارة أو الموسيقى ولكنها كانت دائماً محاولات فاشلة تنتهى إلى سيطرة الموضوعات الجامعية والسياسية.. بل إنى وجدت عبدالحميد فى إحدى هذه الدعوات يكاد يطق من الضيق والزهق فقلت فجأة لأصدقائى المدعوين :

– ما رأيكم يا جماعة لو قمنا نلعب كوتشينة.. كونكان.

وكنت أعتقد أنى بذلك أجذبهم إلى الاقتراب من عبدالحميد فهو يحب أن يقضى سهراته فى لعب الكوتشينة.. ولكن عبدالحميد ضحك ضحكة عالية وقال :

– وده وقته يا سعاد.. ده مش وقت كوتشينة أبداً ما تبقيش عبيطة.

وكانت المرة الأولى والأخيرة التى يردد فيها عبدالحميد كلمة «عبيطة» التى يدللنى بها، أمام أصدقائى.. لعلهم لا يعرفون أنها كلمة تدليل ودلع..

واحمر وجهى خجلاً.. إلى أن حدث وكنت قد دعوت بعض الأصدقاء إلى البيت بموافقة عبدالحميد المسبقة طبعاً، حدث أن وقف

عبدالحميد بين المدعوين فجأة وقال :

– آسف يا جماعة.. مضطر أن أترككم فى رعاية أختكم سعاد..

ثم بدأ يصافح الجميع مودعاً وأنا أهتز من رعشة المفاجأة وجريت وراءه إلى باب الخروج، فقال لى من خلال ابتسامته الحلوة:

– آسف يا سعاد.. عندى معاد مع الجماعة وكنت ناسى..

وتركنى مع أصدقائى وخرج، وعدت إليهم وأنا أتعلق بابتسامة مزيفة وقلت كاذبة :

– الحقيقة عبدالحميد مشغول قوى فى متاعب الأرض بتاعته.. متاعب لا يحلها خبير زراعى ولا خبير قانونى ولا خبير اقتصادى. لا يحلها إلا العمدة والمأمور.. والعمدة لا يستطيع أن يحل إلا إذا جلس فى بار.. تصوروا.. عبدالحميد ذهب ليقابل العمدة فى بار..

ونقلت الحديث بذلك إلى دراسات اجتماعية سياسية.

ولا يهم ماذا قال لى عبدالحميد يومها بعد أن عاد فى آخر الليل، فالمهم هو أنى بدأت أقلل من دعوة أصدقائى إلى البيت، إلى أن حدث بعد فترة طويلة أن قررت أن أدعو إلى بيتى مدير الجامعة ومجموعة من الأساتذة الكبار.. إن كلاً منهم شخصية عامة لها وزنها واحترامها ويتشرف أى مخلوق أن يجلس إليها أو يدعوها إلى بيته..

ولكن عبدالحميد قال لى بصراحة :

– سعاد.. لنتكلم بصراحة.. ما ذنبى أنا.. إنهم أصدقاؤك وزملاؤك وهم لا أصدقائى ولا زملائى بل إن الدعوة هى ما يسمى «دعوة عمل» أو عشاء عمل.. وأنا لا أعمل معك.. اعفينى يا سعاد.. استقبليهم وحدك وقولى لهم إنى سافرت..

وقلت ثائرة :

– لا يمكن أن أدعوهم وحدى... إنه بيت وليس فندقاً.. والبيت يجب أن يضم الزوجة والزوج حتى يكون بيتاً..

قال فى برود :

– إذن أقيمى الدعوة فى فندق..

وكدت أنفجر من الغيظ :

– عبدالحميد.. إنى أعلم أنى أضايقك.. وإذا كنت لا تعمل معى فعلى الأقل ساعدنى فى عملى.. فى بناء مستقبلى..

وتحايلت عليه طويلاً حتى قبل أخيراً أن يستجيب إلى هذه الدعوة ولكنى بعدها عدلت عن إقامة الدعوات فى بيتى نهائياً.. ولم يعد يدخل بيتنا سوى أفراد العائلتين.. عائلتى وعائلة عبدالحميد أو الأصدقاء القلائل المشتركين بينى وبينه..

وقد حاولت أكثر من ذلك حتى أجعل عبدالحميد يشاركنى فى حياتى العامة، فقد أقمت علاقات مع أكثر الجمعيات الخيرية النسائية، وكنت أعتبر فيها من أنشط العضوات، وكل جمعية كانت ترحب وتفخر بى والواقع أنى لم أكن أومن بهذه الجمعيات إلا كمجال مفتوح للاتصالات الاجتماعية بكل أفراد الطبقة الأرستقراطية التى كانت الطبقة الحاكمة. كما تجمع أفراد المجموعة الطموحة من الطبقة الوسطى.. ولكنى فى حقيقة فكرى واقتناعى لم أكن متحمسة لكل هذا النشاط الخيرى.

إن الفقر فى مصر لا يقاوم بالتبرع للفقير أى بالإحسان أو بدفع البقشيش.. إن الفقير كمواطن ليس شحاذاً ينتظر التصدق عليه من الأغنياء، إنه صاحب حق يفرضه بنسبة عمله.. ليس هناك مذهب اجتماعى فى العالم يقوم على أساس الجمعيات الخيرية، حتى الإسلام كمذهب اجتماعى لم يعتبر الزكاة نوعاً من التبرع والإحسان ولكنه اعتبر الزكاة ضريبة مفروضة لا يستجديها الفقير ولكن يطالب بها كحق.. كنت أيامها فى شبابى أومن بكل هذا المنطق التقدمى الذى يقوم على رفض الواقع الاجتماعى وبنائه من جديد لا على الاستمرار به عن طريق الدعوة إلى الخير، لذلك فإنى لم أكن مؤمنة بكل هذه الجمعيات الخيرية النسائية ولكنى فقط كنت أستغل

ذكائى فى الاتصالات الاجتماعية.. وحتى هذه الاتصالات كانت أحياناً تنتهى بى إلى القرف من كل شىء.. فنساء هذه الجمعيات كن يجرين وراء المظهر البراق أكثر مما يؤدين من الخدمات، وكانت كل واحدة منهن تبذل فى التزين وفى اختيار ثوبها وهى ذاهبة إلى أى عمل خيرى سواء كان داخل مستشفى أو داخل مدرسة أو داخل حى من الأحياء الفقيرة، تتزين كأنها ذاهبة إلى حفل راقص، لا لتفتن الفقير بزينتها وتفرحه بمنظر جميل، ولكن فقط للتغلب على زميلاتها فى الجمعية اللاتى ينافسنها فى إظهار زينتهن وشياكتهن.. وأنا نفسى أصابتنى العدوى فأصبحت دون أن أتعمد أجد نفسى كلما ذهبت إلى عمل فى هذه الجمعيات أبذل مجهوداً خاصاً فى اختيار ثوبى وفى الاهتمام بتسريحة شعيرى وتلوين وجهى حتى أرتفع إلى مستوى سيدات الجمعية..

وقد كنت عضواً فى مبرة محمد على الخيرية التى ترأسها الأميرة شويكار عمة الملك فاروق أو هى ابنة عم أبيه الملك فؤاد، وكانت الأميرة شويكار نفسها لا تجتمع بنا إلا مرة أو مرتين فى العام ولكن زوجها التركى إلهامى حسين كان هو الذى يشرف على الجمعية بنفسه.. وكان دائماً يبدى إعجابه بالدراسات التنظيمية التى أعرضها فى الاجتماعات، وربما كان الدافع الأكبر لإعجابه أنى كنت أصغر العضوات وأنى معيدة فى الجامعة وأنى مصرية خالصة ليس فى عرق تركى كمعظم عضوات الجمعية كما أنى فى مستوى طبقى أقل من مستوى هذه الطبقة.. وقد اشتركت مرة فى تنظيم حملة مقاومة الملاريا بين أهالى الأقصر وأسوان وقد ذهب معى إلى هناك كثيرات من عضوات الجمعية وكل منهن جاءت ولحق بها أصدقاؤها وخدمها وأقاموا فى فندق ونتر بالاس وكتراكت، أما أنا فقد عشت فى الثكنات العلاجية التى أقمتها هناك من خيام منصوبة على شاطئ النيل، واستطعت فعلاً مع فريق من الأطباء والممرضات أن نخفف من

وقع الوباء.. ثم عدت إلى القاهرة قبل باقى عضوات الجمعية اللاتى يقضين الليالى فى فنادق الأقصر وأسوان، وفوجئت بأن إلهامى حسين زوج الأميرة شويكار يستدعينى إلى مكتبه فى السراى ويشكرنى باسم الجمعية ويقدم إلى باسم الأميرة شويكار « بندنتيف» أو «دلاية» من الذهب الأبيض مرصعة بفصوص الماس.. الماس الحر... وبهت لهذه الهدية الثمينة.. ومهما كنت قد بذلت من جهد فلا يساوى كل هذا.. إن ثمن هذه الحلية يساوى مرتبى من الجامعة لمدة خمس سنوات على الأقل.. وطبعاً قبلت الهدية شاكرة بعد أن تظاهرت بالتمنع.. وعندما رآها عبدالحميد أطلق عليها عشرات من نكاته الضاحكة وقرر إقامة حفل خاص احتفالاً بالدلاية الماسية لا بجمعية محمد على.. ورغم كل ضحكاته فقد أحسست كأنه غير سعيد بهذه الهدية لا لأنه يغار منها، ولكن ربما لأنه كان يفكر فيما كنت أفكر فيه... فثمن هذه الهدية يكفى لتقديم خدمات أساسية لمرضى الملاريا وللفقراء الذين تعولهم الجمعيات فلماذا استأثرت بها أنا.. وصدقونى أنى فكرت يوماً فى أن أبيعها وأن أتبرع بثمنها فى أى مجال، بل فكرت أن أبيعها وأقيم بثمنها مكتبة ضخمة فى مبنى جمعية «التحرر الثقافى» حتى أكون قد أخذت من الأسرة المالكة وأعطيت للشيوعيين.. وصدقونى أنى لم أفعل شيئاً من هذا، ولا تزال الدلاية معى ضمن مجموعة الحلى التى أصبحت أقتنيها..

المهم أن هذه الجمعيات كانت تقيم حفلات صاخبة رائعة باسم جمع التبرعات خصوصاً الحفل الذى كان يقام كل عام فى قصر الأميرة شويكار باسم جمعية مبرة محمد على.. كانت كل ثروة وعظمة مصر تتجمع فى هذا الحفل، وكانت كمية المجوهرات النادرة التى تبدو بها السيدات فى هذا الحفل تكفى لإعادة بناء مصر كلها، ولو بيعت سيدة واحدة من السيدات بما عليها من مجوهرات لاستطعنا بثمنها أن نقيم مدينة أرقى من مدينة بنها أو فارسكور..

وكنت أشترك فى هذه الحفلات بصفتى عضوة أساهم فى الإعداد والتنظيم وكانت مشكلتى دائماً فى كل حفل هى اختيار ثوبى ومظهرى حتى لا أغطس وسط هذا البحر من الأناقة والفخامة والجمال، وكان إعداد ثوبى ومظهرى يكلفنى غالياً ولكنى كنت مضطرة أن أنفق حتى لا أبعد نفسى عن المجتمع الراقى الذى كان يحكم مصر، وطبعاً كنت أتعمد ألا أكلف زوجى عبدالحميد مليماً واحداً من تكاليف ثوبى ومظهرى، فلا يمكن أن أدخل هذه التكاليف ضمن المصاريف العائلية.. كنت أنا وحدى التى أتحمل كل التكاليف

وطبعاً كنت حريصة على أن أصحب عبدالحميد معى إلى كل حفلة.. فهناك سيجد كل هواياته.. الموسيقى، والمسرح، والوسكى، والرقص، وألعاب القمار.. وكان يقول لى إنه لا يجد نفسه فى مجتمع هذه الحفلات إنه يحس بنفسه غريباً أو سائحاً يتفرج على معروضات متحف الفن الحديث، ولكنى ألححت عليه إلى أن صحبنى إلى حفل ميرة محمد على.. وكان المفروض أن أقدمه للشخصيات الكبيرة التى نلتقى بها، بل إن كنت قد رسمت أن أقدمه للأميرة شويكار وزوجها إلهامى حسين... إن هذا التعارف يخدمه فى عمله وفى أرضه.. ولكنى لم أكد أدخل به إلى الحفل حتى اختفى من جانبى... وأخذت أبحث عنه إلى أن وجدته واقفاً بجانب البار بين بضعة رجال وسيدات من الأجانب، وسألته فى حدة :

– هل تعرفهم ؟

وقال فى استهتار :

– لا... إنهم أصدقاء الكأس..

قلت :

– أرجوك يا عبدالحميد لا تتركنى وحدى.. كن بجانبى دائماً..

وقال ضاحكاً :

– مستحيل.. أنت هنا تعملين وأنا هنا أمرح، وحرام أن أعطلك عن

عملك، وحرام أن تحرمينى من مرحى..

وحاولت أنا أن أكون بجانبه طوال الحفل، ولكنى لم أستطع، بعد بضع دقائق عدت إلى عالمى.. عالم القيادة الاجتماعية والتوجيه والتنظيم، ولكنى قضيت الليل أتلفت باحثة عنه بين كل حين وآخر... كنت أخاف عليه.. ولعلنى كنت أغار أن يرتبط بامرأة وأنا أعرف هذا النوع من نساء الطبقة الراقية التى كانت قائمة وأعلم أن عبدالحميد رجل وسيم مغر جذاب يمكن أن يغرى أية واحدة منهن، وربما لم أكن أغار ولكنى كنت خائفة من تصرفاته ومن يدرى ربما تسبب لى فى فضيحة ثم أن مظهرنا فى الحفل بين الناس لم يعد مشرفا ، هو فى ناحية وأنا فى ناحية أخرى، لا أستطيع أن أقدم نفسى به، ولا يستطيع أن يقدم نفسه بى..

ومن يومها لم أعد ألح كثيراً عليه كى يصحبنى إلى هذه الحفلات المفتوحة الصاخبة..

وقد مر عامان على زواجنا والتباعد بيننا يتسع.. أنا أزداد طموحاً فى مجال حياتى العامة.. الحياةالجامعية والسياسية والاجتماعية.. وهو يزداد تجاهلاً لى ويعيش حياته الخاصة التى لا أدرى تفاصيلها ولا أسرارها.. ولم يكن معنى ذلك أننا فقدنا الحب.. إنى أحس بحبه كلما احتجت إلى الإحساس به.. ولكن هذا الحب أصبح كالوديعة الثمينة الغالية التى يحتفظ بها كل منا فى دولابه الخاص دون أن يستعملها أو يمارسها إلا عندما يحتاج فيخرج الحب من الدولاب..

وقد بلغ التباعد بيننا إلى حد أنه لم يعد يتعمد أن يسألنى أو يسمع منى شيئاً عن نشاطى اليومى، كما أنه لم يعد يحس بأى مسئولية ليروى لى تفاصيل يومه، بل إن التباعد وصل إلى حد أننا لم نعد حريصين على ليلتى يومى الاثنين والخميس اللتين تعودنا أن يتفرغ خلالهما كل منا للآخر.. وربما كان هذا خطئى فأنا التى بدأت.. كنت مضطرة أن أذهب إلى اجتماع هام عقد فى الجامعة مساء يوم من

أيام الاثنين، وتأخرت هناك كثيراً، وعندما عدت لم أجده فى البيت.. وكل ذلك دون أن يثور أى نقاش حاد بيننا أو يحاسب أحدنا الآخر أو يغضب أحدنا من الآخر.. أصبحنا فى البيت كاثنين من الموظفين يحترم أحدهما الآخر دون أن يكون له شأن به.. وربما كان السبب فى وصولنا إلى هذه الحالة هو أن عبدالحميد يثق بى ثقة لا حد لها.. يثق بأنى مهما تصرفت فإنى دائماً أصون نظافتى وإخلاصى له والتغالى فى هذه الثقة يطمئن الحب ويجعله حباً بارداً.. أما أنا فإنى لا أثق بعبدالحميد كل الثقة.. إنى واثقة فى أنه حريص علىّ وحريص على زواجنا ولكنه قد لا يكون حريصاً فى قضاء وقت فراغه.. من يدرى.. هكذا كل الرجال..

وبدأت ألوم نفسى..

إنى أعطى نفسى أكثر مما أعطيه..

يجب أن أعطيه أكثر..

يجب أن أحتفظ به كله..

لم تسيطر على أيامها دراستى العلمية للرابطة بين الرجل والمرأة، ولكن سيطرت على عقلى الحكمة البلدية المعروفة التى تطبقها كل امرأة عادية لتحتفظ بزوجها.

إن هذه الحكمة البلدية تقول إنه كى تحتفظ المرأة بالرجل فإن عليها أن تحقق ثلاث عناصر :

أن تستنزف ما فى جيبه.. أى أمواله..

وأن تستنزف قوى رجولته.. أى الجنس..

وأن تربطه بإنجاب الصبيان والبنات..

وكنت أنا لا أتعمد هذا كله.. كنت أعرف أن عبدالحميد يعيش على إيراد أرضه ومرتبه، وكان قد خصص منذ البداية مصروفاً محدداً للبيت يعطيه لى كل شهر ثم كان لا يتردد فى أى طلب أطلبه منه، وإن كنت أعتمد على مرتبى وعلى ما تعطيه لى ماما لتغطية

مصاريفى الخاصة وشراء أغلب ما أحتاج شخصياً إليه، وكنت لا أكلف عبدالحميد أكثر مما يحتاجه البيت.. وربما بدأت أتعمد أن أغالى فى بعض مطالبى ولكنه لم يعارض أبداً كما أنى كنت سرعان ما أخجل من نفسى وأعتبر نفسى كأنى نصابة تسرق أمواله فأعدل عن مطالبى.. وقد حدث أن طالبته يوماً بمائتى جنيه لنعيد تنجيد حجرة الصالون ثم بعد أيام أعدت إليه المائتى جنيه وقلت : إنى اكتشفت أن من الأوفق أن ننتظر للعام القادم.

أما العنصر الثانى.. استنزاف رجولته.. فلا شك أن حدة لقاءاتنا كانت قد هبطت، وأصبحنا فى كثير من الليالى نكتفى بتبادل الأحاديث الحلوة حتى لو كنا فى ليلة الاثنين أو ليلة الخميس.. ولم يكن الذنب دائماً هو ذنبه بل كان فى الأغلب ذنبى أنا، فقد كنت أعود إلى البيت متعبة، وكنت فى أغلب الليالى أنتهى من العشاء وأجلس لأذاكر وأدرس إعداداً للدكتوراه. وقد قررت أن أعدل عن كل هذا وأن أتعمد استنزافه.. أصبحت أتعمد التجميل بعد أن أرتدى قميص النوم وأتعمد إغراءه وتحريضه على نفسى.. وكان يستجيب إلىّ غالباً.. ولكنى بدأت أحس بالافتعال.. افتعال كل شىء.. أنا أفتعل.. وهو يفتعل حتى يستجيب لى.. لا.. لا يمكن أن أستمر.. إن الأصل هو المتعة، والمتعة لا يمكن أن تتحقق اغتصاباً.. إنها تكون أقرب إلى جرائم انتهاك العرض.. كل منا ينتهك عرض الآخر.

والذى اقتنعت به كل الاقتناع هو العنصر الثالث.. أن أربطه بأولاد أن أجعل منه أباً وأجعل من نفسى أماً... كفانى تأجيلاً..ثم إن غريزة الأمومة تتحرك فىّ منذ البداية وكنت أخفيها وراء اهتمامى بطموحى فى الحياة العامة..

وكان قد مضى عامان على زواجنا..

وقلت لعبدالحميد وحياء الأنثى يختلط بفرحتها :

– كنت عند الطبيب..

وقال مذعوراً:

– خير..

قلت:

– إنى حامل..

والتمع وجهه بفرحة كبيرة ثم مال وقبل بطنى بشفتيه كأنه يطبع أول قبلة على رأس ابنتى فـايزة ثم قال ضاحكاً كلمـته التى يرددها دائماً ولا أدرى إن كان يدللنى بها أم يعنيها:

– ألم أقل لك إنك عبيطة..

٤

إن فرحـة الأم بمجرد أن تشـعر بتحـرك الجنين فى أحشـائها لا تعادلها فرحة.. حتى أنا، ورغم أنى كنت أعرف فى العائلة بعدم ميلى للأطفـال، ورغم أنى قررت الإنجاب لا بـدافع غريزة الأمومـة ولكن فقط لأربط زوجى عبد الحميد وأحتفظ به، ورغم أن مشاغلى الكثيرة المنصبة على الحـياة العامة كانت أقوى من أن تتـركنى أستسلم لأى عاطفـة خاصة حـتى عاطفة الأمـومة.. رغم ذلك فـقد كانت فـرحتى بتحريك الجنين فى بطنى أقوى من كل ما تعرضت له من متاعب، بل إننى كنت أنظر إلى متاعبى كأنها نكات أضحك لها.. ولم تكن متاعبى نتيجة أى آلام يسببها الحمل، والحمد لله فقد كـان كل شىء طبيعياً بلا ألم وبلا مـعاناة رغم أنهـا المرة الأولى التى أحمل فـيهـا.. ولكن متاعبى كـانت بسبب مظهر الحمل.. مظهر المرأة الحـامل.. خصوصاً بعد أن أصبحت فى الشهر الخـامس وانتفخت بطنى جداً – أكثر من الانتفاخ العادى – حتى كان يخيل إلى وإلى كل من يرانى أنى حامل فى اثنـين لا فى واحـد... أى فى تـوأم.. لا يمكن أن يكـون كل هذا الانتفاخ تشغله ابنتى فايزة وحدها!..

ولم أكن قد انقطعت أبـداً عن عملى فى الجامـعة.. كنت أذهب كل يوم وألقى الدرس على الطلبة، ومنذ بدأت بطنى تبرز ورغم حرصى

على ارتداء الثياب الواسعة المخصصة لفترات الحمل. فقد خيل إلى أن كل الطلبة والطالبات يركزون نظراتهم وهم جالسون أمامى على بطنى كأنهم ينتظرون فى كل لحظة أن ينطلق منها الجنين. أو كأنهم لم يتعودوا أن يروا شيئاً كهذا داخل بطن الأستاذ، وكنت أحس وأنا ألقى عليهم الدرس كأنهم يبتسمون لى فى حنان وينظرون إلى نظرات حانية، كأنهم يستمعون إلى نصائح أم لا إلى درس فى الاقتصاد السياسى. فإذا انتهى الدرس وخرجت من القاعة أحاطوا بى وساروا معى كأنهم يخافون على أن أقع أو كأن كلا منهم يساعدنى فى حمل الجنين.. وكنت فى البداية أتضايق وأثور لهذه الأحاسيس التى تحيط بى، بل إنى كنت أخجل من بطنى المنتفخة وأحاول أن أداريها بتوسيع ثوبى أكثر وحمل حقيبتى الدراسية أمام صدرى بحيث تخفيها كأنى أخفى عورة.. كنت أثور على اهتمام الناس ببطنى. فليس أهم ما فى هو ما فى بطنى، إن أهم ما فى هو ما فى عقلى.. وكنت أحياناً أندم لأنى تركت نفسى للحمل.. وأحس كأنى أجريت عملية لأنقل نفسى إلى الجنس الآخر .. الجنس الذى يلد .. بعد أن عشت وأنا معتبرة نفسى من الجنس الذى لا يلد.. وكل ذلك لم يستمر طويلاً فقد تغلبت غريزة الأمومة على كل هذه الأحاسيس، وأصبحت أحس بالزهو بنفسى لأنى حامل وأتحرك وبطنى أمامى كأنى أتفاخر بها، وأعلن بها أنى امرأة ناجحة لا ينقصها شىء.. وأصبحت أفرح بهذا الاهتمام والحنان الذى يحيطنى به زملائى الأساتذة والطلبة، وانعكس ذلك على العلاقة بينى وبين زوجى عبد الحميد أصبحت أتمتع بحرصه على طوال فترة الحمل، وربما كنت أتعمد أن أتدلل أكثر وأستضعف أكثر حتى أتمتع باهتمامه أكثر، وكان غاية ما يسعدنى هو أن أسير بجانبه فى الشارع لنطوف بالدكاكين وذراعى فى ذراعه وبطنى تتقدمنا نحن الاثنين، كنت

أيامها أحس بأنوثتى أكثر وأتباهى بها أكثر وأحس بزوجى أكثر وأسير معه وكأنى أريد أن أقول للناس.. هذا الرجل هو الذى فعل بى هذا.

والغريب أن عبد الحميد كان يتباهى هو الآخر وهو بجانبى فى الشارع وكأنه يصيح فى كل الناس.. أنا الذى نفخت هذه البطن... أنا الرجل الذى ينفخ البطون.. وكان يبدو سعيداً فعلاً وهو يسير بجانبى وبطنى أمام الناس.. رغم أن منظر المرأة الحامل ليس قطعاً منظراً جميلاً يتخايل به الرجل الذى يسير معها.. ولكن الجمال هنا هو الإحساس بالأمومة والأبوة.

إلى أن ثرت مرة بسبب بطنى الحامل.

إنى لم أنقطع أبداً طوال فترة الحمل عن نشاطى الجامعى. سواء النشاط الدراسى أو النشاط السياسى وكنت حريصة على أن أحضر كل الاجتماعات وأدلى برأيى فى كل المناسبات. وأشترك فى كل التحركات.. صحيح أن خطواتى أصبحت بطيئة ثقيلة ولم أعد أشترك فى التجمعات العامة. ولم أعد أتحمل مسئولية إلقاء الخطب أو الاشتراك فى الندوات، ولكن كل هذا لا يعنى أن نشاطى قد توقف أو أننى أعيش فى إجازة من حياتى العامة.

وقد قامت أيامها معارضة قوية بين الطلبة ضد البوليس الجامعى. أو الحرس الجامعى كما كان يسمى. مطالبين بطرده خارج الجامعة وإلغاء وجوده. وكنت أنا مقتنعة بهذا الرأى. فلا يعقل أن تقوم فرقة من البوليس بفرض قوتها داخل الجامعة. حتى لو أدعت أنها فرقة مستقلة عن البوليس العادى وأنها تتبع مدير الجامعة مباشرة... لا يعقل.. ما دامت فرقة من البوليس فهى قطعاً تخضع للحكومة القائمة ولوزير الداخلية.. ووجودها داخل الجامعة يعتبر محاولة لتحويل الحرم الجامعى إلى سجن كبير يتجمع فيه الطلبة

والأساتذة تحت حراسة البوليس، كما يحدث فى سجن أبى زعبل وفى أى سجن.. أى أن البوليس هو الذى يسيطر على الجامعة وليست الجامعة هى التى تسيطر على البوليس حتى لو حمل شعار «الحرس الجامعى».. ثم ما حاجة الطلبة إلى بوليس يحميهم وهم داخل الجامعة. لماذا لا يتولون حماية أنفسهم بأنفسهم.. وحتى لو افترضنا أن الخلافات بينهم قد تؤدى إلى معارك دامية بين بعضهم البعض.. لماذا لا نتركهم للتجربة.. لماذا لا نتركهم يتحملون مسئولية أنفسهم ما داموا داخل نطاق الجامعة.. أى داخل بيتهم الكبير.. ثم لا يكون للبوليس شأن بهم إلا إذا خرجوا من الجامعة إلى الشارع لأن الجامعة ملك لهم وحدهم، والشارع ليس ملكاً لهم وحدهم.. وكانت كل هذه الآراء تتفاعل فى رأسى وبدأت أحرض زملائى المعيدين وبعض الأساتذة الشبان على أن نعلن تأييدنا للطلبة فى المطالبة بطرد البوليس خارج الجامعة.

كنت مكتفية بالتحدث إلى زملائى دون أن أعرض نفسى لأى موقف عنيف نظراً لحالة الحمل. وقد استطعت فعلاً تحريضهم وإقناعهم، وانضم كثيرون منهم علنا إلى الطلبة فى المطالبة بإلغاء البوليس الجامعى.. ثم صدمة... ودون أن يتعمد أحد الاتصال بى لإبلاغى.. اكتشفت أن الزملاء قرروا أن يطلبوا مقابلة مدير الجامعة ثم رئيس الوزراء لعرض الموضوع عليه باسمهم وباسم الطلبة، وأرادوا بذلك أن يفرقوا بين دورهم ودور الطلبة.. الطلبة يتظاهرون، أما الأساتذة والمعيدون فإنهم يقومون بالاتصالات والمفاوضات الرسمية.. وكان أن تحدد لهم فعلاً موعد لمقابلة رئيس الوزراء.. ولم يبلغنى أحد.. لم يطلب منى أحد أن أنضم للوفد الذى سيذهب للمقابلة.. أنا صاحبة الفكرة.. وأنا التى حرضتهم على الاشتراك فى الثورة.. أنا الزعيمة.. ورغم ذلك يتجاهلوننى.

وقد سبق أن قلت إنى - وحتى اليوم - لا أطيق التجاهل.. لا أطيق ألا أكون حيث يجب أن أكون.. وربما كلفنى ذلك كثيراً فى مناسبات متعددة. كلفنى أنى كنت أحياناً أفرض نفسى فرضاً، وكنت أحياناً أستطيع أن أجمد وجهى وأن أطيل من لسانى إلى حد الوقاحة... ولكنى كنت دائماً أصل إلى ما أريد حتى ولو كان ما أريده لا يساوى شيئاً أكثر من وضع اسمى حيث أريد أن يوضع.. ولذلك فقد اندفعت إلى زملائى ألومهم وأعاتبهم على تجاهلى وأطالب صراحة بحقى فى أن أكون ضمن الوفد الذى يقابل رئيس الوزراء، ووقفوا كلهم أمامى محرجين حائرين فى التصريح بالسبب الذى حرضهم على تجاهلى إلى أن اكتشفت أن السبب الوحيد هو أنى حامل، وقال واحد منهم وهو يتلعثم :

- أردنا أن نعفيك من المتاعب خصوصاً وأنت... و....

وتردد فقلت أتم حديثه وأنا ساخطة :

- خصوصاً وأنى حامل.. أليس كذلك.

قال :

- فعلاً لأنك حامل.

قلت :

- وهل منعنى الحمل من أن أكون بينكم فى كل نشاطنا.. لماذا لم تخافوا على عندما ذهبنا لمقابلة مدير الجامعة ثم تخافون على من مقابلة رئيس الوزراء.

والواقع أن زملائى لم يكونوا فى حالة خوف على أو حرص على راحتى أثناء الحمل ولكنهم كانوا فى حالة خجل من أن يظهروا بى أو يضمونى إليهم وأنا أحمل هذه البطن المنفوخة. أى وأنا حامل، كأن الحمل عورة لا يصح أن تكشف خصوصاً فى الاجتماعات الرسمية التى تجمع رئيس الوزراء. وربما كان لهم بعض الحق

خصوصاً وقد كنت قد أصبحت فى الشهر السابع. ولكن تمسكى بشخصيتى فى الحياة العامة وإصرارى على أن أضع نفسى فى كل مناسبة مهمة. جعلنى أصر على أن أرافقهم فى اجتماعهم برئيس الوزراء، وحتى أثبت أن الحمل لا يعتبر عائقاً عن ممارستى الحياة العامة فقد تعمدت أن أشترك فى تجمعات الطلبة داخل الحرم الجامعى ووقفت على سلم كلية الحقوق أخطب فيهم، ووضعت يدى على بطنى المنفوخ وقلت وأنا أخطب « إنى أريد لهذا الطفل الذى أحمله أن يولد فى بلد حر.. وأن يفتح عينيه على نور الحرية وأن يعيش ليدخل الجامعة مستقلة لا يحكمها البوليس باسم الحرس الجامعى.. جامعة من حقها أن تحرس نفسها ».

وكان الطلبة يتطلعون إلى فى انبهار. وأنا أخطب كأن كلاً منهم يحس أنى أمه، وأثارهم الخطاب ثورة عنيفة كأن كلاً منهم قد أحس أن أمه تناديه وأنها فى خطر.. وطبعاً بعد هذا الخطاب اضطر الزملاء أن يضعونى فى مقدمة الوفد الذى قابل رئيس الوزراء. واستقبلنى رئيس الوزراء وقد ملأت الدهشة عينيه وركزها فوق بطنى المنفوخ كأنه لا يصدق أن المرأة الحامل يمكن أن تكون شيئاً أكثر من امرأة حامل.

وقد انتهى كل هذا المجهود الذى بذلته خلال تلك الأيام إلى أن أصبت لأول ولآخر مرة خلال فترة الحمل بنزيف أرقدنى فى الفراش حوالى عشرة أيام قضيتها وأنا ساخطة على نفسى لأنى لا أستطيع أن أتفرغ لنفسى كامرأة ولا أستطيع أن أتفرغ كزعيمة سياسية وأستاذة جامعية..

المهم..

أصبحت أماً..

أم فايزة..

وكانت الولادة سهلة وآلامها هينة... ولم أشعر بحاجتى إلى أمى قدر ما شعرت عندما دخلت المستشفى لألد.. وقد كنت دائماً أتمادى فى استقلالى بشخصيتى وفى ابتعادى عن أمى مدعية أنها ليست فى مستوى عقليتى ولا يمكن أن تفهمنى.. ولكنى ما كدت أرقد على سرير المستشفى وأبدأ فى معاناة آلام الوضع حتى بدأت أصرخ.. ماما.. ماما.. أحسست أنى لا أستطيع أن أجتاز الأزمة إلا إذا كانت أمى بجانبى أم أخرى.. حماتى أم عبد الحميد.. كانت أمى وحدها هى التى أريدها وهى التى أستغيث بها.. إن حالة الولادة هى أقوى الحالات التى تجمع بين الابنة وأمها.. وقد كانت أمى بجانبى.

والحق أنى كنت أريد أن أنجب ولداً لا بنتاً.. لا لأنى أفضل الولد عن البنت أو أفرق بينهما فى مسئوليات الحياة.. طبعاً لا، فأنا لا أفرق بين نفسى وأى رجل.. ولكن ربما لأننا كنا نعانى نقصاً فى الأولاد.. فأمى لم تنجب إلا بنتين.. أنا وأختى.. وأختى أنجبت ثلاث بنات وهى حامل فى الرابع رغم أنها ليست فى حاجة إلى الحمل إنما لمجرد أن يهبها الله ولداً.. وعندما اكتشفت أنى أنجبت بنتاً لم أصدم ولكن فرحتى كانت فرحة هادئة مستسلمة..

أسميتها فايزة.. لا أدرى لماذا.. ربما لأن العائلة الحاكمة فى كل بلد تفرض أسماءها على أولاد الطبقة المحكومة.. ولذلك كان الناس أيامها يسمون أولادهم فاروق وفؤاد وفوزية وفايزة ونازلى. كما أصبحوا يسمونهم بعد الثورة ناصر وجمال وهدى ومنى.. رغم أنى كنت ولا شك أمثل الطبقة المثقفة والفكر المتقدم إلا أنى كنت خاضعة للتأثير الاجتماعى للعائلة الحاكمة.. والعائلة المالكة.. فاخترت اسم فايزة لأن الأميرة فايزة كانت أخف الأميرات دماً وأنشطهن فى الحياة الاجتماعية وربما أكثرهن انطلاقاً فى حياتها الخاصة.. إن بنات العائلة المالكة.. بنات فؤاد ومعهن أمهن.. كن أسوأ مثل فى

الحياة العائلية والاجتماعية ورغم ذلك فقد كان المحكومون يتطلعون إليهن ويقلدوهن فى حياتهن.. هذه هى الطبيعة البشرية وهو ما انتقل بعد الثورة إلى صورة أخرى. فقد أصبح الحاكم جمال عبد الناصر لا يسمح لزوجته بالاشتراك فى الحياة العامة. فأصبح كل الرجال لا يسمحون لزوجاتهم بالاشتراك فى الحياة العامة. والنساء اللاتى يعشن هذه الحياة، يعشنها فى نطاق ضيق محدود لأن زوجة الحاكم لا تعيشها معهن، ثم تغير الحاكم وأصبح أنور السادات وهو يبيح لزوجته المساهمة فى الحياة العامة وتحمل المسئوليات الوطنية ويؤيد الحركات النسائية بانطلاقة أكثر من جمال عبد الناصر فأصبح الرجال كلهم يقلدون الرئيس والزوجات يقلدن زوجة الرئيس.. وكل هذا هو الذى دفعنى أيامها إلى أن أختار لابنتى اسم فايزة.

وفترة الولادة لم تأخذ منى سوى عشرة أيام عدت بعدها طبيعية وفى منتهى الصحة والعافية. وعدت ألقى بنفسى فى حياتى العامة.

كيف أنظم حياة ابنتى وأنا لست متفرغة لها.. إنى أخرج من البيت فى الثامنة صباحاً ولا أعود قبل الثانية بعد الظهر.. وفى أغلب الأيام أعود وأخرج من البيت وقد لا أعود قبل التاسعة.

وابنتى..

أرضعها من ثديى.. من لبن الأم.. قبل أن أخرج فى الصباح. ثم ترضع صناعياً من زجاجة الرضاعة إلى أن أعود إليها لأرضعها لبن الأم مرة أخرى.. وقد بقيت معى ماما فى البيت بضعة أيام. ثم تركتنى لتعود إلى بيتها بعد أن استأجرنا «دادة».. وكان أمر الدادات سهلاً فى أيامنا.. كنا نجدهن دائماً وكان أغلى أجر لهن لا يتجاوز ثمانية جنيهات فى الشهر... ورغم ذلك فإنى لم أطمئن إلى أى دادة، وكنت أذهب إلى الجامعة وقلبى مشغول على ابنتى وأبقى هناك.

فى كل ساعة أتحدث فى التليفون مع الدادة وأسألها فى كل مرة

نفس الأسئلة : وأتلقى نفس الإجابات. وكنت أقف بين الطلبة لألقى الدرس فيخيل إلى أن ابنتى أولى بى منهم وأنها أغلى من كل الطلبة. وقطعاً كان هذا يؤثر فى مسئوليتى كأستاذة ويجعلنى عاجزة عن تركيز ذهنى فى الدرس الذى أعطيه..

وأحياناً كثيرة كنت لا أستطيع الانتظار إلى أن ينتهى موعد انتهاء الدراسة فأهرب وأجرى إلى البيت لأطمئن على ابنتى..

وكنت لا أطيق أى مربية أو دادة أكثر من أسابيع ثم أطردها بعد أى غلطة.. فى مرة وجدت الدادة قد تركت حلمة البزازة على رخام مائدة المطبخ .. أنها قد تضعها بعد ذلك فى فم ابنتى. وقد تكون قد تلوثت من البلاط فتموت.. ابنتى.. لا.. بره.. وأطرد الدادة.. وهكذا لم تكن أى دادة يمكن أن تستقر فى بيتى..

وكنت بعد أن أطرد الدادة أصحب ابنتى كل صباح فى السيارة مع زوجى عبد الحميد ونتركها عند ماما، ثم أعود وحدى بعد أن أنتهى من العمل وأمر على بيت ماما وآخذ ابنتى وأعود بها إلى البيت.. وكان هذا النظام متعباً.. متعباً لى ولابنتى ولزوجى ولماما.. فأعود أبحث عن دادة.. ثم أطرد الدادة وأعود بابنتى إلى أمى.

زوجى فى كل ذلك لم يتغير.. إنه لا شك فرح بابنته ويكاد يطير بها وهو يدللها ويداعبها . ويكاد يشترى لها مصر كلها ولايخرج إلا ليعود بشىء لفايزة حتى لو كان شيئاً تافهاً، وهو غالباً شىء تافه فعلاً.. ولكنه لا يعطى أكثر من ذلك.. إن المسئولية كلها ملقاة على.. وهو لا يقول رأياً.. وكعادته لا يرفض ولا يستسلم كأنه يعيش فى عالم آخر.. إن زوج المرأة العاملة يجب أن يساهم مساهمة كاملة فى تربية الأولاد وفى أعمال البيت .. إنها تعمل وهو يعمل وهى تعطى للبيت والأولاد كل ما يفيض من وقتها وكذلك هو يجب أن يعطى ما يفيض منه لبيته وأولاده.. ولكن عبد الحميد لا يريد أن يحس بأنه

متزوج من امرأة تعمل.. إنه يعيش نفس الحياة التى كان يعيشها أبوه.. هو يعمل فى الأرض وزوجته تعمل فى البيت.. وقد حاولت كثيراً أن أشركه فى مسئولية تربية فايزة.. وحدث مرة أن كان على أن أحضر اجتماعاً فى المساء ولم يكن عندنا دادة. فطلبت من عبد الحميد أن يبقى مع فايزة.. إنها ليست فى حاجة إلى شىء.. كل شىء قدمته لها قبل أن أخرج من البيت.. ولن أغيب أكثر من ساعتين.. ووافق عبد الحميد.. ولكنى عندما عدت من الاجتماع لم أجده مع فايزة بل وجدت أمه معها.. وتضايقت.. أحسست كأنه أهاننى.. إنه يفضحنى أمام أمه ويثبت لها أنى لا أستطيع أن أكون أماً وست بيت.. ورغم ذلك فقد كتمت غيظى أمام أمه، وعندما عاد فى آخر الليل، قال لى ببساطة :

– أعمل إيه.. فايزة كانت تبكى.. ولا تريد أن تكف عن البكاء.. اتصلت بأمى فى التليفون وجاءت وقامت بدراسة علمية اكتشفت بعدها لماذا تبكى فايزة.

وضحك كأنه قال نكتة :

إنى لا أستطيع أن أعتمد عليه فى شىء.. الحمل كله فوق رأسى.. ثم حتى لو ساعدنى فإنى لا أستطيع أن أطمئن على فايزة وهى بين يديه.. لا شك أن تربية الطفل تحتاج لأن تتفرغ لها الأم العاملة أربع سنوات أو خمساً وربما أكثر.. حتى لو وجدت دور الحضانة كما هو حاصل الآن. أو حتى لو كان من السهل الحصول على دادة كما كان على أيامنا.. إن الأم شىء آخر.. الطفل يعيش داخل أمه حتى بعد أن يولد.. داخل عواطفها وأحاسيسها.. وهذا كلام أقوله الآن، أما أيامها فقد كنت أرفض أن أضحى بحياتى العامة وبالعمل لمجرد تربية ابنتى حتى وإن كنت أعانى من حيرتى فى تربيتها.

وكان الحل الوحيد للخروج من هذه الحيرة هو أن أترك ابنتى

فايزة تعيش فى بيت أمى.. كان قد مضى عام على مولدها، عام قضيته معذبة حائرة وابنتى تكلفنى كل أعصابى وكل عقلى رغم إصرارى على أن أجمع بينها وبين عملى.. ولم يبق أمامى إلا الحل الأخير وهو أن أتركها لأمى ما دمت لا أستطيع أن أترك العمل.. ولم يعترض زوجى عبد الحميد كعادته.

وبدأت حياتى تتخذ شكلاً جديداً.. إنى أمر فى الصباح على بيت أمى لأرى فايزة. وأعود بعد انتهاء العمل وقد أتناول طعام الغداء هناك بعيداً عن زوجى ثم أعود إلى بيتى فى المساء لأجد عبد الحميد أو لا أجده.. وعبد الحميد بدوره يختار الوقت الذى يناسبه ليمر على بيت أمى ويقبل ابنته ويحمل إليها هدية جديدة وفى يوم الخميس قد أذهب وآخذ ابنتى من بيت أمى لتبقى معى فى بيتى لأعود بها صباح يوم السبت.

ما هذه الحياة..

إن حياتى قبل أن ألد ابنتى كانت أكثر استقراراً منها بعد أن أصبحت أماً.

إنى اليوم أعيش فى بيت وابنتى فى بيت آخر. وأحس أنها تبتعد عنى عاطفياً حتى أصبحت جدتها هى كل شىء بالنسبة لها.. أحياناً تكون بين ذراعى ثم تصرخ... تيتا.. تيتا.. تريد أمى.

وزوجى عبد الحميد..

إن كل ما حاولته من تطبيق الحكمة البلدية أو التخطيط البلدى للاحتفاظ بالأزواج قد فشل.. الحكمة البلدية التى تقول إنه لكى تحتفظ المرأة بزوجها يجب أن تستولى على ما فى جيبه. وعلى ما فى طبيعة رجولته.. ثم تربطه بالأولاد... وقد فشلت فى كل ذلك.. لم أستطع أن أضع يدى فى جيبه.. أى لم أستطع أن يكون لى دخل فى تنظيم شئونه المالية كما سبق أن قلت فى اعترافاتى.. والله أعلم كم

يكسب وكم يصرف وأين يصرف ما يكسبه.. والعلاقة الجنسية التى تعبر عن رجولته لا تزال تضعف وتبرد يوماً بعد يوم.. لا أدرى لماذا.. هل هى طبيعة كل رجل أن يمل زوجته رغم أنه لم يمض سوى ثلاثة سنوات على زواجنا. أم أنى امرأة باردة تعيش بعيداً عن أنوثتها.. ثم إنى كنت أعتمد اعتماداً كبيراً على أن تربطه بى ابنتى فايزة بعد أن ولدتها.. ولكن الذى حدث هو العكس.. فقد أصبحت ابنتى كأنها عمل إضافى يبعدنى أكثر عن زوجى.. كنت لا أكاد أنتهى من عملى فى الجامعة حتى أعود لأتفرغ لها. وزوجى عبد الحميد لا يستطيع أن يتفرغ لها معى هو الآخر.. صحيح أنه لم يقصر فى مسئولياته كأب.. وهو يحب ابنتنا فايزة كل الحب. ولكنى لا أستطيع أن أكتفى به كأب لابنتى أريد أن أحس به كزوج. ولا يكفينى أن يحب فايزة.. أريده أن يحبنى أنا. وأن أعيش هذا الحب.

والتباعد بيننا يزداد.. لا يريد أن يشاركنى حياتى العامة، ويحرجنى بتصرفاته كلما دعوت بعض أصدقائى إلى البيت أو كلما صحبته إلى إحدى الحفلات العامة، وهو نفسه ليس له حياة عامة ولا يعيش مجتمعاً يهمه أن يشركنى فيه. إنه نادراً ما يقدمنى إلى أحد من أصدقائه.

إلى أن كانت ليلة..

واستأذنته فى أن أدعو بعض زملائى من المعيدين وأصدقائى من شباب السياسة والحركة الوطنية.. ووافق طبعاً.. ولكنى فوجئت بعدد من أصدقائه يأتون إلى البيت، وفوجئت به يقول لى :

– أنت تجلسين مع أصدقائك وأنا أجلس مع أصدقائى.

ثم أخذ أصدقاءه وجلس معهم فى غرفة المكتب يلعبون الكوتشينة.. قمار.. ثم جاء إلى أصدقائى معتذراً وهو يضحك ضحكة كبيرة قائلاً :

– آسف.. لا أستطيع أن أشارككم جلستكم الحلوة.. إننا نلعب فى الحجرة الأخرى.. من أراد منكم أن يلعب فليتفضل معنا.

واضطررت أن أفتعل أنا الأخرى ضحكة كبيرة أغطى بها حرجى وقلت :

– لا يا عبد الحميد.. أنتم تلعبون بالكوتشينة ونحن نلعب بالسياسة. وتعمدت ليلتها أن أقدم العشاء لأصدقائى فقط وقلت لعبد الحميد وأصدقائه وأنا أفتعل ضحكة أخرى :

– هذا عشاء سياسى.. بعد أن تنتهوا من اللعب دبروا حالكم.

وقال وهو سجين بين أوراق الكوتشينة التى يحملها فى يده :

– العجاتى الكبابجى يدبر حالنا.

ثم صرخ فى فرح وهو يلقى الأوراق من يده :

– كارية دام..

وكانت فضيحة بين أصدقائى.. أنا التى أدعى الزعامة النسائية وأدعى القيادة فى الحركة الوطنية وأفرض نفسى وآرائى عليهم وعلى الطلبة لا أستطيع أن أفرض نفسى على زوجى.. لا أستطيع أن أكون زعيمة ولا قائدة فى بيتى.. إن فاشلة.. وإذا كنت فاشلة داخل بيتى فكيف يمكن أن أكون ناجحة خارجه.. وزوجى عبد الحميد ليس من طبيعته لعب القمار.. ليس مقامراً.. ربما كان عجزى عن السيطرة عليه هو الذى أدى به إلى القمار. ووصل إلى حد أن اتخذ من بيتى نادياً للقمار يجمع فيه أصدقاءه.. ومن يدرى ما يمكن أن يتطور إليه أكثر من ذلك.

منتهى الفشل..

زوجى بعيد عنى يعيش حياة أخرى غير حياتى رغم أنه لا يزال ينام فى فراشى.

وابنتى بعيدة عنى تعيش مع أمى.

ومستقبلى يتباعد ويبدو مشتتاً وشخصيتى تضعف فى حياتى العامة.. بل إننى إلى الآن لم أحصل على الدكتوراه ولا على مقدمات الدكتورة رغم أنه مضى أربع سنوات على تخرجى. حتى أصبح ينظر إلى كأنى امرأة مدعية.. تدعى العلم وتدعى الزعامة مثل كثيرات من المدعيات اللاتى يظهرن ولا يزلن يظهرن فى المجتمعات العامة.

لا..

يجب أن أعيش حياة أخرى..

ومضت أيام طويلة وأنا أدرس قرارى الأخير وأراجع نفسى آلاف المرات إلى أن استرحت إلى ما قررته وجلست مع زوجى.. وتعلقت عينى بعينه طويلاً قبل أن أتكلم.. إنى لا أزال أحبه.. ولكن القرار الذى اتخذته أصبح أقوى من حبى.. وقلت فى هدوء :

– دعنى أتكلم بصراحة.. لقد أصبحت مقتنعة بأننا لا نستطيع أن نستمر.

وقال فى دهشة ولكن بلا غضب :

– ماذا تقصدين ؟

قلت :

– أقصد أن نكتفى بصداقتنا ونستغنى عن زواجنا.

قال :

– ماذا ينقصك ؟

قلت مبتسمة :

– ينقصنى أنت.

قال :

– ماذا ينقصك منى ؟

قلت :

– ينقصنى منك نفس ما ينقصك منى..

قال :

– أنا لا ينقصنى شىء..

قلت :

– لا تقل هذا حتى لا أعتقد أنك وجدت ما يعوضك عما أحرمك منه..

وقال فى حدة :

– دعك من الفلسفة.. لا أنت تحرمينى من شىء ولا أنا أحرمك من شىء..

إن كلا منا يعيش ليريح الآخر.. أنا أتحمل انشغالك فى عملك وانشغالك بأصدقائك بطريقتى الخاصة.. وأنت أيضاً تتحملينى بطريقتك الخاصة هذا هو الزواج.

قلت :

– لا.. ليس هذا هو الزواج.. الزواج ليس ارتباطاً بعقد. ولا حتى ارتباطاً ببيت واحد.. وقد جربت أن يكون الزواج هو الارتباط بالأولاد ولكن تجربتى فشلت.. الزواج هو ارتباط بالشخصية وارتباط بالعقلية.. وارتباط بالمزاج الخاص.. الزواج لا يقوم على طريقة خاصة فى الحياة لكل منا بل يجب أن تكون لنا طريقة واحدة.. طريقتى أو طريقتك.. وكل منا لا يستطيع أن يعيش بطريقة الآخر.. ثم إن الزواج أساس لبناء.. أن يشترك كل منا فى بناء الآخر.. ودعنى أصارحك بأنك لم تساعدنى فى بناء نفسى.. وأنا أيضاً أعترف بأنى لم أساهم فى بنائك.. وبالعكس إننا متجمدون حيث كنا يوم تزوجنا.. إنى لم أحصل على الدكتوراه حتى اليوم.

وقال ساخراً :

– لقد حصلت على ابنتك فايزة.. إنها أهم وأجمل من الدكتوراه.

قلت :

– إنى أتمنى الدكتوراه حتى أجعل فايزة تفخر بى.. تفخر بأمها الدكتورة.

قال :

– إنها تفخر أكثر بأمها السعيدة.. إن ما ينقصك هو أن تستسلمى للحب.

قلت :

– أخاف أن يكون الحب فى نظرك هو فقط مهمة أوقات الفراغ.. عندما تكون فارغاً تملأ فراغك بالحب.. لا.. أنا لا أستسلم للفراغ.. والحب دائماً لا يكون إلا دافعاً للبناء.. ونحن لا نبنى..

ونظر إلى طويلاً وقال من خلال ابتسامته الواسعة الحلوة :

– تريدين الطلاق.

قلت :

– يسمونه طلاق ؟

قال ضاحكاً :

– وماذا تسمينه أنت ؟

قلت :

– إنى أعتبره اكتفاء بالصداقة.. أو تنازلاً عن المسئوليات العامة والخاصة بيننا.

قال مبتسماً :

– خلاص.. اتفقنا.. كما تريدين.

ثم انحنى وقبلنى قبلة سريعة على خدى وقال :

– هذه قبلة التنازل الذى يسميه الناس الطلاق.. الناس تعلن الطلاق بالدموع ونحن نتفق عليه بقبلة..

وألقيت ذراعى حول عنقه أريده أن يقبلنى قبلة كاملة.. أريد شفتيه لشفتى.. ربما لو كان أعطانى ساعتها شفتيه لكنت عدلت عن رأيى فى الطلاق.. ولكنه رفع ذراعى من حول عنقه وابتعد عنى وهو ينظر إلى مبتسماً نظرة تتسلل إلى داخل كل أعصابى. وقال كعادته :

– مع السلامة يا عبيطة.

وترك لى البيت.

ربما كنت فعلاً عبيطة ولكن عقلى كان يؤكد لى أن هذا ما كان يجب أن يحدث حتى أخرج من دائرة فشلى.. حتى أتفرغ لبناء نفسى.. حتى أركز على مصالحى الذاتية.. وانطلقت فرحة فى صدرى تغطى على حسرتى.. فرحتى بأنى سأعيش مع ابنتى فايزة فى بيت واحد.. بيت أمى.

ولكن..

هل أستطيع أن أعيش بلا رجل ؟

٥

أحسست وأنا أعيش فى بيت أمى بعد الطلاق كأنى استرددت شبابى كله، كأنى لم أتزوج ولم ألد ولم أطلق. كأنى ما زلت طالبة فى الجامعة.. تحررت من كل المسئوليات التى فرضها على الزواج.. مسئولية البيت ومسئولية الزوج. بل تحررت أيضاً من مسئولية الأم.. أصبحت فايزة ابنتى كأنها أختى الصغيرة وماما مسئولة عنا نحن الاثنتين.. والمثل الشعبى الذى يقول « أعز من الولد ولد الولد» (بكسر الواو) مثل صحيح. فقد أصبحت فايزة بالنسبة لأمى أقرب إليها منى.. هى كل شىء.. هى كل نهارها وكل ليلها.. وأصبحت ترعاها وتتصرف فى شئونها دون أن تستشيرنى أو حتى تطلعنى على شىء.. وأنا راضية لا أتدخل فعلاً فى أى شىء يخص تفاصيل حياة ابنتى.. بل إننا عودناها منذ بدأت تنطق على أن تنادينى باسمى.. سعاد.. كأنها فعلا أختى.. وفرحت أيامها بأن ابنتى تنادينى باسمى كأنى فرحت باسترداد شبابى. وإن كنت قد ندمت على ذلك بعد أن تقدم بى العمر وبعد أن اكتشفت أنى حرمت نفسى من أحلى لقب يمكن أن تحمله امرأة.. لقب.. «ماما».

وكان عبدالحميد أبو ابنتى يتردد على البيت بحجة رؤية فايزة.. ربما كان يحاول إقناعى بالعودة إليه.. لا أدرى... فهو لم يفاتحنى

أبداً فى العودة، وربما يعتمد على أن تكون مجرد لقاءاتنا المتعددة المتقاربة دافعاً كافياً يؤدى إلى العودة إلى حياتنا الزوجية... أو ربما كان كل هذا مجرد وهم يثيره غرورى بنفسى وتصورى أن ليس هناك رجل يستطيع أن يستغنى عنى، خصوصاً وأنى أنا التى بدأت بطلب الطلاق.. على كل حال فإنى لم أعد أتحمل رؤية عبدالحميد.. إنه يذكرنى بفشلى كزوجة... فشلى كامرأة تستطيع أن تجمع بين حياتها العامة وحياتها الخاصة، وأن توفق بين الوجهين اللذين يعيش بهما كل إنسان فى الحياة.. الوجه الذى يراه الناس والوجه الذى يحتفظ به لنفسه.. وأكثر من ذلك..إن رؤية عبدالحميد كانت تثير فى إحساسى بحاجتى إلى رجل.. إنه الرجل الوحيد الذى أعطيته نفسى كامرأة.. وقد عانيت كثيراً بعد انفصالى عنه.. عانيت من حاجتى إلى رجل.. إن مجرد وجود رجل فى فراش المرأة يشبعها ويهدئ من غريزتها حتى لو لم يحدث بينهما ممارسة جنسية.. وأنا الآن أنام على فراش لا يضم رجلاً.. وقد استمرت معاناة الوحدة عدة شهور ولكنها أخذت تخفت وتهدأ حتى تعودت على وحدتى. ولم أعد أعانى منها.. ولذلك كنت فى البداية أهرب من رؤية عبدالحميد وأتعمد ألا أكون فى البيت عندما أعلم بموعد زيارته.. فإذا جاء وأنا فى البيت صافحته مصافحة سريعة ودخلت غرفتى بحجة المذاكرة أو إعداد المحاضرات وتركته لأمى وابنتى فايزة.

وبرغم ذلك فقد كنت حريصة على الاحتفاظ به لابنتى وابنته فايزة.. إنها تحب أباها حباً جارفاً.. وربما كانت هذه هى طبيعة كل بنت.. إن أول حب فى حياة البنت هو الأب.. وكنت حريصة طول العمر على أن أذكى هذا الحب.. حب فايزة لعبدالحميد.. ولم يحدث مرة أن حدثتها عن عيوبه أو حتى قلت لها إنه رجل ينقصه الطموح.. بالعكس.. كنت دائماً أمجد لها فى صفات أبيها حتى لو كنت أكذب

عليها وأخترع من خيالى هذه الصفات.. كان كل ما يهمنى هو أن تكبر فايزة وهى فخورة بأبيها حتى تكون لها شخصية سليمة قوية وليست شخصية مجروحة بعيوب الأب أو الأم.. إن جرح الأب أو الأم هو جرح للابن شخصياً.. ولذلك كان من مظاهر الخلافات الشخصية شتيمة الأب والأم دون أن يكون لهما ذنب فى هذا الخلاف.. فعندما يشتم فرد فرداً آخر بكلمة « يلعن أبوك » فهو لا يقصد أباه ولكن يقصده هو باللعنة.. ولذلك كنت أحس بأن أى مساس بشخصية عبدالحميد هو مساس بشخصية ابنتى فايزة.. وكانت عندما تسألنى لماذا افترقنا أرد ضاحكة :

– كان يغار على من الجامعة..

أو أجيبها :

– بابا شخصية كبيرة فى حاجة إلى امرأة تتفرغ له..

وكنت أقول هذا الكلام ضاحكة دون أن أقدر أنه يمكن أن يكون له تأثير على تربية أفكارها وعلى تحديد مستقبلها.. ومع مرور الأيام والشهور بدأت زيارات عبدالحميد لابنته تنتظم مرة كل أسبوع ولا تتجاوز مرتين.. وبعد ثلاث سنوات تزوج عبدالحميد وكانت فايزة قد تجاوزت الرابعة من عمرها.. وبرغم كل ما مر بنا فإنى أعترف بأنى أيامها تضايقت لأنه تزوج.. إنه نوع من الغيرة.. الغيرة الاجتماعية.. فأنا لم أتزوج ولا أفكر فى الزواج، فلماذا يتزوج هو.. بل كانت تمر على لحظات أحس كأنه تزوج على، أى تزوج وأنا لا أزال فى عصمته، أو أحس بأنه لم يوافق على الطلاق إلا لأنه كان يريد أن يتزوج غيرى.. ثم ماذا يكون وضع فايزة ابنتى بالنسبة لهذه الزوجة الأخرى.. إن حياتها كلها يجب أن تتخذ مساراً جديداً.. هناك امرأة جديدة دخلت حياتها من خلال أبيها.. ثم إن هذه المرأة قد تلد وتنجب أولاداً وبنات لهم نفس حقوق فايزة على أبيها.. أخواتها

لن يكونوا منى.. فماذا يكون وضعها بالنسبة لكل هذا.

وغاب عبدالحميد شهراً قضاه فى العسل.. نفس العسل الذى ذاقه منى، وربما استطعم مذاقه أكثر لأن الفتاة التى تزوجها هى محترفة زواج أى ليس لها عمل آخر.. فى حين أنى كنت محترفة عمل ودراسة ولم يكن الزواج والحب بالنسبة لى سوى عمل أوقات الفراغ.. وبعد أن عاد من غياب شهر العسل زار ابنته ولم يحدثها عن زواجه حتى من خلال مداعباته، وجلست معه يومها فلم يحاول معى أنا الأخرى أن يحدثنى عن زواجه وطبعاً كان يعرف أنى أعلم به وأعلم بكل التفاصيل التى أبلغها لأمى يوم قرر الزواج، وقلت له وأنا افتعل ضحكة أغطى بها حرقتى :

– هل أنت سعيد الآن.

وضحك ضحكته المنطلقة وقال :

– السعادة كحالة الجو تماماً.. ترتفع وتنخفض وتسخن وتبرد.. ولكى تسألينى عن السعادة يجب أن تحددى موعدها بالضبط.. السعادة متى.. أمس أم اليوم.. وفى أى ساعة.. الساعة الواحدة ظهراً أم الواحدة بعد منتصف الليل.. أنا الآن فى هذه اللحظة سعيد.. فى منتهى السعادة.. لأنى مع فايزة.. ومعك..

وهكذا كان يتكلم دائماً.

وقد تركته فى سعادته، وهو يعرض الهدايا الكثيرة التى حملها لابنته من رحلة شهر العسل، بل إنه حمل لى أيضاً هدية.. لا شك أن زوجته الجديدة هى التى اختارتها لى.. قطعة قماش حرير وشال.. وقد تقبلتها شاكرة دون أن أنظر إليها.

وبعد أسابيع تحدث عبد الحميد مع أمى فى التليفون وقال لها إنه يريد أن يأخذ فايزة ويخرج بها ليقدمها إلى زوجته.. ووقعت فى معركة عنيفة بين عقلى وعواطفى.. أحسست كأن هناك امرأة أخرى

تريد أن تأخذ منى ابنتى.. وعقلى يقاوم هذا الإحساس.. إن ابنتى تعيش فى حياة أبيها وقد دخلت هذه المرأة الأخرى حياة أبيها أيضاً فيجب أن تعيش معها.. الحياة نفسها لم تتغير.. مجرد عنصر جديد دخل فيها.. ويشتد عقلى فى المقاومة حتى سيطر سيطرة كاملة على أحاسيسى، فقمت واتصلت بعبدالحميد وطلبت منه أن يأتى لزيارتى.. وجاء وهو فى دهشة وظلت الدهشة معلقة فى عينيه إلى أن قلت له :

– لقد طلبت أن تأخذ فايزة لزيارة زوجتك.

قال وكأنه اكتشف السر :

– هذا صحيح.. هل ترفضين ؟

قلت فى عجلة :

– لا.. أبداً.. بالعكس.. يجب أن يحدث هذا.. أنت أبوها وهى زوجة أبيها.. ومن مصلحة فايزة أن ترى أباها كله.. تراه كاملاً.. ولكنى أعترض على أن تأخذها إليها.. إن فايزة ستحس كأنك تصحبها لرؤية شىء غريب.. أو كأنك تأخذها إلى حديقة الحيوان.. ولن يكون لقاء طبيعياً بينها وبين زوجتك.

وكتم عبدالحميد الإهانة وقال فى هدوء :

– وماذا تقترحين ؟

قلت وأنا ابتسم كأنى أتباهى بذكائى :

– اقترح أن تأتى بزوجتك إلى هنا فى زيارتنا حتى يبدو لقاؤها مع فايزة طبيعياً، ولا تحس فايزة أن زوجتك شىء آخر غير ما عودتها عليه.. أنت عودتها على أن تراها هنا فى هذا البيت ولا مانع من أن تراها هنا أيضاً وأنت مع زوجتك.

ونظر إلى عبدالحميد طويلاً كأنه حائر فى، ثم قال وهو ينتفض واقفاً فى طريقه إلى الانصراف :

- أمرك.. موافق.. يوم الاثنين نتناول هنا الشاى كما تعودنا.. وستكون سميرة معى.. أنت عبقرية يا حضرة الأستاذة.

وانصرف وأخذت فايزة وبدأت أعدها لهذه الزيارة، وقلت لها إن أباها تزوج امرأة أخرى وستأتى معه لزيارتنا.. وأخذت أشرح لفايزة الموقف دون أن أمس أباها ولا زوجته بكلمة عيب واحدة.. واستمعت إلى فايزة طويلاً وسألتنى أسئلة ساذجة، ثم صمتت طويلاً وفجأة أخذت تبكى.. ربما كان مجرد تصورها أن هناك امرأة أخرى أصبحت فى حياة أبيها دفعها إلى البكاء.. إن البنت تغار على أبيها من أمها ولا شك أنها تغار عليه أكثر من امرأة ليست أمها.

وجاءت سميرة زوجة عبدالحميد ولا أدرى كيف استطاع إقناعها بأن تأتى إلى داخل بيتى أو ربما أرادت أن تثبت أن ماضيه لا يهمها، والمرأة عادة لا تغار من ماضى زوجها ولكنها تغار من المرأة التى تأتى بعدها.. وإذا كانت سميرة جميلة فجمالها هو جمال المرأة المتفرغة لأنوثتها.. كل لمحة فى وجهها وكل حركة من يدها، وذوقها فى اختيار ثوبها وفى تسريحة شعرها.. كل شىء فيها يدل على تفرغها لفن الأنوثة.. إنها حتى لم تستكمل دراستها ولم تحصل على التوجيهية أى شهادة الثانوية.. لم تشغل نفسها بعيداً عن أنوثتها إلا بضع سنوات قضتها فى مدرسة الليسيه وإن كنت قد اكتشفت بعد ذلك أنها تجيد اللغة الفرنسية فعلاً.. ولم يعجبنى فيها يوما إلا حذاءها لعلها اشترته فى رحلة شهر العسل.. وقد كانت زيارة مفتعلة باردة برغم أن كلا منا بذل مجهوداً كبيراً حتى يتحملها وحتى لا يخطئ.. وقد بذلت سميرة مجهوداً فى التقرب إلى ابنتى فايزة.. ولكن فايزة تركتها وتركتنى أيضاً واحتمت فى أحضان أمى طوال فترة الزيارة.

وقالت ماما بعد أن انتهت الزيارة :

- لا بأس بها.

وقلت :

- إنها فارغة كما هو فارغ.

وقد استطاعت هذه الفارغة فى السنوات الطويلة أن تكسب صداقة ابنتى فايزة.. بل جاء وقت كانت سميرة تعلم من أسرار ابنتى أكثر مما أعلم أنا.

إنها ليست فارغة.. إنها متفرغة.

المهم أننى بعد الطلاق تفرغت تفرغاً كاملاً لحياتى العامة.. والحركة النسائية.. والأحداث الوطنية السياسية.. وكان ذلك فى أوائل الخمسينيات. والحياة العامة فى مصر تزداد عنفاً.. أصبحت الحياة العامة معركة تتجدد كل يوم، وكل فرد يحس أنه مسئول عن جانب من هذه الحركة، وكل فرد يتولى قيادة نفسه، حتى أصبح من الصعب أن تكتشف إذا كان هذا الفرد يحارب لحساب نفسه. أم لحساب هيئة من الهيئات السياسية، أم لحساب مصر.. والأحداث تتوالى.. إلغاء المعاهدة مع الإنجليز.. الثورة المسلحة ضد الإنجليز فى منطقة القنال.. قضية الأسلحة الفاسدة.. الثورة على الملك.. الثورة على الأحزاب.. إن لغة الثورة أصبحت هى لغة التخاطب العام مع الذين لا يريدون أى ثورة.. وكنت أنا قد أدمنت هذه اللغة وإن كنت أتعمد أن أصوغها داخل قوالب جادة علمية حتى لا أفقد شخصيتى كأستاذة جامعية عاقلة.. وكنت أتردد على كثير من الاجتماعات السياسية دون تفريق بين انتماءاتها السياسية أو بين أشخاص الزعامات.. كنت أحاول أن أحتفظ بصداقة الجميع.. واستطعت فعلاً أن أكتسب اسماً محترماً فى أوساط الحركة السياسية، وإن كان هذا الاحترام لم ينج من الاتهامات الجارحة.. اتهمت بالنفاق السياسى،

لأنى كما أحضر اجتماعات الحزب الوطنى كنت أحضر أيضاً اجتماعات الشباب الوفدى والحزب الاشتراكى، وكما أحضر اجتماعات الهيئات الماركسية أحضر اجتماعات الإخوان المسلمين.. والواقع أنى كنت مؤمنة بأن هناك قضية وطنية عامة تشمل الجميع لا قضية مذهبية أو حزبية يختص بها حزب دون الآخر..

ولكن هذا الإيمان لم يكن مقنعاً للكثير فأطلقوا علىّ تهمة النفاق السياسى التى تشمل الاتهام بالانتهازية والاتهام بحب الظهور وشهوة التزعم.

ليس هذا فقط.. فقد أصبحت حياتى الخاصة أيضاً معرضة لكثير من الاتهامات خصوصاً بعد أن عرف عنى الناس أنى مطلقة.. ولم أكن أدرى أن الطلاق يمكن أن يمسخ وضعى الاجتماعى إلى هذا الحد، وإلا لما طلبت الطلاق أصلاً.. فأنا شابة لا تزال محتفظة بأنوثتها كاملة ولم تخلع أنوثتها وتضعها فى مخزن العجائز.. وأنا جميلة هذا الجمال الذى تتميز به امرأة مثقفة وأستاذة فى الجامعة.. ثم أنا مطلقة أى لست عذراء ولا أعيش فى حماية رجل.. والمطلقات ينظر إليهن المجتمع كأن كلاً منهن محطة أتوبيس تقف عندها كل سيارة.. أى يقف عندها كل رجل.. إن المطلقة تشعر بأن الناس يعاملونها كأنها أصبحت ملكية عامة.. يملكها الشعب.. وربما لو كنت كالسيدة نبوية موسى عجوزاً وليس لى أنوثة تغرى أحداً لما أحسست بكل هذا ولتمتعت بحريتى كاملة معتمدة على أن ليس فى ما يغرى بإثارة الإشاعات.. أما أنا فقد أصبح مفروضاً على أن أخنق حريتى بيدى.. إن المرأة المتزوجة أكثر حرية من المرأة المطلقة.. المرأة المتزوجة تحمى حريتها بزوجها وليس من حق أحد أن يحاسبها إلا زوجها، ولكن المطلقة لا تجد من يحمى حريتها وتجد نفسها مسئولة أمام كل الناس، وكل الناس يحاسبونها على تصرفاتها.. إن المجتمع

يعطى المرأة المتزوجة كل الحرية حتى حرية الصرمحة والعلاقات المريبة ما دام زوجها لا يعترض.. بل إن القانون نفسه يحمى المرأة المتزوجة حتى فى جريمة الزنا، فإذا تنازل الزوج عن حقه سقطت الجريمة، أما المطلقة فحتى القانون يتخلى عنها ولا تجد من يعفيها من نفس الجريمة لو ضبطت بها.

كان على أن أحمى نفسى بنفسى من كلام الناس ومن الإشاعات التى تمسنى كامرأة مطلقة. فكنت أتعمد أن أباعد بين اتصالاتى بالشخص الواحد أو الهيئة الواحدة.. أى إذا التقيت بشخصية من الشخصيات السياسية فإنى أتعمد ألا ألتقى به مرة أخرى إلا بعد أسابيع، حتى لا أترك مجالاً لإشاعة تجمع بينى وبينه.. وإذا حضرت اجتماعاً فى هيئة من الهيئات تعمدت ألا أحضر كل اجتماع حتى لا أنسب إليها أو ألصق بأحد من أعضائها.. وحتى زملائى فى الجامعة أصبحت بعد الطلاق أتعمد أن أجتمع بهم فى مجموعة ولا أنفرد بواحد منهم فترة طويلة أو بصورة متكررة حماية لنفسى من الإشاعات.. ولا شك أنى بذلك حميت نفسى فعلاً من نسبة كبيرة من الإشاعات واحتفظت لنفسى بنسبة كبيرة من السمعة الطيبة النظيفة، ولو كان ذلك على حساب حريتى الخاصة، وعلى حساب حيويتى المتدفقة التى لا تهدأ أبداً، ثم على حساب صداقتى لعادل.

وقد عرفت عادل فى ندوة داخل جمعية «الثقافة المتحررة» وهى جمعية يسارية تخفى فى داخلها المبادئ الماركسية، ولكنها جمعية صغيرة وعدد أعضائها محدود وتجتمع فى شقة صغيرة بشارع القصر العينى لا تتسع لأكثر من عشرين شخصاً.. وقد اشتركت مع عادل فى مناقشات هذه الندوة، وأعجبت به.. وأعجبت بعمق دراسته لموضوعه، وبهدوئه وهو يسرد آراءه، وربما أعجبت أيضاً بوسامته. فهو شاب جذاب وفى جاذبيته جدية وخشونة الرجولة وقد تخرج

حديثاً من كلية الآداب.. وقد استمرت مناقشاتنا حتى بعد انتهاء الندوة وكل منا مستريح للآخر.. وبعد يومين اثنين اتصل بى فى التليفون ودعانى لندوة أخرى.. وبعد يومين آخرين كنت ألقى محاضرة فى نفس الجمعية.. ثم دعانى عادل إلى مشاهدة مسرحية لتشيكوف يؤديها بعض الهواة.. وقد ذهبت معه برفقة صديق آخر وزوجته.. كل ذلك دون أن يخطر على بالى ما يمكن أن يثور من إشاعات عن علاقاتى، وربما لأن شخصية عادل كانت تحملنى إلى عالم نظيف لا يمكن أن يتعرض للإشاعات، ثم إن العلاقة بينى وبينه كانت فعلاً نظيفة حتى فى نياتنا.. لم يكن بينى وبينه أى معنى يمكن أن يحملنا إلى الاختباء عن الناس.. ولكنى بدأت ألاحظ كأن العيون تتهامس عندما يروننى مع عادل.. ثم بدأت هذه الهمسات ترتفع.. حتى أمى كانت تحمل لى التليفون عندما يتكلم عادل وتقول لى بلا تعليق.. عادل.. ثم تقف برهة وعينيها تتسللان إلى داخل عينى كأنها تنتظر منى أن أصارحها بشىء.. وذهبت إلى مقر الجمعية مرة فإذا بأحد الأعضاء يستقبلنى وهو يقول لى :

– تفضلى.. الأستاذ عادل على وشك أن يأتى.. إنه لا يتأخر أبداً.

كأنى لم أذهب هناك إلا من أجل عادل.

وثرت على هذا الفهم وكدت أن أخرج من شقة الجمعية فوراً حتى أثبت أنه لا يهمنى انتظار عادل ولكنى خشيت أن يفسر خروجى على عكس ما أقصده وأتهم بأنى خرجت لأنى لم أجد عادل.. فبقيت بعد أن قررت بينى وبين نفسى أن أبتعد عن عادل نهائياً.. ولم يكن قراراً سهلاً.. فإننى كنت فعلاً أميل إلى عادل.. وميلى إليه يتطور إلى ما يمكن أن يؤدى إلى حب كامل.. حب يحقق وحدة الشخصية ووحدة العقلية ووحدة المزاج حتى وإن لم يحقق وحدة الأيديولوجية أو المذهبية لأنى لم أكن فى يوم من الأيام مقتنعة

بالماركسية.. ولكن إلى ماذا يمكن أن يؤدى بى هذا التطور ؟.. إلى الحب.. إن عقلى يرفضه.. يرفض أن يرسم مستقبلاً يشترك فيه عادل.. إن عواطفى المحرومة هى التى تشدنى إليه، وعواطفى بدأت تعرضنى إلى هذه الإشاعات والهمسات التى تمس احترامى لنفسى كسيدة مطلقة.. إن أى إشاعة تمس سيدة مطلقة لا يمكن أن تكون إشاعة نظيفة، إن المطلقة فى نظر الناس كالسيارة المستعملة « ساكند هاند» كل من يراها يفكر فى أن يستعملها كسيارة تاكسى يركبها كل من تقف له.

وابتعدت عن عادل.. أصبح كلما دعانى إلى اجتماع أعتذر وأصبح إذا تحدث فى التليفون أشير إلى أمى من بعيد لتقول له إنى غير موجودة.. وفهم عادل ولم يعد يلح أو يجرى ورائى.. ومضى أكثر من ثلاثة أشهر، وفى يوم، وكانت الساعة حوالى الثامنة مساء، دق جرس باب بيتنا. وكان عادل.. واستقبلته فى دهشة غلبت ترحيبى بزيارته المفاجئة، وقال فى تردد دون أن يفقد هدوءه :

– آسف.. قبضوا على كل أعضاء الجمعية.. والبوليس يبحث عنى.. هل أستطيع أن اختبئ عندك هذه الليلة فقط ؟

ووقفت أمامه حائرة مترددة.. لقد سبق أن ساعدت الكثيرين على الهرب من البوليس.. بل حدث وأنا متزوجة أن آويت فى بيتى طالباً هارباً من البوليس، وكان من طلبة الإخوان المسلمين، بموافقة زوجى طبعاً وإن كان لم يبق فى البيت سوى نهار واحد.. ولكنى الآن لست زوجة.. صحيح أنى أقيم مع أبى وأمى وابنتى، أى لست وحدى، ولكن الناس قد لا تفهم هذا خصوصاً وأنه سبق أن ثارت إشاعات عنى وعن عادل.. ثم إن هذا ليس بيتى.. إنه بيت العائلة.. المطلقة ليس لها بيت.. فما ذنب العائلة لأعرضها إلى كل هذا.. وإذا وافق بابا فقد لا توافق ماما.. كل هذا يملأ رأسى وعادل واقف أمامى دون أن أقول

له تفضل.. وربما لاحظ عادل ترددى وافترض رفضى لمعاونته، وقال :

– كان يجب أن أتصل بالتليفون قبل أن آتى.. ولكنى لم أستطع.. وقد اخترتك لتساعدينى لأنك أبعد ما يمكن أن يشك فيه البوليس.. والبوليس لا يبحث عادة وراء السيدات حتى من يتردد منهن على الجمعية.

وكان هذا صحيحاً فالبوليس لم يبدأ فى القبض على النساء فى تهم سياسية إلا بعد الثورة.. تحقيقاً لمبدأ المساواة.. أما قبل الثورة فقد كان البوليس أرحم بالنساء.. وبرغم ذلك قلت لعادل وأنا أقاوم حرجى :

– آسفة يا عادل.. لا أعتقد أن بابا يوافق.. تستطيع أن تذهب إلى الأستاذ عباس يحيى.. إنه..

وقبل أن أتم كلامى كان عادل يجرى على درجات السلم مبتعداً وهو يقول :

– سأتصرف.. آسف للإزعاج.

ولم يقبض على عادل أيامها.. لم يقبض عليه طوال سنوات ما قبل الثورة وقبض عليه بعد الثورة وقضى فى المعتقل خمس سنوات ثم خرج ليعين أستاذاً فى المعهد الاشتراكى بعد أن أصبحت دولة الثورة دولة اشتراكية متطرفة، وهو إلى الآن لا ينسى أنى رفضت إيواءه فى بيتنا لأحميه من البوليس.. وأنا لا أنسى أنى رفضته وضحيت به فى سبيل حماية حياتى العامة.. حماية مركزى كزعيمة من زعيمات الحركة النسائية، وأستاذة تتطلع إلى مستقبل مفتوح، حتى لو ضحت بعواطفها، حتى لو تجاوزت بعض المواقف الإنسانية كحماية شاب سياسى من سلطة البوليس.. لقد تجاوزت بعد ذلك كثيراً من مثل هذه المواقف..

ونعود إلى أيامى بعد الطلاق.

إنى بجانب كل هذا النشاط السياسى ونشاطى بالجامعة بدأت أخطو خطوات جدية فى سبيل الحصول على الدكتوراه وقد حصلت على الماجستير فى شهر واحد. وحصلت على ماجستير آخر، ولكنى لم أحصل على الدكتوراه إلا بعد الثورة.. ثورة ٢٣ يوليو.. وربما ساعدنى على الحصول عليها أنى تفرغت لها.. جمدت نفسى سياسياً واكتفيت بالدراسة.. فقد مضت على السنوات الأولى من الثورة وأنا لا أستطيع أن أحدد لها طريقاً، ولا أفهم لها سراً.. كنت أقاوم نفسى من الاندفاع وراء فرحتى بالثورة.. كان يجب أن أفهمها أولاً.. خصوصاً وأنى لا أعرف أحداً من قادتها.. والمبادئ التى أعلنت أيامها كلها مبادئ عامة كنا ننادى بها وتنادى بها كل التجمعات الثورية.. كل هذا لا يكفى للفهم.. ويجب أن أنتظر.. ويكفينى أن أشغل نفسى بإعداد رسالة الدكتوراه، ثم نشاطى هادئ داخل الجمعيات الخيرية.

ولكن الجمعيات الخيرية بدأت تذوب.

والجمعيات الخيرية فى أى بلد تتولاها دائماً سيدات الطبقة الحاكمة.. نساء الأسرة المالكة، ونساء الباشوات والبكوات، ونساء ملاك الأرض وكبار التجار.. حتى الزعامات النسائية فى المجال الوطنى والاجتماعى كانت مقصورة على نساء الطبقة الحاكمة.. صفية زغلول وهدى شعراوى وسيزا نبراوى ودرية شفيق.. و.. و.. و.. كلهن من نساء الطبقة الحاكمة.. وقد تغيرت الطبقة الحاكمة بعد الثورة.. أصبحت طبقة يمثلها ضباط الجيش والذين يختارهم ضباط الجيش.. وكان يجب أن تتغير معها كل نساء الطبقة التى تحكم الجمعيات الخيرية والنشاط النسائى.

وقد وقفت من بعيد أرقب ما تبذله نساء الطبقة الحاكمة القديمة لحماية أنفسهن ومراكزهن وأحياناً لحماية أزواجهن.. إن بعضهن

اكتفين بالعزلة وانقطعن من تلقاء أنفسهن عن المساهمة فى نشاط الجمعيات الخيرية، وعن حضور الحفلات العامة أيضاً، كأنهن قد أعلن الإضراب الصامت أو المقاومة السلمية على طريقة غاندى.. وبعضهن قد أعلن المقاومة العنيفة خصوصاً بعد أن صدر قانون الإصلاح الزراعى الذى استولى على أراضى نساء هذه الطبقة، ثم صدر قانون إلغاء الأحزاب التى كانت تضم معظم أزواجهن أو أبنائهن.. وتمثلت هذه المقاومة العنيفة فى إطلاق ألسنتهن بالطعن والتشهير بالثورة ورجال الثورة، وواحدة أو اثنتان من الشخصيات النسائية البارزة كانت تعقد ندوات سياسية داخل البيوت، ثم حدث أن قامت الدكتورة درية شفيق بحركة علنية فلجأت إلى السفارة الهندية مطالبة بالالتجاء السياسى إلى أن تعود الديمقراطية إلى مصر.. وطبعاً لم يكن من المعقول أن تعود الديمقراطية لمجرد الخوف من نشاط الدكتورة درية شفيق أو الجبر بخاطرها.. وكانت النتيجة أن أقنعتها السفارة الهندية بأن تعفيها من حمايتها أو منحها حق اللجوء السياسى فعادت إلى بيتها حيث صدرت الأوامر باعتقالها فى داخله.. ولم تكن الثور فى هذه الأيام تقاوم هذه الحركات النسائية بالقبض على النساء أو اعتقالهن.. ولكنها كانت تقبض على أزواجهن أو آبائهن أو أولادهن.

وكان هناك نوع ثالث من نساء الطبقة القديمة حاول أن يحمى نفسه بأسلوب آخر.. أسلوب اصطياد الضباط والشخصيات التى ظهرت مع الثور وكان كثيرون منهم على استعداد أن يستجيبوا بسرعة للصيد.. بل إن بعضهم انطلق يبحث عن امرأة تصطاده، كان كل منهم ينهار عندما يجد أمامه أميرة من الأميرات أو ابنة باشا من الباشوات القدامى تغازله وتعرض نفسها عليه.. إنه شىء أبعد مما كان يصل إليه خياله أو تتسع له أحلامه.. وكانت كل منهم – من

هؤلاء النساء – تعتقد بمجرد أن يستجيب لها هذا الرجل أنها وصلت إلى الحكم.. عادت إلى عزها القديم كإحدى نساء الطبقة الحاكمة.. وانطلقت الحكايات من مجتمع نادى الجزيرة ونادى السيارات ومن سهرات القصور القديمة.. من المجتمع الراقى الذى أصبح يضم كثيراً من رجال الثورة.. حكايات تروى قصة فلان مع فلانة، وكانت بعض الحكايات تثير فى داخلى الإحساس بالشفقة إلى حد القرف.. الشفقة على هذه أو تلك من النساء اللاتى كن متعجرفات وكن يشفقن على أجسادهن من أن تمسها يد فلاح، وهن يلقين بأنفسهن فى أحضان أى رجل لمجرد أنهن يعتقدن أنه من رجال الثورة وصاحب نفوذ.. وبرغم كل هذه البهدلة فإنهن لم يخرجن بشىء إلا بالسماح لهن بالسفر إلى الخارج الذى كان أيامها ممنوعاً، أو بجزء من مصاغهن وأموالهن قبل أن تبتلعه المصادرة أو الحراسة.

وربما كان أصعب ما واجه مجتمع ما بعد الثورة، هو أن الثورة نفسها لم يكن لها لون.. كانت لها مبادئ ولكن لا لون لها.. لا هى ثورة عمال وفلاحين ولا هى ثورة ملاك وأصحاب رؤوس أموال.. ولا هى يسارية ولا يمينية ولا حتى وسط.. بل إن الثورة بدأت دون أن تعلن نظامها هل هو نظام ملكى أم نظام جمهورى إنها ثورة مبادئ شعبية عامة، نفس المبادئ التى كان كل المثقفين الوطنيين ينادون بها.. وكل هذا ترك أثره على المجتمع نفسه.. لم يكن هناك انقلاب اجتماعى يمس المظاهر والتقاليد والتعامل بين الطبقات، ولم يكن هناك إلغاء للنشاط الاجتماعى الفردى.. كل حر فى اختيار أسلوب مجتمعه.. حتى أفراد الطبقة التى شملها التأميم والمصادرة ظلت محتفظة بحريتها الاجتماعية ما دامت حرية ليست سياسية وحدث التطور عفوياً وبلا قصد ونتيجة الأحداث وبتأثير المزاج الشخصى للطبقة الحاكمة.. وهذا كان له التأثير الأكبر على النساء

قبل الرجال.. فكل امرأة لم تعد تدرى كيف تتصرف اجتماعياً.. كثيرات من نساء الطبقة الحاكمة الثورية بدأن بتقليد نساء الطبقة الحاكمة القديمة.. فى أسلوب اختيار أزيائهن.. وتتبع آخر موضات باريس فى ألوان التواليت وتسريحات الشعر، وفى إقامة المآدب والسهرات، وكان بعضهن يثرن الضحك وهو يمارس لوناً من الفن الاجتماعى لم يتعودنه.

وكل هذه الحيرة استمرت سنوات ثم بدأ المجتمع يستقر من تلقاء نفسه فى الإطار الذى نعيش فيه اليوم، وهو إطار لا يزال متأثراً بالمجتمع القديم.. مجتمع ما قبل الثورة.. أكثر من تأثره بكل التطورات التى عاشتها مصر منذ الثورة.

وقد استطعت أن أحمى نفسى من هذه الحيرة بتفرغى للجامعة وللإعداد للدكتوراه.. حتى فى مناقشاتى مع زملائى لم أكن أبدى رأياً ولا تأييداً ولا معارضة، وكانت حجتى دائماً أنه يجب أن ننتظر حتى نفهم.. وأن الأخطاء هى المقدمة الطبيعية لكل الثورات.. الأخطاء السياسية والأخطاء الاجتماعية والأخطاء الإنسانية أيضاً.. فلا يجب أن نتخذ من الخطأ الواحد أساساً لحكم نهائى.. ولم أكن باتخاذى هذا الموقف جبانة أو منافقة ولكنى كنت ذكية.. فإن الثورة فى الواقع لم تواجه أبداً بثورة شعبية مضادة.. إنما كانت تواجهها ثورات حزبية.. ثورة الأحزاب القديمة، ثورة الإخوان المسلمين. وثورة الماركسيين، ثم الاعتداءات الخارجية.. وأنا ليس لى مصلحة خاصة مع كل هؤلاء، أنا أعيش بفكرى بين أفراد الشعب العادى الذى لم يقرر أبداً الثورة على الثورة.

ثم إن حكومة الثورة قررت أن تتفرغ كل الجمعيات النسائية للأعمال الخيرية فقط.. لا سياسة.. حتى الاتحاد النسائى الذى أسسته هدى شعراوى طلبت الحكومة تغيير اسمه فأصبح الاسم

«جمعية هدى شعراوى».. بل إن الحكومة بدأت تتدخل فى اختيار أعضاء مجالس إدارة الجمعيات.. حذفت بعض الشخصيات وأضافت شخصيات جديدة.. ولم يحذف اسمى من جمعية ولا أضيف اسمى لجمعية.. وكان المقصود طبعاً هو تفتيت كل القوى التى كانت قائمة قبل الثورة بما فيها قوى الحركة النسائية وإحالتها إلى قوى فى خدمة الثورة وملكاً للثورة.. وطبعاً لم يكن المقصود هو تقوية الأعمال الخيرية فقد كان الخير قبل الثورة يعتمد على تبرعات الأغنياء ولم يعد فى مصر أغنياء، أو على الأصح أصبح الأغنياء يخافون من اتهامهم بالغنى، ولا يمكن أن يتبرع واحد منهم بمليم مما تركته الثورة.. كان التبرع قد أصبح فعلاً اتهاماً.. فإذا تبرعت فأنت تملك فيجب أن تخضع لقانون الحراسة.. إنى أعرف واحداً فرضت عليه الحراسة فعلاً لأنه تبرع بعشرة آلاف جنيه لبناء مسجد فى مناسبة زواج ابنه بدلاً من أن يصرفها على حفل يقيمه فى الهيلتون.. ولذلك فإن الجمعيات الخيرية أصبحت تعتمد الاعتماد الكامل على مساعدات وزارة الشئون الاجتماعية ووزارة الأوقاف وتبرعات البنوك والمؤسسات الاقتصادية، وكل منشآت الحكومة.. أى أن عمل الخير أصبح مسئولية الحكومة.

وأنا أؤيد هذا الاتجاه.. فلا يمكن أن يتوقف مصير الإنسان الضعيف الفقير المريض على شفقة الإنسان القوى الغنى.. ليست هناك دولة محترمة يعيش فقراؤها تحت رحمة أغنيائها.. إن الدولة هى وحدها المسئولة.. والمحتاج لا يأخذ حسنة ولا « بقشيش» ولكنه يفرض حقاً عن طريق دولته.. ولا أقول هذا الكلام بعد أن أصبحت اشتراكية بصفة رسمية.. إنى أقوله لأنى أفكر كإنسانة.

المهم.

حصلت على الدكتوراه.

وأصبحت أستاذة مساعدة فى كلية الحقوق.

وإلى الآن كنت ما زلت منعزلة عن أى مسئولية خارج الجامعة، وليس معنى ذلك أنى قررت الانعزال إلى الأبد ولكنى لا أريد أن أستجدى أى عمل أو أى مسئولية عامة خارج الجامعة.. لم أكن أريد أن أقدم نفسى لأخدم.. ولكنى كنت فى انتظار الفرصة التى يسعون بها إلى.. وأن يطلبوا منى قبل أن أطلب منهم. وقد قاومت كثيراً حتى أحتفظ بهذه العزلة المتعالية المتعففة، فقد كان المجال النسائى قد أصبح خالياً من الشخصيات المحترمة بعد الثورة، ثم كان هناك اتجاه لمنح المرأة حقوقاً جديدة منها حق الترشيح فى المجلس النيابى وحق الاشتراك فى الوزارة و.. و.. وكلها مجالات مغرية لامرأة مثلى تعيش الحياة العامة خارج البيت أكثر مما تعيش حياتها الخاصة داخل البيت.

ويبدو أن لقب دكتورة هو لقب مغر لرجال الثورة.. ربما لأنهم من رجال الجيش الذين يعانون من عقدة الانفصال عن الثقافة المدنية.. ويحاولون دائماً أن يثبتوا أن ثقافتهم ليست مقصورة على العلوم العسكرية فحسب، حتى إن بعضهم - للأسف - استطاع أن يحصل على الدكتوراه كشهادة علمية برغم أنه قطعاً لا علاقة له بالعلم الذى نال فيه الشهادة.

وقد كان لقب الدكتوراه هو أيضاً الذى دفع القيادات إلى البحث عنى والجرى ورائى.. إنهم يريدون أن يطبعوا المنظمات السياسية التى يقيمونها بطابع الثقافة المحترمة.. أن يضموا إلى الكوادر السياسية شخصيات تحمل ألقاباً علمية كما يحدث فى الأحزاب والتنظيمات فى الدول الكبرى.

وجاء زميلى الدكتور فؤاد عبد القادر وقال لى :

- جاء اسمك أمس.. تحدثنا عنك طويلاً.. وأنت لك تاريخ فى

الحركة الوطنية لا ينكره أحد.. فلماذا ابتعدت ؟

وقلت :

- أنا لم ابتعد.. ولكنى لم أشعر بأن أى تنظيم فى حاجة إلى.

قال :

- بالعكس.. وبصراحة لقد أرسلونى إليك.. ما رأيك ؟

قلت :

- رأيى بعد أن أجتمع بهم.

وحضرت أول اجتماع مع القيادة العليا للتنظيم السياسى.. وتعودت من يومها أن يكون أى اجتماع وكل اجتماع هو اجتماع لإطلاق الأحلام الوطنية وتأكيد الخطوات التى حققت كل أمل وطنى.. كل اجتماع حتى لو كان مقصوراً على أربعة أشخاص هو ترديد لخطاب سياسى.. وكل ما هناك أن لهجة الخطاب تختلف باختلاف عدد الحاضرين.. وفى كل اجتماع كانوا يرددون أمامى لقبى.. دكتورة.. دكتورة.. دكتورة.. كأنهم يتفاخرون بأن بينهم دكتورة، وكأنهم ينثرون فوق رأسى الزهور.. زهور الدكتوراه.. وأذكر أنى انتهيت من أول اجتماع بأن أردت أن أثبت أن التنظيم يمكن أن يستفيد منى كدكتورة.. فعرضت أن أعد بحثاً عن دور التنظيم السياسى فى إعداد الأفراد لتطور الإنتاج الصناعى.. وهو بحث يدخل فى دائرة اختصاصى العلمى.. وقد حملت البحث بعد أيام وقدمته، وبعد أيام أخرى استدعيت وتلقيت تهنئة حارة بالبحث، ولكنهم سألونى :

- ألا يمكن أن نضع شعاراً يمكن أن نطلقه تعبيراً عن هذا البحث ؟

واستنتجت أنهم قرءوا البحث كله وربما أكثر من مرة بحثاً عن شعار يطلقونه.. لا شىء آخر.. المطلوب هو الشعار.. الشعارات هى كل شىء.

كان الأفضل أن أحصل على دكتوراه فى اختيار الشعارات.

وقد اخترت لهم فعلاً شعاراً.. «الجهاد هو البناء » و«السياسة هى التصنيع والتعمير».

وهكذا بدأت المرحلة الثانية من حياتى العامة.

وقد مضى على الآن سبع سنوات وأنا بلا رجل.

وأنا فى الثانية والثلاثين من عمرى.

وبلا رجل.

وصديقى عادل قد أفرج عنه بعد أن أمضى فى الاعتقال خمس سنوات وهو الآن يتولى مركزاً هاماً داخل التنظيم السياسى. ولا يريد أن ينسى أنى رفضت أن أخبئه فى بيتى وهو يهرب من البوليس قبل الثورة..ولكنه أيضاً يزداد تمسكاً بصداقتى كأنه لا يستطيع أن يستغنى عنى.

هل يكون عادل هو الرجل؟!

لا.. لا يمكن.

٦

كان ما يربطنى بعادل ويشدنى إليه – كما سبق أن قلت – هو تقاربنا فى المستوى الثقافى.. فرغم أنه خريج آداب وأنا خريجة حقوق ، ورغم أنى أصبحت أحمل درجة علمية لا يحملها وهى الدكتوراه.. أنا الدكتورة سعاد وهو الأستاذ عادل.. رغم ذلك فكل منا يعترف للآخر بأنه يعيش نفس المستوى الثقافى ، ليس بيننا عقدة التعالى الثقافى الذى كنت أحس به تجاه كل أعضاء التنظيمات السياسية بما فيهم أعضاء المراكز القيادية.. وربما كان مما يربطنا أيضاً هو أننا نعيش فى طموح واحد.. الطموح السياسى.. أو الطموح الزعامى.. أنا من صغرى وأنا أحاول أن أكون شخصية عامة لها وزن ، وهو أيضاً ، وإنما كنا نختلف فى أنه يبنى نفسه داخل أيدلوجية محددة ، الأيدلوجية الماركسية ويتحرك داخل تنظيم قائم وهو التنظيم الذى بدأ قبل الثورة تحت اسم «جمعية التحرر الثقافى» ثم اختفى بعد الثورة كتنظيم علنى وإن ظل قائماً كتنظيم سرى.

أما أنا فلا أرتبط بأى أيدلوجية محددة ولكنى أترك الحرية لفكرى السياسى ليحدد رأيى فى كل موقف ، كما لا أنتمى إلى أى تنظيم سياسى حتى بعد أن انضممت إلى الاتحاد القومى أو الاشتراكى لم أعتبر نفسى أنتمى إليه إنما هو مكان أوجد فيه وناس أشترك معهم فى المناقشات.

وأعتقد أن ما كان يربطنى بعادل هـو نفسه ما كان يبعدنى عنه.. فلم يكن أحـدنا يستطيع أن يسـيطر على الآخر ، بحـيث يحتـويه أو يصبح مكملاً له.. كل منا ظل شخصية قائمة بذاتها.

وكان عادل قد خرج من المعتقل بعد أن قضى فيه خمس سنوات ، كـما سـبق أن ذكـرت.. لم يفـرج عنه تحقـيقاً للـعدالة ولا إطلاقـاً للحريات.. ولا لأنه استـوفى مدة حكم بها عليه.. ولكنه خرج نتـيجة اتفاق بين مصر والاتحاد السوفييتى.. وهكذا نحن.. أو هكذا كنا.. إذا تحسنت العلاقات مع موسكو أطلقنا سـراح الشيوعيين وإذا تحسنت العلاقات مع واشنطن أطلق سراح الرأسمـاليين.. أما المعتقلون الذين لا تهتم بهم موسكو ولا واشنطن فأمرهم بيد الله.

ولم يسأل عادل عنى بعد أن خرج من المعتقل ولكنى لقيته صدفة فى مبنى الاتحاد الاشـتراكى ، وأقبل على يصافـحنى بحرارة ، وأنا أتطلع إليـه فى فرحة تكاد تغلبنى.. إنه لا يزال أحد الرجـال القلائل الذين يثيرون فى إحساسى بأنوثتى بمجرد لقائهم ، وأنوثتى تدفعنى فوراً إلى اتخاذ مـوقف المقاومة ، مقاومة أنوثتى لا مـقاومة الرجل..

وانطلق عـادل يحـدثنى عن التنظيم والنشـاط السـياسى وعن آخـر المشروعات وآخر الأخبار ، وكأنه لم يكن معتقلاً طوال هذه السنوات بل إنى أعرف أنه بدأ نشاطه السياسى منذ اليوم الأول الذى عاد فيه من الواحات بعيداً عن المعتقل ، واستطاع فى أسابيع قليلة أن يكسب مركـزاً هاماً واتصـالات على أعلى المستـويات ، وأصبح شـخصـية معروفة.. وقال لى خلال لقائنا الأول وهو يضحك ضحكة حلوة :

– لا أنسى يوم رفـضت أن تحمـينى من البـوليس وطردتنى من بيتك.

وقلت وأنا ابتسم ابتسامة كبيرة أقدمها له كرشوة اعتذار :

– وأنا أيضاً لا أنسى.. كنت أيامها قاسية أو ربما كنت جبانة.

وقال بجدية وهو يمسك بيدى كأنه يؤكد صدقه :

– أبداً كنت عاقلة.. من يومها وأنا أقدرك أكثر.

قلت وأنا أترك يدى ليده :

– حتى أكـفر عن ذنبى ، دعنـى أدعوك إلى البيت الـذى رفضك.. غداً.. للغداء..

قلتهـا وأنا أنظر فى عينيـه.. إن المرأة تستطيع أن ترى فـى عينى الرجل ما يريده منهـا.. وهو يريدنى ، لم يتغيـر ما تريده عيناه عـما كان عندما كنا فى شبابنا.

وتنبـهت إلى أن يدى لا تزال فى يده ونحن وقـوف بين جـدران الاتحاد الاشتـراكى فنزعت يدى بسرعة وقلت وأنا أبتـعد عنه كأنى أهرب من نفسى :

– سأنتظرك غداً.. إنه نفس البيت ونفس العنوان.

وكنت لا أدعو أحـداً من الزملاء إلى البـيت إلا نادراً ، وإذا دعوت فإنى لا أدعو أحـداً بمفرده ، ولكن دائماً فى مجمـوعة.. إنى مطلقة.. والمطلقات كأعواد الكبريت تكفى لمسة واحدة لإشعال النار فيهن.. أى إشعـال الإشاعـات وإطلاق الألسنة حـولهن.. ولذلك كنت أتعـمد ألا أدعـو أحداً بمفـرده إلى البيت حـتى.لا أشـعل عود الكبـريت.. وربما الوحيد الذى تمنيت أن أدعوه إلى بيـتى وحده هو عادل ، ولو لنجلس جلسة هادئة نستعيـد فيها ذكرياتنا أيام جمعيـة «التحرر الثقافى» ، ولكنى قـاومت هذه الأمنيـة بل إنى أقنعت نفـسى بأنى لم أوجـه له الدعـوة لأشبع عـواطفى نحـوه أو لأشبع إحـسـاسى بأنوثتى.. بل دعوته لأنى أحكم عـقلى ولأنى انتهازية والعقل الانتـهازى يقول لى إن الماركسيين الآن يمثلون المستقـبل السياسى ونفوذهم يمتد داخل التنظيـمـات ويسـيطـر على الاجـتـمـاعات وعـلى الصـحف وعلى الاتصالات الخارجـية الرئيسية.. و.. و... فـيجب أن أكسب كل هذا.. أكسب عادل لحاجتى إلى شخصه.. ولهذا دعوته.

ولا شك أن عادل فوجئ عندما لم يجد نفسه المدعو الوحيد.. كنت

قد دعوت معه أربعة آخرين من أعضاء التنظيم.. رجلان وسيدتان.. ورغم ذلك فقد استطاع عادل أن يسيطر على الجلسة كلها.. لم يتحدث كثيراً عن أيام اعتقاله بل كان يمر عليها فى كلمات سريعة ضاحكة كأنه يتذكر رحلة سياحية. لكنه ركز الجلسة كلها على الحديث عن التنظيم وضرورة تطويره ، وعن العلاقة بين الحكومة والتنظيم وبين التنظيم والشعب..و.. و.. إنه لا يستطيع أن يتحرر من طموحه السياسى فى أى جلسة.. إنه يبدو من أسلوب حديثه كأنه يدعونا إلى الانضمام إليه.. وربما تضايقت ساعتها من استغلاله للدعوة التى أقمتها للدعاية لنفسه ولمذهبه ، ولكنى فى نفس الوقت كنت أشفق عليه من أحلامه ربما لأنى أذكى منه ، وإن لم أكن أذكى فأنا أكثر تحرراً منه فلست مرتبطة بأيديولوجية أو تنظيم ، وذكائى وتحررى يؤكدان لى أن لا شىء من أحلام عادل يمكن أن يتحقق.. وفى نفس الوقت أيضاً لا أستطيع أن أنكر إحساسى به كرجل ، ولا أن أكف عن مقاومة إثارة رجولته لأنوثتى حتى ونحن بين الناس.. بل إنى كنت أتنبه أحياناً وأخشى أن أكون قد ركزت نظرى عليه أطول مما ركزته على غيره ، وأخشى أن تكون عيناى قد فضحتانى وحملت نظراتهما معانى ولمحات قد يلاحظها أحد.

ومن يومها وأنا أزداد ارتباطاً بعادل فى نشاطى السياسى وهو دائماً الذى يوفر وسائل هذا الارتباط بأن يشركنى فى كل الندوات السياسية ، ويدفع كل التنظيمات إلى دعوتى لإلقاء محاضرات ، ويحاول إبرازى فى كل تحرك جديد وقد بدأت الصحف تتحدث عنى كثيراً وتقدمنى وتقدم رأيى فى كل مناسبة ورغم أن عادل لم يكن يبدو كأنه هو الذى يحرض الصحف على الاهتمام بى إلا أنى أعلم أن الصحف كلها – حتى الأهرام – قد أصبحت تحت قيادة سرية بعيدة عن الدولة وعن المراكز الرسمية ، وهى قيادة يشترك فيها عادل.

كل ذلك وأنا حريصة على ألا أنسى أبداً أنى امرأة مطلقة.. حريصة على ألا أعرض عود الكبريت لنار الإشاعات.. ومنذ طلقت وأنا معرضة دائماً لمحاولات الرجال.. كل أنواع الرجال.. وبينهم كثيرون من أعضاء التنظيم السياسى بل ومن أفراد المراكز القيادية.. وأغلبها محاولات غير بريئة. وبعضها محاولات بريئة إلى حد التقدم بطلب الزواج. وكنت كما تعودت منذ كنت فتاة لا أغضب من هذه المحاولات ما دامت لا تصل إلى حد الاعتداء.. وما دمت أستطيع أن أوقفها عندما أريد وأحيلها إلى صداقة محترمة.. وعرف عنى أنى لن أتزوج.. وهبت حياتى العامة لبلدى ، ووهبت حياتى الخاصة لابنتى هذا ما كنت أريد الناس أن تصدقه ، وقد صدقوه مع مرور السنوات.. وإن كنت لم أسلم من الإشاعات الخافتة التى تنتقل سراً.. وكل إشاعة تنطلق ثم تنطفئ عندما لا تجد ما يؤيدها.. والاتهامات الخافتة أيضاً.. اتهمت بأنى باردة ، بل اتهمت أيضاً بأنى مصابة بالشذوذ الجنسى ، أمارس الجنس مع النساء.. وقطعاً إنى باردة فعلاً فلا يعقل أن أتحمل أكثر من عشر سنوات وأنا بغير رجل ولا أكون بارد خصوصاً وأنى لست مصابة بالشذوذ كما قال البعض يوماً.

ولكن عادل أصبح مشكلة جديدة بالنسبة لباقى الرجال.. فليس هو وحده الذى يريدنى ، ولكنى أنا أيضاً أريده ، وأصبحت مقاومتى تتعبنى أكثر وتشدنى من أعصابى وتمر بى لحظات أكاد أنهار وأستسلم...

واتصل بى عادل بالتليفون فى عصر ذات يوم وقال :

– هل لو جئت إليك الآن أطرد أم يسمح لى بالدخول ؟

وقلت ضاحكة :

– أهلاً.. تفضل.. الحرس موجود.

ولم يكن فى البيت حراس من الضيوف.. ولكن بابا اشترك معى

فى استقبال عادل ، وجلس معنا فترة يستمع إلى المشروع الذى جاء عادل لعرضه على. ثم تركنا وحدنا.. وماما اكتفت بأن دخلت وصافحت ثم خرجت.. ربما لمجرد أن تثبت لعادل أنى لست وحدى فى البيت. وكانت هذه هى التقاليد التى فرضتها على البيت مع كل زيارة فردية أتعرض لها.

وكان المشروع الذى جاء به عادل يستحق فعلاً هذا اللقاء الخاص.. إنه مشروع إنشاء اتحاد النساء العاملات.. إنها فكرة عادل رغم أنها نسبت إلى عندما تحققت.. وهى فكرة تقوم على أنه ليس هناك نقابات تقتصر على المرأة وحدها. وحتى نقيم للمرأة كياناً بذاته فإننا نستطيع أن نجمع كل العاملات فى اتحاد واحد ابتداء من عاملات المصانع وخادمات البيوت والفلاحات إلى نساء الجامعة والطبيبات والمرضات والمحاميات وربات البيوت.. كل طبقات النساء فى اتحاد واحد. والفكرة قطعاً هى محاولة لإقامة تنظيم ماركسى نسائى واسع وخطر.. لأن الأغلبية فى مثل هذا التنظيم ستكون قطعاً للمستوى الشعبى من العاملات أى طبقة البروليتاريا ولا شك أن عادل يثق فى أنى أستطيع أن أتولى قيادة مثل هذا التنظيم ، ولكن أكثر من ثقته بى ، فإنه اختارنى لأنى معروفة بأنى لست ماركسية بل إن لى مواقف تجعلنى فى منتهى الاعتدال الاشتراكى. وبذلك يستطيع عادل أن يبعد بفكرته عن تهمة الماركسية.

وحاولت أن أعتذر.. قلت لعادل إنى لا أستطيع أن أعطى أكثر مما أعطيه اليوم.. أنا مشغولة.. مشغولة بالجامعة ، وبالتنظيم السياسى ، ثم إنى مقررة هيئة اتحاد المرأة العربية.. وهى هيئة تكونت بعد الانفصال الذى وقع بين مصر وسوريا ، أى أنها فى حقيقتها لم تكن من وحى الاتحاد العربى ، ولكنها كانت رد فعل لفشل الاتحاد العربى.. كانت مجرد مظهر تستخدمه القيادة المصرية فى تغطية هزيمتها العربية ، وبقيت دائماً مجرد مظهر ليس لها أثر فعلى

وخصوصاً أن العلاقات بين الدول العربية خصوصاً الدول التى تحكمها النظم الثورية كانت تسوء وتتباعد ، وأصبحت الاجتماعات التى تدعو لها هذه الهيئة لا تضم أكثر من ثلاث أو أربع دول ، والنساء اللاتى يجتمعن لا يقدمن شيئاً سوى إلقاء الخطب ثم الطواف بشوارع الأسواق التجارية للشراء.. وكانت لبنان هى الزعيمة الفعلية لهذه الهيئة لأن سوق الشراء فيها أوسع وأغنى.

ولم يقبل عادل اعتذارى طبعاً وقبلت مسئولية هذا التنظيم الجديد وقد قررت بينى وبين نفسى أن أنفصل به تماماً عن عادل.. أن أدخل معه فى معركة هادئة فى تكوينه وتوجيهه بحيث لا يكون تنظيماً ماركسياً.

وطال حديثنا.. وتعبنا.. ومد عادل ساقيه أمامه وألقى بظهره على مسند المقعد. وقال وهو ينظر إلى هذه النظرة التى تعلن أنه يريدنى :

– أعتقد أننا نظلم أنفسنا..

قلت وقد بدأت أهب للمقاومة.. مقاومة نفسى :

– إنك تظلمنى بهذه المسئولية الجديدة.

قال وهو يميل نحوى :

– كل منا يظلم الآخر.. إننا نفكر فى تنظيم حياة الناس دون أن نفكر فى تنظيم أنفسنا.. ما رأيك لو بدأنا نبنى تنظيماً خاصاً.. تنظيم كل أعضائه أنت وأنا..

وضحكت ضحكة ترتجف تحت ضغط مقاومتى لأنوثتى وقلت :

– كفانا الليلة تنظيمات.

قال وهو يمد يده ويمسك بيدى :

– إنى أتكلم جد يا سعاد..

قلت :

– ماذا تقصد ؟

قال :

– أقصد أن نتزوج..

وسحبت يدى من يده بسرعة وقمت واقفة وأنا أقول :

– هذا موضوع لا يدخل فى زيارة هذه الليلة..

قال وهو يقوم واقفاً فى مواجهتى :

– يا سعاد اسمعينى وصدقينى ، أنا لم أفكر فى الزواج أبداً.. إنه أسلوب المدنية الإقطاعية فى الجمع بين اثنين.. عملية استيلاء كل منهما على الآخر.. وأنا أؤمن بالعطاء بلا استيلاء.. أعطيك دون أن أستولى عليك وتعطينى دون أن تستولى على.. ولكنى أعرف أنك لا تؤمنين بهذا الكلام ولا تحسين به.. لو كنت تؤمنين به لتغير حالنا منذ التقينا منذ عشر سنوات أيام التحرر الثقافى.. ومن أجلك كفرت بإيمانى وأصبحت أعرض الزواج.

قلت وأنا ابتعد عنه خطوة حتى لا أضعف أمام أنفاسه :

– الزواج عطاء ولم يعد عندى ما أعطيه حتى فى مقابل الاستيلاء.

قال :

– لا أفهمك..

قلت :

– لقد جربت الزواج واكتشفت أن ما يحتاجه من ناحية المرأة هو عطاء الوقت.. هو التفرغ.. وأنا لم أعد استطيع أن أتفرغ للزواج.

قال :

– هذا كلام فاضى.. إنك ستحملين قيادة تنظيم المرأة العاملة فهل ستطلبين من كل امرأة تعمل ألا تتزوج.. هل أصبح مفروضاً على المرأة أن تتزوج أو أن تعمل... لماذا يعمل الرجل المتزوج.. وما الفرق.

قلت فى هدوء :

– الفرق أن المرأة هى البيت والرجل هو الضيف.

قال فى حدة :

– هذه شعارات رجعية.. سعاد لا تجعلى فشلك فى زواجك الأول يقضى عليك بالحرمان.. حرمانك وحرمانى..

ونظرت إليه وبين شفتى ابتسامة هادئة :

– إنى أخفف حرمانى بصداقتنا.. ألا تكفى لتخفيف حرمانك ؟

قال :

– أتقبليننى منافقاً ؟

قلت :

– طبعاً لا..

قال :

– إذن تأكدى أن صداقتنا ترفع من درجة لهيب حرمانى.. إن صداقتنا أصبحت كالبوتاجاز يشتعل بأى لمسة.. وأنا أعرف أنك تتعمدين الهرب من لمساتى. وأنا أيضاً أهرب من لمساتك.. إننا نعيش فى هرب مستمر أحدنا من الآخر.

قلت ضاحكة :

– هذا يجعلنى أسعد بأنى لست أى امرأة بالنسبة لك ، ويجعلك تسعد بأنك لست أى رجل بالنسبة لى.. فلنسعد بمحاولة هرب كل منا من الآخر ونكتفى بلقاء عقلى وعقلك وشخصيتك وشخصيتى.

وبدا كأنه استسلم لليأس وقال مبتسماً ابتسامة هادئة حلوة :

– إنك تجعلين منى شخصية رجعية ترفض الواقع المادى العلمى وتكتفى بالروحانيات.. تكتفى بلقاء ذهنى محروم من اللمسات. وقد قررت الاستسلام لهذه الشخصية.

ثم مد يده يصافحنى وهو يهم بالانصراف قائلاً :

– إلى الغد وكل غد بلا زواج..

ثم نظر إلى يده وهى تحتضن يدى وقال ضاحكاً :

– آسف لقد لمستك..

وضحكت...

وتركنى ليلتها وأنا سعيدة بإحساسى بأنى امرأة يتمناها رجل ، وتركنى وأنا أيضاً معذبة بأنوثتى المحرومة وبوحدتى فى فراشى ، بل إنى تعذبت ليلتها أكثر مما تعودت العذاب ، وكل ما فى جسدى يغلى فوق نار البوتاجاز الذى أشعله عادل.. بوتاجاز الجنس.. حتى إنى هربت من فراشى إلى فراش ابنتى فايزة ونمت بجانبها كأنى ألقى بنفسى فى بحر أمومتى ، لعل إحساسى بأنى أم يتغلب على إحساسى بأنى أنثى.

ولم يكن طلب عادل الزواج مفاجأة لى ، فقد كانت العواطف والارتباطات التى تجمعنا تثير فى تقديرى دائماً احتمال الزواج ، وكنت قد سألت نفسى أكثر من مرة.. هل أتزوجه ؟ وكان عقلى ينتهى بى دائماً إلى الرفض.. لا.. لا يمكن أن أتزوجه.. لو تزوجته فكأنى قضيت على شخصيتى العامة كلها.. شخصيتى السياسية وشخصيتى العلمية.. فنحن الاثنان نعيش فى مجتمع سياسى واحد ولو تزوجنا فإن هذا المجتمع سينسب أحدنا إلى الآخر فى كل شىء.. وفى الغالب سأنسب إليه وأصبح فى نظر الناس ماركسية بحكم أن زوجى معروف عنه أنه ماركسى.

وبعد ذلك فإنى سأتحمل نتائج كل تصرفاته السياسية حتى وإن لم يكن لى فيها دخل أو لو كانت عكس ما أؤمن به.. ثم إن قيادة هذا المجتمع لا يمكن بعد ذلك أن تجمعنا فى مسئولية واحدة.. واحد منا يكفى.. فلا يمكن مثلاً أن ترشحنا القيادة نحن الاثنين لعضوية مجلس الشعب أو حتى لعضوية لجنة من اللجان.

فلا يمكن أن يكون الزوج والزوجة.. العريس والعروسة.. أعضاء فى مجلس واحد أو فى لجنة واحدة.. و.. هكذا انطلق عقلى يصور لى أنى لو قبلت أن أتزوج عادل فكأنى أبيعه كل شخصيتى العامة.. كل حاضرى ومستقبلى.. ونسيت أيامها أنى امرأة فى حاجة إلى هذا الرجل بالذات.. الرجل الذى يثير أنوثتى ويرسم لى صوراً خيالية

كامرأة يمكن أن تتفرغ لحياتها كامرأة.. زوجة.. أم.. ست بيت.. نسيت كل ذلك أو ضحيت به حتى أحتفظ بشخصيتى العامة.. أحتفظ بوجهى الذى أريد أن أبدو به أمام الناس.

ولم تتأثر علاقتى بعادل.. بعد أن رفضت زواجه ، بالعكس اتسعت مجالات العمل بيننا خصوصاً ونحن نشكل اتحاد المرأة العاملة ، وكنت أنا وهو فى معركة تكتيك سياسى وكل منا يحاول أن يخدع الاخر ليصل إلى الوضع السياسى الذى يريده لهذا الاتحاد.. وأعتقد أنى استطعت أن أنتصر عليه وأن أثبت أنى أستطيع أن أكون أذكى منه فى الممارسة السياسية.. فقد قررت منذ البداية أن أجمع فى هذا الاتحاد أغلبية من نساء الطبقة التى تؤمن بالماركسية حتى لو عاشت فترة النفاق لها التى كانت مصر تمر بها ، وعادل لم يكن يستطيع أن يعمل صراحة فى هذا التنظيم النسائى فكان يدفع الآنسات والسيدات المعروفات بماضيهن الماركسى أو بتجاوبهن مع الماركسية ليتقدمن إلى ويطلبن الانضمام إلى الاتحاد ، ولم أكن أرفض أى واحدة ، ولكنى كنت أضعهن دائماً بعيداً عن المراكز الرئيسية إلى أن ضمنت الأغلبية من السيدات اللاتى أثق وأعتمد عليهن وبعدها اخترت أقوى شخصية نسائية من الشخصيات التى أعرف أنها من أتباع عادل ، وعينتها نائبة لرئيسة الاتحاد. وأى نائب لأى رئيس حتى نائب رئيس الولايات المتحدة لا يملك من السلطات إلا مجرد المظهر.. وقال لى عادل بعد أن أعلنت تشكيلات الاتحاد :

- أعرف أنك الست الزعيمة... أشطر زعيمة فى تاريخ الحركة النسائية.

ولم يكن لتنظيم «اتحاد المرأة العاملة» أكثر من الأثر الذى يتركه أى تنظيم يقوم فى خدمة الدولة مجرد تحركات مظهرية.. وقد بدأت القيادة بعد ذلك تكون تنظيماً آخر من داخل الاتحاد الاشتراكى. تنظيم خاص أسموه « التنظيم القيادى » وكان المفروض أن يضم

نخبة المفكرين من أهل الثقة ، وأنه يتكون على نظام الخلايا ، كل خلية تتكون من عشرين عضواً ولا علاقة لها بأى خلية أخرى ، بل تبقى كل خلية كتنظيم سرى.. وكان المفروض أن تجتمع كل خلية لتناقش الأحداث القائمة ثم يعرض كل عضو ما يكون قد وصل إليه من معلومات أو أخبار. ثم يسجل كل ذلك فى تقارير ترفع إلى المركز الرئيس للتنظيم.. أى كانت مهمة الخلية ليس فقط تسجيل آراء أعضاءها ، بل الأهم هو تسجيل ما يحصلون عليه من معلومات.. أى مخابرات ،.. تجسس داخلى.. بوليس.. وقد فوجئت بالزميل حسنين عبد العال وهو مقاول معروف يدعونى إلى مكتبه ويشرح لى قيام هذا التنظيم ويطلب منى الانضمام إلى الخلية التى يشرف عليها.. لم يكن هو الذى اختارنى ولكن القيادة اختارتنى له.. وقبلت خصوصاً وأنى كنت أستريح للزميل حسنين إنه إنسان بلا مبادئ سياسية محددة ولكنه عبقرى فى اتصالاته بالجهات العليا واستطاع عن طريقها أن يصبح من أغنى المقاولين فى مصر.. مليونير.. وهو لا يدخل فى معارك مع أحد ولا يؤذى أحداً ولم يعرف عنه أن له أطماعاً خارج مجال المقاولات.. ورغم أن الخلية كانت تضم شخصيات لها قيمتها إلا أنه كان من السهل اكتشاف أن كل الخلايا لا تضم أحداً بصفته مفكراً بل الصفة الأساسية هى أن يكون منافقاً ، ويكسب من وراء نفاقه كما يكسب الزميل حسنين من المقاولات.

ولم أكن أعلم شيئاً عن الخلية التى انضم إليها عادل ، ولكنى فوجئت به يحدثنى عن الخلية التى انضممت إليها أنا.. وازددت اقتناعاً بقوة مركزه ، لا شك أنه أحد مؤسسى هذا التنظيم.. وأصبحنا بعد ذلك نتبادل المعلومات عما يجرى فى خليتى وما يجرى فى خليته ، كأننا نحن الاثنين خلية قائمة بذاتها.

كل ذلك وعادل لا يحاول شيئاً معى كامرأة.

وأنا لا أترك له فرصة الإحساس به كرجل.

ورغم ذلك..

إنه يريدنى..

وأنا أريده..

وكان قد مضى أكثر من عام على يوم أن عرض على الزواج.. وسافرنا إلى الإسكندرية لحضور اجتماع سياسى. وكنا فى شهر مايو.. بداية الصيف.. فرأيت أن أصحب العائلة معى لقضاء بضعة أيام هناك.. ابنتى فايزة وماما وبابا.. وكنا قد اتفقنا على أن نتناول الغداء فى الكابين الخاص بنا على شاطئ المنتزه ، وبعد أن انتهى الاجتماع السياسى دعوت عادل لتناول الغداء ، وعندما ذهبنا إلى الكابين لم نجد بابا ، كان قد شعر بتوعك فبقى فى البيت ، وبعد الغداء اضطرت ماما أن تأخذ فايزة ويعودان إلى البيت لتكون بجانب بابا.. وأصبحنا وحدنا.. عادل وأنا.. مستلقيان على المقاعد النائمة على شاطئ البحر الخالى من الناس وشجرة كبيرة تظللنا.. وأنا وهو متعبان من ملل المناقشة والاستماع إلى المواضع السياسية التى أثيرت فى الاجتماع.. وبدأنا نتحدث بعيداً عن السياسة.. عن مسئوليتى ومسئوليته. ونضحك ، ضحكنا كثيراً.. ثم بدأت ضحكاتنا تذوب فى خجل ، كل منا يحس بالآخر كامرأة ورجل..

ونصمت ثم نفتعل الكلام لنعود ونختبئ فى الصمت.. وتتعلق عينا كل منا بعينى الآخر كأنه يستغيث به ، ثم نسكت عن الاستغاثة كأننا قررنا أن نستسلم للغرق.. ومد يده وأمسك بيدى وأحسست بأصابعه تزحف فوق أصابعى كأنها تشعل أعواد الثقاب.. واستسلمت أصابعى لأصابعه ، ثم سحبتها منه وأنا أحس بنفسى كأنى أترنح كالفرخة الذبيح.. أترنح أمام ضغط أنوثتى. وقمت من جانبه ودخلت الكابين ووقفت أمام المرآة أتطلع فى وجهى كأنى أستحلف نفسى أن تستمر فى المقاومة.. كأنى أدعو الله أن ينقذنى من نفسى.. وبعد دقائق جاء عادل ورائى.. دخل وضرب باب الكابين

بقدمه فأغلقه ، ودون أن أتكلم أمسك بذراعى وشدنى إلى صدره ، وحاولت أن أتكلم.. أن أصرخ.. فكانت شفتاى بين شفتيه.. لم أستطع أن أتكلم أو أصرخ كنت أضعف من أن أقاوم أو حتى أتظاهر بالمقاومة.

وكان كأنه يسقى الأرض الجرداء بماء الورد.

كل أحاسيسى الميتة تصحو قافزة كأنه قد نفخ فى البوق وعادت الحياة ودعيت إلى الجنة..

وعاد يشدنى إلى الفراش الضيق الصغير الموضوع داخل الكابين.

وحرمان عشر سنوات أعوضه فى هذه الدقائق.. لم أكن أبداً هكذا حتى مع زوجى.. لم أحس بكل هذا الاحساس.. كل هذا التفانى.. تفانى اللحظات.

وقلت لعادل وأنا ما أزال راقدة فوق الفراش الضيق وهو جالس على الحافة يقبل أصابعى :

– دعنى الآن أرجوك.

وجدت نفسى قد نمت..

إنه نوع آخر من النوم.. نوم الشبعان.. ومنذ أكثر من عشر سنوات وأنا أنام جوعانة.

وصحوت.. وتمطيت بلذة الشبع.. فجأة قفزت من فوق الفراش فى ذعر.. كأنى اكتشفت أنى أشبعت نفسى بالسم.. كأن الحريق شوهنى.. ماذا فعلت.. كيف استسلمت.. وكيف أواجه عادل بعد ذلك.. وكيف أعيش.. ولماذا لم أتزوجه ما دام هذا هو ما أريده.. لا.. لا يمكن.. إنى أقوى من أن أدع لحظة ضعف تقضى على كلى.. تقضى على شخصيتى التى تعبت فى بنائها منذ ولدت.

واستعدت كل قوة شخصيتى فى لحظات.

وبدأ عقلى يصبح هو الأقوى.

ووجهى الذى يراه الناس يسيطر على وجهى الذى لا يراه أحد.

ولكنى لم أكن أستطيع أن أعود إلى الاجتماع السياسى وألتقى هناك بعادل فتركت الكابين إلى البيت واتصل عادل بالتليفون بعد أن تأخرت عن الاجتماع ، ورد ت عليه ماما وقالت له كما اتفقت معها أنى بجانب بابا المريض.. وفى صباح اليوم التالى عدت أنا والعائلة إلى القاهرة وضحيت بباقى أيام الاجتماعى السياسى.

ومضى أسبوع وأنا لا أتصل بعادل وأرفض أن أرد عليه عندما يطلبنى بالتليفون.

كان يجب أن أشعره بأن ما حدث شىء كبير لا يمكن أن يمر وكأنه لم يحدث وكأن كل شىء بيننا كما كان.

وعقلى لا يكف عن البحث عن طريق جديد.

ولا أنام..

كأن لحظات نمتها وأنا شبعانة ستحرمنى من النوم العمر كله.

لا شك أن عادل يعتبر نفسه الان صاحب الحق على.. إن الرجل الذى يأخذ من المرأة ولو دقائق يظل يعاملها كأنه صاحب ملك العمر كله.. فكيف أقنعه أن يتنازل عن حقه.. كيف أحرمه من أن يطالبنى مرة ثانية بلقاء الفراش بعد لقاء الاجتماعات السياسية.. ثم.. هل يمكن أن يتخذ عادل مما حدث أداة تهديد وتشهير.. إن الرجل يحب دائماً أن يتباهى بالنساء اللاتى وصل إلى داخلهن.. كل رجل يتمنى أن يعتبره زملاؤه دون جوان.. فما بالك لو استطاع أن يصل هذا الدون جوان إلى شخصية عامة قيادية مثلى.. وصل بالزعيمة إلى الفراش.. هل أخاف.. لا.. لن أستسلم للخوف من عادل.. ثم إنه قطعاً ليس من هذا النوع من الرجال.. إن طموحه السياسى يرفعه عن هذا المستوى.. ليس من صالح السياسى الطموح أن يقال عنه إنه استولى على امرأة.

ولكن الخوف ليس من عادل وحده.. إنى أخاف أكثر من نفسى.. إنى اكتشفت أنى لن أستطيع أن أعود إلى الحرمان والوحدة.. إنى

أخطأت نتيجة هذا الحرمان وهذه الوحدة ، وبعد أن ضعفت مرة فقد يتكرر ضعفى.

والحل ؟

يجب أن أتزوج لأحمى نفسى من الحرمان والوحدة.

وإذا كنت أريد عادل إلى حد أنى ضعفت أمامه فلماذا لا أتزوجه.. لماذا وقد طلبنى للزواج وإنى واثقة أنه لا يزال يطلبنى للزواج.

لا.. قلت إن عقلى يرفض الزواج من عادل.. شخصيتى العامة لا تحتمل شخصيته.. زواجى به فيه قضاء على كل مستقبلى السياسى والأدبى..

وبعد أسبوع قضيته منزوية داخل البيت لا أقابل أحداً ، اتصلت بعادل وطلبت منه أن يأتى إلى فى البيت.. ولا أدرى ماذا كان يدور فى خلد عادل وهو فى طريقه إلى.. ربما تصور أنى سأمنحه نفسى مرة أخرى.. أو أننى سأحدثه عن الزواج.. لا أدرى.. ولكنى استقبلته وأنا واقفة فى منتصف الصالون مرتدية ثوباً أقرب إلى الزى الرسمى ، ولم أجلس حتى لا أتركه يجلس ، وصافحته فى خشونة وبرود ، وقلت له بعد كلمات قليلة :

– عادل أرجو أن تنسى ما حدث.. إن ما حدث لا يمكن أن يتكرر.. لقد قررت ألا يتكرر.

وقال مبتسماً :

– إن ما حدث لم يحدث بقرار فلا يمكن أن تلغيه بقرار..

وقلت فى جدية :

– إن ما صممت عليه هو بالنسبة لى قرار اتخذته.

قال وهو لا يزال مبتسماً :

– إن ما حدث يمكن تصحيحه ، ويمكن أن يوضع فى صورته الكاملة.

إنه يقصد الزواج ، لا.. لا يمكن أن أتزوج عادل.. وقلت له وأنا

أكثر جدية.

– إن ما حدث لا يمكن تصحيحه ، كل ما يمكن هو أن ننساه.. أن نشطبه من حياتنا.. وأرجو أن تساعدنى فى اجتياز فترة حرجة حساسة بالنسبة لى خصوصاً ونحن نشترك معاً فى كثير من أوجه النشاط العام ، إلى أن يتحقق النسيان ، ونعود إلى صداقتنا الطبيعية وتعاوننا العادى.

قال وهو ينظر إلى فى تعجب :

– أليس من حقى أن أقول رأيى ؟

قلت فى حزم :

– أرجوك.. تنازل عن حقك.. آسفة.. إنى متعبة.. بابا يسره أن يجلس معك.

وهممت أن أتركه وحده فى حجرة الصالون ولكنه اتجه نحو باب الخروج قائلاً وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة كأنه واثق أنه يستطيع دائماً أن يصل إلى ما يريده منى :

– أبلغى اعتذارى لبابا أنى مضطر أن أنصرف.

ثم قال وهو يصافحنى وينظر بعينيه اللتين تحرضاننى على الضعف :

– لا تضيعى أجمل ما فى عمرك وعمرى..

وتركنى..

وأنا أفكر فى الزواج..

يجب أن أتزوج حتى أحمى نفسى منه.. ومن الخطيئة.

وتزوجت..

تزوجت الدكتور كمال رمزى..

وهذه قصة أخرى..

٧

أنا التى قررت الزواج من الدكتور كمال، لم يكن هو يفكر ولا خطر على باله أن يتزوجنى، ولكنه كان دائماً معجباً بى إعجاباً صامتاً يعبر عنه فى لمحات وكلمات هادئة تتفق مع شخصيته المحترمة وقيمته كطبيب.. وقد عرفت كمال وعرفت كل عائلته عندما كنا أطفالاً صغاراً بحكم الجيرة وانقطعت الصلات بين العائلتين انقطاعاً تاماً، ومرت سنوات طويلة إلى أن بدأت أسمع عنه كطبيب ناجح وبدأت أنا وأمى نتحدث عنه أحياناً كأثر ناجح من آثار ذكرياتنا.. إلى أن مرضت ماما يوماً ونصحتها صديقاتها بعرض نفسها على الدكتور كمال، وذهبت معها.

ولم أحس نحوه فى لقائنا الأول بأى إحساس إلا استرجاع الذكريات.. وقد كان يكبرنى بحوالى ست أو سبع سنوات، وقد كنت فى طفولتى أحب أن ألعب وأتحدث مع من هم أكبر منى من الأولاد، ولكن كمال كان يختلف عن كل الأولاد بأنه أكثرهم هدوءاً إلى حد الانزواء، ومعروفاً بأنه مؤدب وخجول إلى حد أنه كان متهماً بثقل الدم، ولذلك كانت ذكرياتى معه مجرد صور عابرة ليس فيها ما يجمعنا فى حكاية.

وعندما ذهبت إليه مع ماما استقبلنى بفرحة انطلقت فى لمة

عينيه وفى ترحيبه وهى فرحة خصنى بها وحدى ولم تتسع لأمى، ثم بسرعة أطفأ فرحته وتفرغ تفرغاً كاملاً لدراسة ما تعانيه أمى.. إنه هكذا.. عمله أقوى من عواطفه.. مثلى.. وأنا واقفة بجانبه أقيسه بعينى.. إن بياض شعره يسبق سنه.. وملامح وجهه تغطس فى جديته. وتركيز نفسه فى فكره يجعله ينسى ابتسامته بل ينسى رقته كطبيب.. إنه يقلب أمى بين يديه كأنه يقلب مجموعة من القوارير فى معمل كيميائى.. ووجدت نفسى أنساق إلى جديته فى عمله وأترقب نتيجته كأنى فى انتظار مفاجأة أحد الحواة.

وبعد أن انتهى من الفحص، شرح لأمى مرضها فى تفاصيل دقيقة كأنه يلقى عليها محاضرة علمية.. إنه يؤمن – كما عرفت فيما بعد – بأن المريض يجب أن يرتفع إلى مستوى علم الطبيب بالنسبة لمرضه حتى يستطيع أن ينقل العلاج إلى داخله.. أى لا يكفى أن يستسلم المريض للطبيب بل يجب أن يعمل معه فى علاج نفسه.. وكتب كمال قائمة العلاج ثم قام يودعنا وعادت إلى عينيه لمعة الفرحة وهو يصافحنى، وسألته أمى سؤالاً سريعاً عن أخبار عائلته وأجابها وهو لا يزال محتفظاً بفرحته ثم قال لى :

– إنى أتتبع أخبارك دائماً وأنا فخور بابنة حارتنا..

قلت وأنا أعطيه الابتسامة الروتينية :

– ونحن أيضاً فخورون بابن حارتنا الدكتور كمال..

ولم أهتم به بعد ذلك إلا كطبيب وقد تقدمت صحة أمى فعلاً بفضله، ولهذا أصبح طبيب العائلة كلها، أصبح مسئولاً عن بابا أيضاً وعن فايزة وعنى.. وقد كنت أعانى من تقلصات فى معدتى تنتابنى بين الحين والآخر وتؤلمنى، وكنت قد عودت نفسى التمرد على هذه التقلصات فلا أرقد لها ولكنى أحملها معى وبكل آلامها وأذهب إلى عملى فى الجامعة أو إلى اجتماعات التنظيمات السياسية والنشاط

النسائى، وأكتفى بأن أحمل معى حبوب الدواء التى يقررها الأطباء.. ولم يستطع أى طبيب أن يوقف هذه التقلصات ولم تكن كل هذه الأدوية التى أتناولها سوى مهدئات، وكانت الأزمة تمر وتهدأ معدتى ثم بعد فترة تعود ثانية وتثور فى داخلى التقلصات، وأحس بها فى بطنى كأنها مظاهر تهتف بسقوطى.. إلى أن عرضت نفسى على الدكتور كمال.. وكشف على طويلاً وأصابعه تتحسس جسدى فى خشونة .. لقد كشف على كمال بعد ذلك عدة مرات وفى كل مرة لم أكن أحس إلا بخشونة أصابعه.. وأنا أعرف كثيراً من الأطباء وأسمع عن الكثيرين من الذين يستعملون أصابعهم ساعة الكشف كرسائل غرام، أو كأنهم يضغطون بها على أزرار معينة تثير فى المرأ المريضة إحساسها بأنها أنثى وأن الدكتور رجل.. وما يجرى فى عيادات الأطباء معروف.. ولكن كمال شىء آخر.. إن أصابعه فوق جسدى ثقيلة خشنة كأنها آلات معدنية تنقل دون أن تحس.. وقال فى هدوء وأنا ما زلت ممددة أمامه :

– لا شىء..

قلت وأنا فى دهشة :

– ماذا تعنى ؟

قال فى لهجة الأستاذ :

– إنك تتمتعين بصحة كاملة.. كل شىء سليم إلى حد أنك لست فى حاجة إلى دواء.

قلت :

– ولكن..

وقال يقاطعنى :

– إن ما يحدث لك ليس نتيجة مرض جسمانى.. أى ليس فيك قطعة معينة مريضة... لا الكبد ولا المعدة ولا أى شىء آخر، ولكن ما

تحسين به نتيجة تأثير عصبى.. والأعصاب داخل الجسم كالأسلاك الكهربائية أى ضغط عليها أو أى ضعف يصيبها يمس الجانب الأضعف فى مقاومته.. ومعدتك بالنسبة لباقى جسمك هى الأضعف لذلك فهى التى تتأثر من الضغط العصبى.. وأى دواء لعلاج المعدة سيكون أثره عكسياً بالنسبة للضغط العصبى.. إن أى دواء كمادة دخيلة على الجسم سيزيد الفقرة ضعفاً، ولكن العلاج يجب أن ينحصر فى الأعصاب.. وأعصابك لا تحتاج إلى دواء ولكنها تحتاج إلى تغيير مجال عملها وضعها فى حالة استرخاء.

وعدت أقاطعه كأنى أصرخ :

– تريدنى أن أتوقف عن العمل..

قال فى جدية :

– ليس إلى هذا الحد ولكنى أريدك أن تضعى نفسك فى حالة راحة كاملة بعيداً عن مجال عملك.. أن تعيشى أياماً فى مكان هادئ.. عشرة أيام على الأقل تغيرين فيها كل برنامجك اليومى حتى نوع قراءاتك فلا تقرئى ما يخص عملك بل اقرئى موضوعات لا ترتبط بعملك، ولا تتصلى بزملائك فى العمل اتصل بأصدقاء لا تربطك بهم مسئوليات مشتركة.

قلت :

– إنى لم أشعر يوماً بحاجتى إلى إجازة.. لم أتعود على الإجازات.. إنها تصيبنى بالملل.

قال :

– إن الإجازة ليست دائماً متعة إنها أحياناً دواء.. وقد يكون الدواء مراً ولكنك فى حاجة إليه.

واستمر الدكتور. كمال يشرح لى علم الأعصاب فى محاضرة ربما استغرقت مدة أطول مما استغرقها الكشف، ورفض فى إصرار

أن يكتب لى أى دواء، حتى لا أعتمد على هذا الدواء فأحرم نفسى من راحة أعصابى.. وقد سمعت كلامه وأخذت ابنتى فايزة وسافرنا وحدنا إلى بلدة أبيها عبد الحميد وأقمنا هناك أسبوعاً كاملاً فى البيت الذى يتوسط حدائق الفاكهة الشاسعة.. أيام اعتبرت نفسى خلالها ضيفة على ابنتى فى بيت أبيها.. ولم يكن هو هناك.. كنا وحدنا..

ولا أحد يعرف أنى هناك حتى من أهل المركز أو المدينة حتى لا يزعجونى بإثارة إحساسى كامرأة تحمل مسئولية فى الحياة العامة... وسعدت فعلاً.. استرخت أعصابى تماماً.. وأحسست أنى أعرف ابنتى كما لم أعرفها أبداً وكانت قد أصبحت فى العاشرة من عمرها الذى قضته فى رعاية أمى ثم أقرب إلى أبيها وزوجته منها إلى.

ومضى بعد ذلك عام كامل لم تصبنى أزمات التقلص.. إن كمال طبيب عبقرى فعلاً.

وهكذا كنت أنا وكمال.. إنه مجرد طبيب العائلة.. وكنت دائماً ألمح الفرحة تلمع فى عينيه عندما أذهب إليه مع أحد من أفراد العائلة.. وكان دائماً يسألنى عن بعض الأحداث السياسية التى اشتركت فيها، أو يقول رأياً سريعاً فى كلمة أكون قد نشرتها فى إحدى الصحف فأعرف أنه يتتبع أخبارى فعلاً، ويتتبعها باهتمام متعمد.

إلى أن وقعت فى خطيئتى مع عادل.

وأصبت أياماً بأرق مستمر.. لا أنام.. مع ازدياد أزمات التقلص التى تصيب معدتى.. وذهبت إليه، وبدأ يطبق على نفس نظريته فى علاج الأعصاب.. لا دواء.. وقال وهو يلقى محاضرته التى تعود إلقاءها مع مرضاه :

– إنى أستطيع أن أقرر لك دواء منوماً.. هذا سهل.. ولكنه علاج خطر.. إن المنومات هى مخدرات.. وهى تعرض المريض للإدمان..

والأفضل هو أن يدخل المريض فى مرحلة تحد مع أعصابه.. إن أعصابى ترفض أن تتركنى للنوم إذن لن أنام.. ولن يحدث شىء.. أستطيع أن أقضى الليل فى القراءة أو سماع الموسيقى الهادئة إلى أن تتعب أعصابى من مجهود إيقاظى وتبدأ فى الضعف إلى أن تسترخى تماماً فأنام بلا حاجة إلى مخدرات.. إنه الطريق الصعب... لأن التحدى قد يستغرق ليالى دون أن تنامى. ولكن بمجرد أن تنامى ستعودين إلى حالتك الطبيعية.

وكتب لى كمال اسم دواء منوم وقال :

– أشترى هذا الدواء وضعيه بجانب الفراش وتحديه.. قررى ألا تمدى له يدك.. إلا إذا فقدت المقاومة ووصلت إلى آخر مستوى من الضعف.

وقد وضعت المخدر أمامى فعلاً واستطعت أن أقاومه. ولم أنم.. ليالى كثيرة وأنا لا أنام.. وكنت أذهب كل يوم وآخر إلى الدكتور كمال كأنه أصبح طبيبى النفسى، وقد قلت إنى بعد خطيئتى كنت قد قررت أن أتزوج حتى أحمى نفسى من خطيئة أخرى مع عادل، ولكن حتى بعد ذلك لم أكن قد قررت أن أتزوج كمال.. إنه قرار انطلق فجأة.. كنت كلما ذهبت إليه فى العيادة، وأعاد الكشف على وأضاف المزيد من محاضراته عن علم الأعصاب لا يسألنى أبداً عن أسباب الحالة التى أعانيها.. لم يحاول أن يستغل التجائى واستغلالى له كطبيب أعصاب.. ولكنه كان بعد أن ينتهى من دقائق العلاج يعود ويحدثنى عن آخر ما وصله من أخبار عن نشاطى.

وفجأة خطرت على بالى الفكرة.. لماذا لا يكون هو الرجل الذى أتزوجه.. ووجدت نفسى أقول له وهو يسألنى عن تفاصيل تنظيم اتحاد المرأة العاملة :

– إنه موضوع طويل.. لماذا لا تأتى لزيارتنا لنتحدث فيه.. أنا

أزورك للعلاج الطبى وأنت تزورنى للاطلاع السياسى.

وخيل إلى أن فرحة عينيه ازدادت لمعاناً.. قال ولأول مرة أرى ابتسامته تتسع :

– يشرفنى..

قلت :

– إذن الخميس.. نتناول العشاء معاً.. ويسرنى لو قبلت ماما وأختك سميرة الدعوة، حتى نستعيد ذكريات الجيرة القديمة.

وقد وجهت الدعوة إلى أمه وأخته حتى أبعد نفسى عن الإشاعات وأنا المرأة المطلقة.. أنا عود الثقاب الذى يشتعل من أول لمسة.. ولم أفكر هذه المرة فى حماية نفسى.. ولكنى كنت أفكر فى الزواج واعتقدت أن طريق الزواج يتطلب دعوة الأم والأخت دائماً.

وتركته على موعد..

ونمت ليلتها بعد الليالى الطويلة التى مضت بلا نوم.. نمت بلا مخدر.. بلا حبوب منومة.. نمت وكأنى هدأت واطمأننت على مستقبلى.

وساءلت نفسى لماذا اخترت كمال ورفضت عادل، ربما لأن كمال يعتبر شخصية بعيدة عن الوسط السياسى الذى أعمل فيه، فلا يمكن أن تتضارب شخصيتى مع شخصيته، وليس بيننا فكرة سيطرة أحدنا على الآخر فى التوجيه السياسى أو لاتخاذ موقف سياسى واحد حتى لا نبدو أمام الناس ونحن مختلفان رغم أننا زوج وزوجته.. إن الأسباب التى رفضت من أجلها عادل لا توجد فى كمال.. ثم إن كمال مختلف أيضاً عن زوجى الأول عبدالحميد، إنه ليس كسولاً ولا يعيش بلا طموح ولا يضع متعته الشخصية فوق متعة العمل.. إنه ليس ضحية أوقات الفراغ كما كان عبدالحميد.. بالعكس.. إنه مثلى يضع حياته العامة كطبيب فوق حياته الخاصة.. وهو مثلى ليس فى أيامه فراغ، وهو أيضاً أستاذ فى كلية الطب، كما

أنا أستاذة فى كلية الحقوق.. وهو دكتور وأنا دكتورة.. دكتور فى الطب ودكتورة فى الاقتصاد السياسى، وهو طموح، طموحه علمى وأنا صاحبة طموح سياسى.

بل إننا نتساوى حتى فى حياتنا الخاصة.. لقد سبق له أن تزوج هو الآخر، وطلق منذ أكثر من عشر سنوات ولكنه لم ينجب من زوجته.. ولقد حاولت أن أعرف الأسباب التى أدت به إلى الطلاق، ووجدت إشاعة قديمة تقول إن زوجه كانت على علاقة برجل آخر.. ولم أهتم كثيراً بتقصى هذه الإشاعات ويكفينى أنى عرفت أنها – أى زوجته الأولى – تزوجت بعد طلاقها وأنجبت صبياناً وبنات، لماذا لم تلد منه هو وقد استمر زواجهما أكثر من أربعة أعوام.. هل هو عاقر ليس قادراً على الإنجاب.. لا يهم، فأنا لا أريد أن ألد مرة أخرى، تكفينى ابنتى فايزة وهى وحدها كانت كافية لإشباع غريزة الأمومة فى.

وكل ذلك أقيسه وأزنه والدكتور كمال لم يفاتحنى فى زواج، بل قبل أن يحدث بيننا أى لقاء عاطفى، إننى كالدولة الصغيرة الفقيرة تخطط لأحلامها قبل أن تحصل على رأس المال الذى يحقق هذه الأحلام. ورأس المال الذى أسعى إليه هو الدكتور كمال.

إلى أن جاء لزيارتى..

وجاء وحده بلا أمه ولا أخته، واعتذر بأن أمه مشغولة بأخته، وأخته مشغولة بزوجها... ولا أذكر بماذا اعتذر عنها، ولكنى قدرت يومها أنه ربما يكون قد تعمد عدم اصطحابهما معه حتى يتأكد من السر وراء دعوتى له.. ربما كانت أمه وأخته من نساء المجتمع المحافظ المتزمت القديم اللاتى لا يسمح لهن بالاختلاط بشخصية نسائية عامة مثلى، وهكذا كل الرجال يضع كل منهم أمه وأخته فى مستوى آخر غير مستوى كل النساء اللاتى يتعرفن إليهن.. لا يهم،

وبالعكس، إن من صالح التخطيط الذى وضعته أن تظل أمه وأخته بعيدتين عنا إلى أن أصل معه إلى قرار الزواج.

واستقبله بابا وماما بترحاب وفرحة فهما من مرضاه وقد أصبحا يؤمنان ويثقان به كطبيب، وجلسنا معاً والحديث كله عن المرض والعلاج.. وربما كان هذا هو ما يعانيه كل الأطباء لا يكاد الواحد منهم يجلس فى مجتمع حتى يثير ذكريات المرض وأحاسيس المرض ويتركز الحديث عن المرض.. وكانت ماما تتحدث عن مرض ابنة خالتى عندما قلت لها :

– كفى أحاديث المرض يا ماما.. الدكتور كمال جاء ليتحدث فى السياسة.. هنا سياسة والمرض فى العيادة.

وضحكنا.

وقام بابا وأخذ معه ماما وتركانا وحدنا لنتحدث فى السياسة، ولم يشعرا بمسئوليتهما عن البقاء بجانبى لحراستى وحمايتى من الإشاعات، فكمال ليس من أعضاء التنظيم السياسى ولا من هذا النوع من الرجال الذين تخشى ألسنتهم ويخاف من نياتهم.. إنه طبيب.. والطبيب يتمتع بحقوق للاختلاء بالمرأة لا يتمتع بها الرجل العادى.

وقد اكتشفت فى كمال ليلتها شخصية تختلف قليلاً عن الشخصية التى عرفتها وهو فى العيادة.. إن وجهه مرتاح من معالم الجدية والتركيز التى تبدو عليه وهو يعمل.. وصوته أرق وأهدأ من صوته وهو يلقى المحاضرات على مرضاه.. وشفتاه تنامان فوق ابتسامة صغيرة مستمرة.. ربما أنا أيضاً أبدو مختلفة وأنا بعيدة عن عملى.. بل إنى ليلتها تعمدت أن أكون مختلفة.. بذلت مجهوداً أكبر فى عمل مكياج وجهى وتسوية شعرى واختيار ثوبى.

أردت أن أكون أكثر أنوثة من أستاذة الجامعة وعضو الاتحاد الاشتراكى ورئيسة اتحاد المرأة العاملة.. وكان كل حديثنا مجرد

استعراض سياسي، عرضت عليه كل ما أؤديه من نشاط وكنت صريحة، أو على الأصح كنت أكثر حرية منى عندما أتحدث فى الاجتماعات الرسمية، كأنى كنت أريده أن يعرفنى كما أنا.. ولكنى فى الوقت نفسه كنت أتعمد اختيار جلستى ونظرتى وابتسامتى كأنى فتاة صحبتها الخاطبة لتعرضها على الرجل الذى يمكن أن يتزوج.

وقد كنت أعتقد أن كمال لا علاقة له بالأحداث السياسية التى تجرى فى البلد، ولا يهتم بها، ولكنى فوجئت به ملماً بجميع الأحداث وليس ملماً بها إلمام من يعرف التفاصيل، ولكنه إلمام الرجل المثقف خارج مهنته.. إنه استوعب السياسة كمجرد معلومات عامة وقرأ كثيراً عن المذاهب المختلفة والنظم المختلفة لمجرد لذة المعرفة لا كمحترف سياسي، وكان له رأى ولكنه يعرض رأيه دون أن يدعو إليه.. وقد استنتجت أن رأيه هو الرفض لكل ما هو قائم ولكل ما يجرى، ولكنه لا يعبر عن الرفض فى صيغة الرفض.. ليس ثائراً، هو فقط يبدى رأيه. وتحدثنا طويلاً ، وبعد العشاء قلت له إني أعد بحثاً عن الوضع العربى لينشر فى الصحف ولكنى سأرسله إليه لأعرف رأيه قبل النشر .

والواقع أنه لم يكن يهمنى كثيراً أن أعرف رأيه، ولكنى كنت أبحث عن وسيلة لاستمرار الاتصال به بعيداً عن مهنته كطبيب، وكنت دائماً أجد وسيلة لهذا الاتصال سواء بأحاديث التليفون أو بدعوته إلى البيت، أعترف أنى كنت أنا التى تسعى إليه وليس هو.. إنه فى هذه الأيام لم يدعنى إلى بيته ولا حتى رداً على دعواتى، ولم يقدمنى إلى أمه أو أخته أو أحد من عائلته.. وأنا صابرة. وكانت أحاديثنا تتسع بعد كل لقاء وآخر لتشمل حياتنا الخاصة.. أحاديث الطفولة.. وأحاديث الشباب ، والجامعة والسنوات التى قضاها فى لندن للدراسة.. ووصلت إلى أن حدثته عن قصة زواجى الأول وأسباب فشله حتى أغريه بأن يحدثنى عن قصة زواجه وفشله هو

الآخر.. ولكن أبداً.. إنه لا يشير إلى زوجته الأولى من قريب ولا من بعيد، وتجرأت مرة وقلت له :

– كلانا فشل فى تجربة الزواج..

ووجدت وجهه وقد تجهم وابتلعت شفتاه ابتسامته وقال فى صوت عميق :

– الفشل كلمة كبيرة.. لم نفشل ولكننا لم نوفق..

ولم أحاول بعدها إثارة موضوع زوجته الأولى، وطبعاً لم أسأله لماذا لم ينجب منها، ولكن لا شك أن هذه اللقاءات بدأت تقرب بيننا وتنقلنا إلى عالم أوسع من عالم مجرد التعارف والصداقة، نظراتنا تتطور، ابتساماتنا تتطور.. ولمساتنا البريئة تتطور.. وعقلى لا يكف عن التخطيط للوصول إلى الاستيلاء عليه.. إلى الزواج.. إلى أن كان يوم وافتعلت المرض.. ادعيت أن أزمة التقلصات التى تصيبنى قد عاودتنى.. وذهبت إليه فى العيادة.. وكانت المرة الأولى التى أذهب فيها إلى هناك بعد عام كامل قضيناه فى لقاءات التليفون ودعوات العشاء.

واستقبلنى وعيناه تلمعان بالفرحة التى تعودتها، ولكنى بعد أن رقدت على سرير الكشف لم تختف فرحته فى معالم جديته كما تعود، ظلت الفرحة تلمع من فوق ابتسامته مرحة، ولم أحس بأصابعه خشنة وهى تتحسس بطنى وخصرى وصدرى كما عرفتها، ولكنها أصابع رقيقة ناعمة تمر على جسدى كأنها تتبادل معه القبلات.. وبعد أن أتم الكشف لم يبدأ فى إلقاء محاضرته على المريض كعادته قال مبتسماً :

– دائماً لا شىء.. ولا دواء.. مجرد أعصاب.

قلت وأنا أبتسم فى خفر كأنه اكتشف خداعى :

– هل ستنصحنى بإجازة أيضاً ؟

قال مبتسماً :

– لا.. هناك علاج أقوى.. أن تملئى وحدتك، إنك كالإناء الفارغ.. معرضة دائماً لسقوط أتربة تؤثر فى أعصابك.

قلت وأنا أبدو أشد خفراً :

– وكيف أملأ وحدتى.. بماذا تنصحنى ؟

قال :

– بالزواج..

قلت وأنا أدعى الدهشة كأنى فوجئت :

– ليس عندى للزواج إلا أوقات الفراغ.. لا أستطيع أن أعطى أكثر. وليس هناك رجل يتزوج وهو مكتف بأوقات الفراغ.

قال وهو يساعدنى على القيام من فوق سرير الكشف :

– قد تجدين رجلاً لا يمتلك هو الآخر إلا أوقات الفراغ ليعطيها لك.. قلت لمجرد استدراجه حتى يفصح عن نياته :

– لا يكفى أن أقرر الزواج.. إن الزواج قدر أو حادث يصادف الإنسان.

قال ضاحكاً :

– إنى أصفه لك كدواء وسأكتب لك الروشتة.

ومال على مكتبه وشد ورقة مما يسجل عليها الأدوية التى يصفها للمرضى وكتب عليها كلمة واحدة ثم ناولها لى.

وكان قد كتب.. تزوجى.

وانطلقت الفرحة فى كيانى كله.. لقد وصلت، نجحت الخطة.. ولاحظ فرحتى وأنا أكاد أغرق كلى فى ابتسامتى فاقترب منى وأمسك كفيه بكفى وقال فى صوت هادئ جاد :

– كنت أعلم أنك موافقة... إنه دواء لك ولى.. ثم ابتسم قائلاً:

– من اليوم سيكون الكشف فى البيت.. وأنت عارفة أنى أغلو عندما أذهب إلى البيت .. أكلف كثيراً.. قلت وأنا أنظر إليه بكل عينى

نظرة فيها من الامتنان والشكر أكثر مما فيها من حب كأنه ساعدنى على تحقيق خطتى التى وضعتها لحماية نفسى :

– أنت غال على دائماً..

شدنى إليه وأخذنى إلى صدره وقبلنى..

إنه يقبلنى فى العيادة.. إنه كباقى الأطباء الذين يقبلون مريضاتهم فى العيادة، ومن يومها وأنا أغار عليه وهو يعمل فى عيادته أكثر مما أغار عليه وهو خارجها.

وبعد يومين جاء لزيارتى فى البيت ومعه العائلة كلها.. أمه وأخوه مدحت وزوجة أخيه وأختاه سميرة وعفاف، وزوجا أختيه وعدد من أولاد العائلة، وقال ضاحكاً :

– جئت بالعائلة كلها فى طرد واحد.

قلت منافقة :

– تقصد باقة واحدة..

وحددنا موعد كتب الكتاب فى الخميس التالى فى اجتماع يضم العائلتين فقط وأقل عدد من العائلتين، بعكس زواجى الأول، لم أكن أريد حفلاً كبيراً ولا أن أستغلها مناسبة لإعلان أهمية شخصيتى السياسية بدعوة القيادات والوزراء بل إنى طلبت من الرقابة التى كانت مفروضة أيامها على الصحف أن تمنع نشر الخبر.. كنت أتصور أن الجمهور قد تعود على بلا زواج.. شخصية نسائية ضحت بطبيعتها التى تتطلب الزواج لتهب نفسها للوطن ولمبادئها كالراهبة التى تهب نفسها لله.. وكنت أخاف أن يؤثر إعلان الزواج على هذه الشخصية وتهتز صورتى أمام الجمهور لذلك طلبت منع نشر الخبر، وكمال وافق فهو يعتقد أن الزواج إجراء شخصى لا يهم الناس ويكفى إشهاره بين أفراد العائلتين، ولكنى كنت حريصة قبل يوم الزواج أن أذهب فى زيارة خاصة إلى القيادة لأبلغها الخبر

وأستاذنها كأنى من أفراد الأسرة المالكة التى تحكم مصر، أو هكذا قدرت نفسى وأنى يجب كى أتزوج أن توافق العائلة السياسية ويوافق جلالة الرئيس.

وأصبح فى فراشى رجل..

وربما لم أجد مع كمال ما وجدته فى لقائى العابر مع عادل من حرارة الأنوثة والانفعال الجسدى وذلك لاختلاف دوافع لقائى مع كل منهما. التقيت بعادل لأنى كنت أشتهيه كامرأة جائعة، والتقيت بكمال لأنى كنت أخطط لمستقبلى وأرسم صورة جديدة لنفسى.. ورغم ذلك كنت سعيدة وأنا مع كمال فى فراش واحد يلمسنى ويتصرف معى كأنه يطبق آخر النظريات العلمية الحديثة.. كنت سعيدة بإحساسى أنى قد أصبحت امرأة كاملة لا ينقصنى زوج.. لست عانساً ولا مطلقة.. سعيدة لأنى أخذت رجلاً يشرفنى وأطمئن إليه.

ولم نحدد شهر العسل ولا منحنا أنفسنا إجازة، فكل منا مرتبط بعمله، وكل منا لا يريد من الآخر أكثر مما تعطيه أوقات الفراغ.. وكنت قد تركت خبر زواجى ينتشر بين زملائى وزميلاتى فى الجامعة وفى مجالات العمل السياسى.. ولم يثر الخبر أى ضجة أو أى قصة ربما لأن الدكتور كمال لم يكن شخصية عامة تثير ضجة، وربما لأن من يعرفونه يعرفون عنه الجدية والقيمة العلمية والسمعة الطيبة، لم تعرف عنه أبداً أى قصة نسائية.. كان زواجى زواجاً محترماً أثار من حولى نوعاً من الحسد الصامت، ولكنه كان صدمة بالنسبة لعادل، وقد صادفنى فى أحد مكاتب الاتحاد الاشتراكى وقال لى هامساً وصوته يرتعش:

كنت أعتقد أنك ترفضين الزواج لا أنك ترفضيننى أنا شخصياً.

قلت وأنا أبتسم ابتسامة كبيرة كأنى أعطيه رشوة:

– لم أرفضك ولكننا لم نلتق لقاء زواج..

قال وهو يهمس:

– ولكن لماذا.. لماذا تتزوجين؟

قلت ضاحكة:

– لأكون تنظيماً خاصاً لا يخضع للوائح ولا يتدخل فيه باقى الأعضاء.

وابتعد عنى بعد أن نظر إلى نظرة طويلة وبين شفتيه ابتسامة ساخرة كأنه يريد أن يقول إنه لم ييأس منى وإنى لن أفلت منه.

وكان عادل منذ يوم خطيئتنا وبعد أن أعلنته بأنها خطيئة لن تتكرر وهو يطاردنى بأسلوب خاص وأنا أقابل مطاردته بأسلوبى الخاص أيضاً.. فهو لا يتعمد أن يصارحنى بشىء.. لا كلمة غزل، ولا لمسة اشتهاء.. إنه حريص على أن يبدو قوياً لا يريد من لا تريده، كأنه دون جوان يدعى الغرور، وهو فى الوقت نفسه يسعى لوضعى فى لحظة ضعف كهذه اللحظة التى استسلمت له فيها واستسلمت لحاجتى إليه، فهو يحرص دائماً على أن أكون فى كل الاجتماعات خصوصاً الاجتماعات التى تتم خارج القاهرة وهو دائماً يحاول أن ينفرد بى وأن يخلق مناسبة هذا الانفراد، لنكون وحدنا فتضعف أنوثتى أمام رجولته. وكنت أنا حريصة على ألا أبدو كأنى أقاومه، وحريصة على أن أحتفظ به دائماً بجانبى ولكن ليس وحدنا، فهو كما قلت قد أصبح شخصية لها نفوذ فى التنظيم أنا فى حاجة إلى استغلالها لصالح مستقبل حياتى العامة فكنت أستجيب لكل دعواته إلى أن ألمح الطريق الذى يؤدى بى إلى الانفراد به فأجرى إلى طريق آخر.. هكذا كنا.. كل منا يفهم الآخر ويفهم أسلوبه وكل منا مرتبط بالآخر مع هذا التباعد.

وقد حرصت بعد الزواج أن أدعو زملائى وأصدقائى إلى بيتنا الجديد على دفعات صغيرة لأعرفهم بزوجى كمال.. ودعوت أيضاً

عادل.. وكان زوجى لا يضيق بهذه الدعوات كما كان زوجى الأول يضيق بها، بل كان يجلس معنا ويشترك فى مناقشاتنا وفى أحيان كثيرة كان يبدو أنه أكثر إطلاعاً على الأحداث السياسية من كثير من المحترفين.. محترفى السياسة، وكنت ألاحظ أنه يتعمد إخفاء رفضه لكل ما يجرى فى مصر.. وهو الرفض الذى أعرفه عنه وكان يعبر عنه أحياناً فى جلساتنا الخاصة، ولكنه أمام المدعوين كان يعرض آراءه فى صيغة دبلوماسية لا تعبر عن رأيه.. إنه بعلمه وذكائه كان يعلم أن الجبن والخوف مفروض عليه كما هو مفروض على كل مثقف.. وكان هو الآخر يدعو أصدقاءه الأطباء وزوجاتهم ليقدمهم إلى، ولم يكن الحديث فى هذه الدعوات يدور حول الطب والمرضى وأخبار المستشفيات، ولكنه كان يتجمع بسرعة لينحصر فى السياسة والأحداث الوطنية، ربما لأن شخصيتى السياسية كانت تبعدهم عن إحساسهم المهنى وتغلب إحساسهم الوطنى.. والواقع أن مجرد وجودى كان يجمع حولى كل الاهتمام حتى مع وجود زوجى كمال، وهى ظاهرة لم أكن أهتم بها أيامها ولا أحسب لها أى حساب.

إلى أن فاجأنى عادل بالخبر المثير..

لقد قررت المراكز العليا ترشيحى لعضوية مجلس الأمة.

ولا شك أن كل تاريخى السياسى ثم مركزى كدكتورة فى القانون وأستاذة فى الجامعة ثم شخصيتى التى أثبتها وركزتها كل هذا العمر الطويل. كل ذلك يرشحنى لعضوية مجلس الأمة.. وأنا أريد وأتمنى أن أكون عضوة مجلس الأمة.. وقد كنت أعرف نتيجة دراساتى أن مجلس الأمة هذا لا يساوى شيئاً.. ليس له قيمة رئيسية لا فى قيادة البلد ولا فى التأثير على الأحداث.. إنه أقرب إلى مكتب من مكاتب التخديم.. أعضاؤه خدامون ومسئوليتهم هى إحالة باقى أفراد الشعب إلى خدامين، ولكننا لا نزال نعيش بأطماعنا وأحاسيسنا فى أيام ما قبل

الثورة عندما كان مجلس النواب يمثل الطبقة الحاكمة ويمثل المعركة بين الأحزاب التى تحكم وتسعى إلى الحكم، ولذلك كان لأعضائه قيمة، وتحت تأثير هذه الصورة القديمة لا يزال الكثيرون يطمعون فى أن يكون أعضاء فى المجلس حتى ولو لم تعد لهم قيمة حقيقية.. وأنا أخضع لهذا التأثير.. الفرحة بلقب ومظهر عضو مجلس النواب.. آسفة.. أقصد مجلس الأمة.

وكان يجب أن أستشير زوجى كمال قبل أن أقبل هذا الترشيح، ولكنى قبلت قبل أن أستشيره.. قبلت فوراً.. وعندما أبلغته بعد أن قبلت ابتسم ابتسامة ساخرة وسكت.. إنى أعلم أنه رافض لكل ما يجرى فى البلد، ولكنه مستسلم فى سخرية لكل ما يجرى بما فيه ترشيح زوجته للمجلس.

وكلنا يعرف أنه ما دامت القيادة قررت أن يكون فلان عضواً فى مجلس الأمة فقد أصبح عضواً فى المجلس.. إنه فى حقيقته تعيين. لا ترشيح ولا انتخابات. ولكن.. كلنا يعرف أيضاً أن الذى اختارته القيادة يجب أن يبذل مجهوداً كبيراً فى تغطية مظاهر الانتخابات حتى تبدو كأنها انتخابات لا تعيين. والقيادة تتعمد أحياناً أن تترك منافسين فى الانتخابات حتى تستكمل مظهر الانتخابات، وحتى تقلل من نسبة الفوز بالتزكية لتغطى تهمة التعيين، وأحياناً يحدث فى بعض الدوائر أن يرشح أحدهم نفسه دون اتفاق مسبق مع القادة ربما لجهله بحقيقة أسلوب الحكم فى مصر، أو ربما تحدياً لهذا الأسلوب، وقد فوجئت أنا بأن وجدت مرشحاً آخر أمامى لم تبلغنى القيادة به قبل أن يرشح نفسه.. وهو مرشح لا يستهان به.. إنه ليس نكرة كاملة ولكنه نصف نكرة.. وهو الأستاذ محمود عبدربه المحامى وقد سبق أن كان له نشاطاً فى الاتحاد القومى والاتحاد الاشتراكى، وكان من الشخصيات المتهمة بالاستغلالية والانتهازية وكان يكسب

كثيراً وكل قرش يكسبه له قصة مخجلة.. وكان فى الوقت نفسه على اتصال بكثير من مراكز القوى ولم يحدث أن سجن أو اعتقل أو أصيب بأى أذى.. ربما كان من المخابرات.. لا أدرى.. ولكنى قررت أن أفضحه أمام الناخبين، لولا أن جاءنى عادل وطلب منى أن أعدل عن عملية فضحه وأكتفى بتحديه باتصالاتى بالناخبين ومناقشته سياسياً، وصرخت فى وجه عادل :

– أنت تعرف أنه قذر..

وقال عادل وهو يتحدث بلهجة الذى عاش عمره داخل تنظيمات سرية :

– أعرف.. ولكن قذارة فرد قد تعبر عن قذارة النظام كله..

قلت فى عصبية :

– هل القيادة هى التى دفعته إلى ترشيح نفسه ؟

قال :

– القيادة ليست دائماً فرداً واحداً.. إنهم مجموعة أفراد قد يكون لكل منهم غرض خاص به، واطمئنى أنه لم يرشح مباشرة ولكنهم تركوه يرشح نفسه.

وعشت معركة انتخابية عنيفة تستنزف أيامى كلها وعادل دائماً معى أو يرسل إلى من يكون معى.. كنت أحياناً أعيش فى دائرتى ثمانى عشرة ساعة فى اليوم وأعود إلى زواجى محطمة من التعب لأرقد على فراشنا ساعتين أو ثلاثاً لأصحو إلى الدائرة.. إنى يجب أن أثبت قدرتى على أن أعطى كل مظاهر الانتخابات..

يجب أن أطمئن إلى مواقف ضباط البوليس ونياتهم، يجب أن أطمئن إلى تشكيل اللجان الانتخابية، ويجب أن أقدم نفسى إلى كل بيت وأن أكسب زغرودة من كل امرأة وتصفيقة من كل رجل، وكنت ألقى فى اليوم الواحد أكثر من خطاب سياسى وإصلاحى، وأشرب

أكثر من عشرة فناجين قهوة وعشرة أكواب شربات.. وأقدم الخدمات والأمانى.. والتنظيم يدفع كل المصاريف والنفقات.. إن التنظيم هو الحزب الذى أمثله حتى لو كان يمثله معى المرشح الآخر، فيجب أن يدفع هو.

وعرفت طبعاً فى دائرتى بأن زوجة الدكتور كمال رمزى.. وكنت فى زيارة إحدى عائلات الدائرة، وكان رجل العائلة مريضاً وطلبت منى زوجته أن أتوسط لها لدى زوجى الدكتور حتى يعالجه.. وبسرعة أخرجت من حقيبتى بطاقة تحمل أسمى وكتبت عليها : «رجاء الاهتمام ورعاية حامل هذه البطاقة» ووقعت..

ورفض زوجى الدكتور كمال استقبال حامل البطاقة.

واعتذر له التمرجى صراحة، وعندما أصر الرجل المريض وزوجته على مقابلة الدكتور، طردهما التمرجى بعنف وقسوة.

وكانت هذه هى بداية الهوة التى أسير إليها..

هوة الفشل..

٨

عندما رفض زوجى الدكتور كمال علاج الناخب المريض وطرده التومرجى هو وزوجته من العيادة ، قامت ضجة فى الدائرة كلها وعادت إلىَّ زوجته ووقفت أمامى فى تحد واستخفاف قائلة :

– يا أختى أنا كنت مستعدة أدفع الفزيتة.. إنما يظهر أننا لسنا على قدر المقام العالى !

ثم انطلقت بين الناخبين تصرخ وتشهر بزوجى كمال وتتهمه أنه يرفض أن يمد يده بالعلاج لأفراد الشعب وتبالغ فى سرد تفاصيل طرد التومرجى لهما وتروى أكاذيب.. أعطيته عشرة قروش ومافيش فايدة.. عشرين قرشاً وبرضه مافيش فايدة.. ولا أستطيع أن أدفع أكثر فطردنى ودفعنى على السلم حتى كاد عمكم الحاج خليفة المريض الغلبان يقع على رأسه ويموت فدى لسيادة الدكتور وتومرجى سيادة الدكتور..

واستغل خصمى فى الانتخابات الحادث أبشع استغلال وأطلق شعاراً يردده الناس « إذا كان هذا هو الزوج فما بالكم بالزوجة » وانطلقت الكلمات المسمومة تحيط بى.. فأنا رجعية.. وأنا لا أؤمن بالاشتراكية.. وأنا من الإقطاعيين.. و.. و.. ثم بدأت من يومها حملة سرية ضدى تمس حياتى الخاصة ، وكلها أكاذيب.

وبذل عادل وبقية أفراد المكتب الذى كنت قد أقمته فى الدائرة كل جهدهم وتكتيكهم الانتخابى فى صد هذه الحملات وأطلقوا فى مواجهتها حملة تشهير عنيفة ضد محمود عبد ربه المحامى خصمى فى الانتخابات.. وأنا أكاد أموت من السخط والقرف فإنى لم أكن أنتظر أن تصل الحملة الانتخابية.. إلى هذا الحد من القذارة.. وأنا الخاسرة.. إن التشهير برجل لا يمكن أن يصل إلى سهولة التشهير بامرأة ، وهم يشهرون بى ، إنهم يقتلوننى بالإشاعات والأكاذيب ، ويجب أن أنسحب قبل أن يموت كل ما لى من ماض ومستقبل سياسى ، فكرت فى الانسحاب فعلاً ، ولكنى لم أحاول أن أنفذ الفكرة وحملت سخطى وقرفى وذهبت بنفسى إلى الدكتور عثمان وهو صديقى قبل أن يكون صديق زوجى وعدت به إلى الدائرة ، إلى الناخب المريض ، ووقفت معه وهو يتولى علاجه ، وأخذت أدافع عن زوجى بكذبة أنه كان يجرى عملية جراحية لمريض آخر ولم يستطع أن يتفرغ لناخبى العزيز.

وربما بدأت الدائرة يومها تهدأ والحملة تخف فى أوائل الليل ، ولكنى لم أهدأ أنا.. دمائى تغلى.. واجتمعت بعادل فى المكتب الانتخابى وقلت له وأنا أكاد أصرخ وأبكى :

– أنت أكدت لى أن الدائرة ستكون لى.. بلغ الذين أكدوا لك أنى إما أن أفوز بالتزكية أو سأعلن انسحابى غداً.. لم أعد أستطيع أن أعيش هذه المعارك القذرة.

وخيل إلى أن عادل ينظر إلى فى شماتة.. عيناه اللتان كنت أضعف أمامهما أصبحتا تقززانى.. إنه شامت فى لأن السبب فى كل ما يحدث لى هو الرجل الذى اخترته زوجاً وفضلته عليه ، وقال وبين شفتيه ابتسامة تعبر عن شماتته :

– الحقيقة الدكتور كمال غلطان.

وصرخت :

– حتى لو كان قد أخطأ.. ما ذنبى أنا حتى يقع خطؤه على دماغى.

وقال عادل باستهتار :

– اطمئنى الدائرة لك..

وقلت ساخطة :

– لا أريدها..

وتركته دون تحية وأخذت طريقى عائدة إلى البيت وأنا أحاسب نفسى.. إنى لم أعد كما كنت.. لقد كنت أحتمل مثل هذه المعارك وما هو أعنف منها.. قضيت كل صباى وشبابى فى معارك.. صحيح أنها كانت معارك حول أهداف صغيرة تافهة كترشيح نفسى فى لجنة ، أو للوصول إلى قيادة إحدى الهيئات.. ولكنها كانت معارك.. ولكن يبدو أننى كبرت فى العمر.. عجوز لم تعد تحتمل.. ربما لأنى أصبحت الآن فى وضع أخاف عليه وأحرص على أن أحتفظ له بمظاهر الاحترام ، إن الإنسان يشيخ كلما كبر مركزه.. شاب فى العشرين يصبح فى عقلية الستين وفى إحساس الستين لو وصل إلى مركز وزير أو رئيس جمهورية مثلاً.. وأنا شخت لأنى أصبحت صاحبة مركز.. وأصبحت أتعالى على المعارك وأتعفف عن النزول إلى مستوى المهاترات الشعبية.. أنا رئيسة.. أنا زعيمة.. ويجب أن أستقبل وأن يوجه إلى الكلام كرئيسة وكزعيمة..

وكانت الساعة قد وصلت الواحدة صباحاً عندما وصلت إلى البيت.. ووجدت زوجى كمال نائماً فى فراشنا.. وكان المفروض أن أتركه نائماً.. إنها مسئولية الزوجة أن تحرص على راحة زوجها وتتركه ينام ويستريح.. ولكنى لم أستطع.. وأخذت أناديه وأنا واقفة بعيداً عن الفراش.. كمال.. كمال.. وعندما لم يستيقظ اقتربت

وأخذت أهزه بيدى.. وبمجرد أن فتح عينيه انطلقت أحاسبه كأنه طفل صغير أو كأنه موظف صغير عندى :

– عملت كده ليه ؟

وفرك عينيه بأصابعه حتى يوقظ نفسه وعاد ينظر إلى وربما أدهشه ما رآه على وجهى من ثورة وسخط وقرف فابتسم ابتسامة هادئة كأنه يسكب على رأسى كوباً من الماء البارد وقال من خلال ابتسامته :

– لابد أنك تقصدين الرجل الذى أرسلته لى ورفضت أن أراه.. أنت تعرفين أنى لا «أستقبل مريضاً بلا موعد...

وصرخت :

– إذن اتفق مع الله على أن يحدد موعداً لحوادث السيارات ، وللإصابة بالأزمات القلبية ، ويعلن مواعيد محددة للموت.

وقال وهو لا يزال يبتسم :

– إنه مريض لا يزال بعيداً عن الموت.. وحتى لو كنت قد طلبت له موعداً كنت سأرفضه..

قلت كأنى أتحداه :

– لأنه من ناحيتى.. لأنك لا تريد أن تساعدنى.

قال فى برود :

– لا.. ولكن لأنه من دائرتك الانتخابية ولأنى أعلم أنه لا يهمك كمريض ولكن يهمك كناخب وترسلينه إلى كرشوة تقدمينها إليه وأنا لا أقبل أن أكون رشوة توزعينها على الناخبين.. ثم إن فى دائرتك ألف مريض على الأقل ولو بدأت بالكشف على واحد فيجب أن أكشف على الجميع وإلا حرموك من أصواتهم وسقطت فى الانتخابات.

ثم إننا تعودنا أن يترك كل منا الآخر لعمله.. لا أنا أتدخل فى

عملك وأفرض عليك مواقف أحددها لك أو أطلب منك أن توصى أحداً من الوزراء أو القادة بشىء ، وأنت أيضاً ليس من حقك أن تتدخلى فى عملى أو تفرضى على مريضاً أو حتى توصينى على مريض دون أن أكون أنا حراً فى قبول أو رفض هذه التوصية.

وفوجئت ، فإنى لم أتعود أن يكلمنى كمال بهذه اللهجة.. إنه يكلمنى كأنه أستاذ.. وقلت وأنا أحاول أن أستمر فى تحديه :

– إننا نعيش معاً.. حياتنا كلها مشتركة.. وكل منا يجب أن يكون للآخر عندما يحتاج إليه و...

وقاطعنى وصوته أصبح أعلى من صوتى :

– إسمعى إنى لا يمكن أن أستسلم لأى خطأ حتى لو كان خطأ زوجتى.. وأنت أخطأت فى تقديم نفسك للناخبين.. ليس من مصلحتك أن تقدمى نفسك كزوجة طبيب معروف.. كان من الأشرف أن تقدمى نفسك كصاحبة مشاريع فبدلاً من أن تعديهم بأن يتولى زوجك علاج مرضاهم تعديهم بأن تبنى لهم مستشفى أو مصلحة أو عيادة شعبية.

وصرخت :

– لا أقبل أن أتلقى دروساً انتخابية منك.. إنك لم تدخل انتخابات فى عمرك ولا تعرف كيف تتعامل مع الناخبين.. ويظهر أنك لا تعرفنى حتى بعد أن تزوجتنى.

وقال وابتسامته تحمل لوماً صامتاً :

– إنى لم أتزوجك لأنى عرفتك كنائبة أو كأستاذة أو كرئيسة جمعية ولكنى تزوجتك لأنى عرفتك كسعاد.. وأنت أيضاً أرجو ألا تكونى قد تزوجتنى لأنك عرفتنى كطبيب ولكن لأنك عرفت كمال.. وإذا كنت قد تزوجت الطبيب فاتركى الطبيب ينام فهو فى حاجة إلى النوم أكثر من المال.. كمال يمكن أن يضحى براحته من أجلك ولكن

الطبيب لا يمكن أن يضحى براحته إلا من أجل مرضاه.

وأدار ظهره لى وادعى النوم.

ولم أحاول أن أستمر فى النقاش.. أنا أيضاً متعبة وأكاد أنهار من التعب وربما تمنيت ليلتها لو مد كمال ذراعيه وضمنى لأستريح فوق صدره.. أو لو تحسسنى بيده ليدلك أعصابى ويعود بى إلى سعاد.. سعاد المرأة التى تحتاج إلى الراحة بعد يوم متعب.. ولكن الدكتورة سعاد عضو مجلس الأمة ضحت بسعاد المرأة.

وقد صحوت فى اليوم التالى وأنا مقتنعة بأن كمال على حق.. ليس من حقى أن أستغله فى الانتخابات دون أن أتفق معه.. ولكنى لم أعتذر له ولم أحاول أن أسترضيه حتى كزوجة ، ولكنى أخذت أرسم له صورة جديدة.. إنه أقوى منى.. وهو يعيش معى كأنه يعطينى لا كأنه يأخذ منى.. ولا يبدو أنه يهمه كثيراً أن أنجح فى الانتخابات وأكون نائبة ، ربما كان يعتقد أن كل ذلك ما هو إلا لعب عيال.. كل هذه الانتخابات والجمعيات والهيئات والمناصب كلها لا شىء إلا قطع من لعب الأطفال يلقيها الحاكم ليشغل بها الأطفال ويسكت صراخهم ويستريح من دوشتهم.. وبمعنى آخر لن أستطيع السيطرة عليه.. لن أكون أنا الزعيمة أو القائدة بالنسبة له.. ولكن لا يمكن.. أبداً.. يجب أن أستولى عليه كله.. تزوجته لأستولى عليه.

ورغم ذلك فإنى لم أكد أصل إلى الدائرة حتى وجدت نفسى أطبق نصائحه وأكرر كلماته ، وخطبت فى أهالى الدائرة وقلت لهم إنه يجب أن يكون للدائرة أطباء خصوصيون ، ومستشفى خاص ، وأجزاخانات خاصة ، بدلاً من أن نستجدى الأطباء حتى لو كان من بينهم زوجى ، ونستجدى السراير فى المستشفيات الأخرى.. و.. و.. وقد حددت يومها فعلاً موعداً مع وزير الصحة ، ومع وزير الشئون الاجتماعية ووزير الأوقاف وكل الهيئات التى يمكن أن تتبرع لبناء

مستشفى أو مصحة فى دائرتى.. ولكن لا المستشفى ولا المصحة بنيا حتى اليوم.. كان كلاماً.. وربما لأنى فزت بالتزكية.

جاء عادل إلى مكتبى فى الدائرة وقال وعلى شفتيه ابتسامة مغرورة :

– انتهت المشكلة.. عبد ربه سينسحب.

ولم أصدقه.. كذبت كل ما قاله لى فقد كان عبد ربه قد بذل فى الانتخابات حتى يومها جهداً كبيراً كلفه الكثير من التعب ومن المال أيضاً وكان قد وصل من البذاءة والوقاحة الانتخابية ما لا يسمح له بالتراجع.. ولكنى يومها بدأت ألاحظ أن نشاط لجان عبد ربه قد بدأ يخف كأنه قد بدأ فى خطة انسحاب بانتظام.. فى اليوم التالى أعلن عبدربه انسحابه ، ولم يلق يومها خطاباً.. ولكنه أخذ يمر على بيوت الدائرة وحوانيتها ويتظاهر بشكرهم ويؤكد لهم أنه ألقيت عليه مهام وطنية جديدة لا تترك له وقتاً لخدمتهم.. ثم مر على فى المكتب الذى خصصته لنفسى داخل الدائرة.. وكان يضحك.. لم يكن يبدو عليه فعلاً أى أثر من آثار الهزيمة.. بالعكس.. كان يبدو عليه أنه انتصر.. وكان قد انتصر فعلاً فقد عين بعد انسحابه مباشرة رئيساً لمجلس إدارة مؤسسة الجوخ والأقطان.. وربما لم يرشح نفسه إلا ليلفت النظر إليه حتى يعين لهذه الشركة.. شركة واسعة وأموالها سايبة.

وفزت أنا بالتزكية.

أصبحت نائبة.

وقررت أن أعيش شخصية جديدة.. إن المنصب أو المركز هو الذى يحدد الشخصية وأنا الآن يجب أن تكون لى شخصية نائبة وعضو فى مجلس الأمة.. ولكن لا.. إن المنصب لا يغير الشخصية ولكنه يغير المظهر فقط.. المحامى الذى يصبح وزيراً لا تتغير شخصيته ولكن مظهره هو الذى يتغير.. مظهره أمام الناس.. تصرفاته..

أسلوب كلامه.. ملبسه.. مشيته.. وقد بدأ كل ذلك يحدث لى ، حتى فى اختيار ثوبى.. إن المركز هو الذى يحدد طراز الثوب.. الثوب الذى يصلح لست البيت لا يصلح لأستاذة الجامعة.. وأيضاً الثوب الذى يصلح لأستاذة الجامعة لا يصلح لنائبة فى مجلس الأمة.. وقد قضيت أياماً طويلة وأنا حائرة فى تحديد مظهر النائبة.. وفى اختيار الثوب والماكياج الذى يتفق مع جلسات مجلس الأمة ، وأنا حريصة دائماً ألا أبدو مبهدلة.. ألا أبدوا كأنى نسيت قيمتى كامرأة وخصوصاً أنى لا أزال صغيرة نسبياً.. صحيح أنى وصلت إلى الأربعين وأنا أخطو إلى مجلس الأمة ، ولكن الأربعين تعتبر سناً نعيشها الأنوثة كاملة ، خصوصاً إذا كانت أنثى جميلة كما أعتبر نفسى.. والمظهر الحلو الجميل يخدم المرأة حتى فى حياتها العامة.. ليس معنى ذلك أن نتاجر بأنوثتنا وأن نقلب اللجان والاجتماعات إلى مجالات للبصبصة وتبادل الغزل ، ولكن المظهر الحلو يفتح نفس الرجل ويجعله أكثر طواعية وأكثر استجابة للمساعدة.. مجرد المظهر.. وقد لا يعرف الناس أن هناك منافسة مستمرة مشروعة بين نساء وبنات كل الهيئات الرسمية فى الظهور بالمظهر الأكثر حلاوة حتى بين عضوات المجالس النيابية المتقاربات فى السن.. وربما كان أكثر ما أتعبنى وأنا أختار مظهرى الذى سأبدو به فى المجلس هو أنى قررت أن يكون مظهراً واحداً لا يتغير.. أى تسريحة شعر لا تتغير.. ولون من أحمر الشفاه لا يتغير.. ولون «الرميل» فوق عيونى لا يتغير.. وطراز الثوب لا يتغير وإن تغير لونه.. و.. و.. وقد قضيت أياماً أمام مرآتى وأنا أحاول أن أختار كل هذا الذى لن يتغير.. أما لماذا اخترت أنا أبدو دائماً فى مظهر واحد لا يتغير كأنى طالبة فى مدرسة تحدد ثوب طالباتها ، فلأنى أردت أن أحمى نفسى من التعليقات التى قد تتردد عندما يتغير مظهرى.. تسريحة شعرى أو

طراز ثوبى.. بين كل يوم وآخر.

وعشت أيام مجلس الأمة كما تعودت أن أعيش حياتى العامة.. أكون حيث يجب أن أكون حتى لو اضطررت أن أفرض نفسى لأكون.. لا تفوتنى أبداً فرصة يجب أن يرتفع فيها صوتى أو اجتماع يجب أن أكون فيه أو حتى حفلة رسمية يجب أن أدعى إليها.. وكنت فى الوقت نفسه حريصة على ألا أضيع فى كلمة ، أو أروح ضحية رأى أبديه.. لم أكن أندفع فى تأييد قرار أو قانون لست مقتنعة به ولكنى أيضاً لم أكن معارضة.. وكنت حريصة فى ذلك مع نفسى ، فإنى أعترف بأن الذى وصل بى إلى مقعدى فى المجلس ليس إصرار الناخبين ولكنها إرادة القيادة العليا ، وما دامت القيادة هى التى وضعتنى حيث أنا فإنها تستطيع أن تطردنى من حيث أنا.. أن تلغى وجودى.. وبما أنى أريد هذا الوجود فيجب أن أبقى فى حماية ورعاية القيادة العليا التى يعبر عنها ما يسمونه مراكز القوى ، ولذلك يجب أن أكون حريصة فى اختيار تحركاتى السياسية وفى اختيار كل كلمة أقولها.. وتستطيع أن تسمى هذا ذكاء سياسياً أو تسميه خبثاً سياسياً أو تسميه ذاتية السياسة ، أى أن السياسة بالنسبة لى ليست سوى ذاتى.

لا يهم.. ربما كنت هكذا منذ بدأت حياتى العامة وأذكر فى السنوات الأولى من الثورة ، وكانت المعارك الداخلية تشتعل فى كل أرض مصر ، أن أصدر مدير الجامعة قراراً سرياً يفرض على كل أستاذ فى الجامعة أو معيد أو موظف أن يرفع إلى إدارة الجامعة تقريراً عن كل مناقشة أو ضجة سياسية تحدث أمامه بين الطلبة.. أى أن المطلوب من أساتذة الجامعة أن يكونوا جواسيس على الطلبة.. وطبعاً رفضنا كلنا أن نكون جواسيس.. وقد صمم بعض الأساتذة على أن يتوجهوا إلى مدير الجامعة ويعلنوا أمامه رفضهم لهذا

القرار.. وقد كنت أنا كمعيدة فى الجامعة قد اشتركت فى هذا الرفض ولكنى لم أنضم للوفد الذى ذهب إلى مدير الجامعة وأعلن رفضه ولكنى اكتفيت بأنى لم أنفذ هذا القرار فعلاً.. أى لم أقدم أى تقرير عن المناقشات السياسية الصاخبة التى تدور أمامى بين الطلبة والتى كنت أشترك فى بعضها.. وقد كان هناك بعض الأساتذة من الذين انضموا علانية إلى جبهة الرفض أخذوا ينفذون فى الخفاء ما طلبته منهم القيادة ويقدمون التقارير ضد الطلبة الثائرين على الثورة. وكانت النتيجة أن صدر قرار برفت كل أستاذ أعلن رفضه للقرار فعلاً وكان من بينه أساتذة خسرتهم الجامعة وخسرهم الطلبة.. أما أنا فقد نسيت.. لم يذكرنى أحد ليسألنى هل أنا مستعدة أن أكون جاسوسة على طلبتى أم لا.. وهل قدمت التقارير المطلوبة أم لا.. وهكذا أنقذت نفسى.

وحدث أيضاً أن قررت قيادة الثورة حصار الجامعة بالأسلاك الشائكة وعدم السماح بالدخول إلا بعد أن يبرز الطالب ما يثبت أنه دفع المصروفات وكانت مصروفات الجامعة لم تلغ بعد.. ولم يكن المقصود طبعاً هو الحرص على استكمال المصاريف أو على ميزانية الجامعة بل كان المقصود هو صد الطلبة الذين يزاولون النشاط السياسى داخل الجامعة ومعظمهم كان فعلاً لم يدفع المصاريف انتظاراً لإلغائها.. وقامت ضجة بين الطلبة تولى قيادتها بعض الأساتذة.. عدد محدود من الأساتذة رأوا فى حصار الجامعة بالأسلاك الشائكة اعتداء صريحاً على كل كيانها ومحاولة لإحالة الحرم الجامعى إلى حرم عسكرى أو إلى سجن حربى.. وقرر الأساتذة القلائل التوجه إلى الوزير المسئول وكان من أعضاء مجلس قيادة الثورة ليطلبوا منه رفع الحصار عن الجامعة ، وخاطبوه يومها بصراحة بلغت حد العنف.. وطبعاً كنت أنا ضد الحصار الجامعى

ولكنى لم أذهب معهم.. ورفتوا من الجامعة.. واعتقل ثلاثة منهم.. أما أنا فلم أرفت ولم أعتقل.

ولا شك أن كونى امرأة كان يعفينى من كثير مما يحدث للرجال.. فاعتقال أو رفت امرأة ليس كاعتقال أو رفت رجل.. ولكنى لم أكن حريصة كل هذا الحرص قبل الثورة.. كنت قبل الثورة أجازف بنفسى فى كل مناسبة وفى كل موقف.. ربما لأن أيامها كانت المجازفة تعتبر بطولة.. كان من يرفت أو يسجن سياسياً يصبح بطلاً ، أما بعد الثورة فإن من يسجن أو يرفت سياسياً يصبح مجهولاً.. مفقوداً.. وأذكر أن صديقى الكاتب المعروف محسن محمدين انقطع عن الكتابة فى الصحف فترة طويلة ، ثم لقيته صدفة وسألته فى براءة :

– أين كنت طوال هذه المدة.. هل كنت فى أوربا.

وأجاب فى مرارة :

– كنت معتقلاً.

ثم ابتعد عنى سريعاً على غير عادته كأنه قرفان منى ومن أمثالى..

وقد قدرت أنا كل ذلك بذكائى.. قدرت الفرق الكبير بين المجتمع السياسى والحرية السياسية قبل الثورة وبعد الثورة.. وهو نفس الذكاء الذى كنت أقدر به مواقفى وكلماتى داخل مجلس الأمة.

وقد كنا نسمع عن أخبار الاعتقالات التى تحدث.. عشرات.. مئات.. لا أدرى ، فلم يكن يعرض على مجلس الأمة شىء لا قبل أن يحدث ولا بعد أن يحدث.. وفى الكلمة الوحيدة التى أشير فيها إلى اضطرار القيادة إلى اعتقال عناصر الثورة المضادة ، قوبلت بتصفيق حاد من جميع الأعضاء واكتفيت أنا بابتسامة تأييد ، وهمست فى أذن جارى :

– لهم حق.

كأنى أسجل ابتسامة التأييد وحتى يكون لى شاهد إذا كان أحد قد لاحظ أنى لم أصفق وسئلت لماذا لم أصفق.

وقد اعتقل أكثر من عشرين فرداً من أفراد دائرتى الانتخابية.. ولم تثر الدائرة.. كانت كل الدوائر قد تعودت على الاستسلام ، بل كانت الأغلبية تقتنع بسهولة بحق اعتقال من يعتقل.. ولكنى كنت أتعب من أهالى المعتقلين.. إنهم يسألون أين أخذوا أبناءهم.. وكيف يعيش أبناؤهم داخل المعتقلات.. وماذا يستطيعون أن يرسلوا إليهم هناك.. ولم أكن أستطيع أن أجيبهم بشىء.. أنا فعلاً لا أعرف شيئاً بل ليس لى حق السؤال.. ولهذا تركت موضوع أهالى المعتقلين لصديقى رفعت العباسى يتولى الرد على أسئلتهم وتهدئتهم.

و(رفعت) له دور كبير فى حياتى كما سيأتى فى اعترافاتى ، ولكنه بدأ وهو لا شىء.. إنه – كما كان أيامها – فى الأربعين من عمره ، من عائلة من العائلات القديمة المعروفة ، ولم يتم تعليمه ، ولم يتول أى منصب ولا حتى أى وظيفة ، ولم أكن أدرى بالضبط كيف يعيش ولا من أين يعيش ، ولكنى كنت أعرف أنه غير متزوج ، وكنت أحكم عليه بأنه أحد زبائن المقهى.. المجتمع كله فى تقديره هو مقهى كبير وهو يتنقل بين موائد المقهى ليسلى نفسه ويسلى الزبائن.. كل مواهبه تنحصر فى الكلام المسلى.. إنه يستطيع أن يجعل من كلمتين حديثاً مسلياً يستغرق ساعتين. وقد عرفته عن طريق زوجى الدكتور كمال.. كان مريضاً من مرضاه ثم جعل من مرضه مائدة فى مقهى يجلس إليها مع الدكتور كمال.. وعندما قدمه كمال إلى بدا أمامى كأنه مبهور بى.. ليس مبهوراً بى كامرأة ولكن كشخصية عامة لها قيمتها.. إنه يعلن أن الشرف الأكبر له هو أن يكون فى ركابى.. أنا الزعيمة.. أنا الرئيسة.. أنا المعجزة النسائية..

وقد استغللت فيه كل ذلك.. أصبحت أستخدمه كسكرتير متطوع.. وساعدنى كثيراً فى حملتى الانتخابية ثم فى كل ما أحتاج إليه بعد الحملة.. وهو لا يريد شيئاً نظير خدماته ، فقط أن يرضينى وفقط أن يعرف بين الناس أنه أحد أصدقائى أو أحد رجالى.

وقد استطاع رفعت العباسى فعلاً أن يهدئ من إلحاح أهالى المعتقلين من أفراد دائرتى وأراحنى من دوشتهم ، ولكن الذى كان يحيرنى هو موقف عادل.. فعادل كل معتقلاً فى فترة سابقة من فترات الثورة وقضى خمس سنوات معتقلاً بعيداً فى الواحات.. قاسى عذاب وثقل الاعتقال.. وصحيح أنه أصبح الآن شخصية هامة بين القيادات ولكن هل نسى سنوات الاعتقال.. إنه يؤيد حتى فى أحاديثه الخاصة كل إجراءات الاعتقال التى تحدث ، بل إنى أعرف أنه اشترك فى عدة عمليات انتهت باعتقال عشرات مما نسميهم رجعيين ومن الإخوان المسلمين.. فكيف انقلب من مسجون إلى سجان.. كيف يؤمن بحريته وهو لا يؤمن بحرية الآخرين.

وسألته :

– هل نسيت أيام اعتقالك ؟

قال ساخراً :

– لم أنس.. ولن أنسى أبداً.

قلت :

– ولكنك تؤيد الاعتقال الآن بل لعلك تطالب به.

قال وهو ينظر إلى كأنه يشفق على من سذاجتى السياسية :

– ما دامت هناك ثورة فهناك اعتقالات.. الثورة لم تنته.. المهم من يعتقل من.. والذى يبقى خارج المعتقل هو الذى يحكم.. وكل مذهب يريد أن يحكم ، لا كأفراد ولكن كمذهب.. كأيديولوجية.. كنظام.. إن الذين يعتقلون اليوم هم الذين فرحوا باعتقالى أمس واعتبروه نصراً

لهم.. إنى الآن فى طريق النصر..

قلت وأنا أطعنه بنظراتى فى عنقه كأنى أريد قتله :

– ولكن التعذيب.. القسوة.. الظلم.

وقاطعنى ساخراً :

– إنك لا تزالين تعيشين رومانسية الرأسمالية.. لم أستطع أن أطورك إلى الواقعية العلمية.

واستسلمت فى يأس ولم أرد عليه.

وقد كان عادل لا يزال شخصية مهمة فى حياتى العامة والسياسية ، إنه يعتبرنى شخصية يعتمد عليها ويمكن أن يختفى وراءها.

وهو لا يزال يطالب بحقه على كامرأة.

لا يزال يريدنى.

وأنا لا أزال أقاومه وأخاف أن أضعف أمامه ، وخصوصاً أن العلاقة بينى وبين زوجى الدكتور كمال بدأت تتطور إلى مناطق حساسة متعبة.. إن كمال وصل بى إلى حد أن أصبحت أسأل نفسى:

هل أنا الدكتورة سعاد رضا عضوة مجلس الأمة ؟ أم أنا حرم الدكتور كمال رمزى ؟

ولا شك أن الدكتورة سعاد هى الشخصية الأقوى.. أقوى من شخصية حرم الدكتور كمال.. والناس كلهم يعرفوننى على أنى الدكتورة سعاد عضو مجلس الأمة أو الأستاذة فى الجامعة أو مقررة هيئة المرأة العاملة أو سكرتيرة الاتحاد النسائى العربى ، وربما يعرف الناس أنى متزوجة ولكن الكثيرين لا يعرفون من يكون زوجى.. إن الصحف والإذاعة والتليفزيون وكل وسائل الإعلام تقدمنى بشخصيتى أنا وباسمى أنا لا بشخصية زوجى ولا باسمه.. وليس هذا غريباً ولا أتميز به وحدى، إن كل النساء العاملات يعشن فى مجال عملهن بشخصيتهن الخاصة بعيداً عن شخصية الزوج ، والفرق أنى

أصبحت واحدة من الشخصيات المعروفة المشهورة فى المجتمع المصرى.. وكل النساء المشهورات لا ينسبهن الرأى العام إلي أزواجهن، لأحد يهتم بأن يعرف اسم زوج حضرة النائبة أو اسم زوج الكاتبة المعروفة والمطربة المشهورة أو هذه الراقصة أو تلك .. إن أزواج هذه الطبقة من النساء يعيشون مجهولين كأزواج.. إنهم يمثلون الجانب الخاص من حياة المرأة التى تتحمل مسئوليات عامة فلا أحد يهتم بهم.

هذا طبيعى ومعروف ، وكثير من أزواج الشخصيات النسائية العامة يستسلمون لهذا الوضع وينظمون حياتهم على أساسه.. كل منهم يفرق بين حقه فى مجال عمله وحق زوجته فى مجال عملها..

وقد كنت أعتقد أن زوجى الدكتور كمال سيكون من أول من يقدر هذا الوضع ، فهو رجل مثقف ثقافة واسعة متطورة تجعله يعتز بالاكتفاء بنفسه ، ثم إنه وصل إلى أعلى مستويات النجاح كطبيب وأصبح معروفاً مشهوراً فى مجال الطب.. وربما كان الفرق الوحيد هو أن مجال عملى أوسع بكثير من مجال عمله ، فاتسعت شهرتى عن شهرته.. أنا شخصية شعبية وهو شخصية علمية.. وكان المفروض أن يقدر زوجى كمال كل هذا ويستسلم له ، ولكن اعتزازه بنفسه وبشخصيته بدأ بعد شهور من زواجنا يخلق بيننا شبه حساسية.. كل منا يحاول أن يحتفظ بشخصيته فوق شخصية الآخر.. العلم فوق السياسة أم السياسة فوق العلم.. وقد بدأت ألاحظ هذا فى الدعوات المنزلية الخاصة التى ندعى إليها أو ندعو إليها ، سواء كانت دعوات تضم أصدقائى أو تضم أصدقاءه فلا شك أن شخصيتى العامة تثير الاهتمام وتفتح مجالات أوسع للحديث عن شخصيته حتى لو كنا فى دعوة لا تضم إلا زملاء له من الأطباء.. والاهتمام به يبدو فى أى دعوة كأنه اهتمام مفتعل للمجاملة كأن يسأله بعض المدعوين عن أمراضهم كما هى العادة التى يواجهها أى

طبيب فى كل حفل خاص ، ثم بعد ذلك يتجه الحديث كله إلى أنا.. حديث السياسة والأحداث الوطنية وأخبار الدولة.. وكذلك فى الدعوات التى لا تضم سوى أطباء يتحدثون قليلاً فى المواضيع العلمية ثم يتوجهون بكل الأحاديث والاهتمام إلى.. وقد كان زوجى كمال يستسلم لاستيلائى على اهتمام هذه المجتمعات الخاصة ، ولكنى بعد فترة بدأت ألاحظ تمرده.. إنه لا يقبل أن يتجاهله الناس وهو بجانبى ، وبدأت ألاحظ أنه بدأ يتعمد أن يتكلم أكثر منى حتى فى مجال اختصاصى أنا.. بدأ يتولى هو الرد على الأسئلة التى توجه إلى ويتولى شرح الأوضاع التى أعيشها أنا ، كأنه يتحدث باسمى أو كأنه يريد أن يقنع الناس بأنه أستاذى وزعيمى وأنى لا أفكر ولا أتحرك إلا بإذنه وتحت قيادته ولذلك فهو الذى يتكلم.. شىء بعيد عما كنت أتصوره فى كمال الدكتور العالم الذى عرف بالجدية والتفرغ لعلمه ومسئوليته كطبيب ، وربما هو لا يزال كذلك داخل عيادته وداخل مجال عمله ، ولكن لا يكاد مجال أو مجتمع واحد يجمعنا نحن الاثنين حتى ينسى تفرغه لعلمه ويبدأ فى تحدى شخصيتى وفرض شخصيته.

والمشكلة الأكبر كانت مشكلة الأسلوب الذى نتلقى به الدعوات.. فالدعوات الخاصة كان معظمها يوجه إلىّ شخصياً إما بالتليفون أو خلال لقاء.. كنت أنا المدعوة.. وكان الداعى بعد أن يوجه دعوته وأقبلها يقول كأنه كان قد نسى شيئاً :

– لا تنسى أن تصحبى معك الدكتور كمال.

أو يقول إذا كان أكثر تأدباً :

– طبعاً الدكتور كمال سيكون على رأس المدعوين.

أو.. أو.. مختلف الصيغ فى أن تشمل الدعوة زوجى الدكتور كمال وكلها صيغ لا تنفى أن الدعوة لى أنا..والاهتمام مقصور على

أنا .. وكنت أحتار فى كيفية إبلاغ هذه الدعوة إلى زوجى دون أن أجعله يحس بأنه مدعو كتابع لى ، أو ذيل لى.. مدعو بصفته زوجى لا بصفته الدكتور كمال ، وكنت فى تحايلى أكذب وأقول له مثلاً :

– (فلان) يريد أن يتعرف بك ويلح كثيراً.. دوشنى.. وهو يدعونا إلى العشاء.

كنت أختار فى كل مرة صيغة كاذبة منافقة لإبلاغ الدعوة إلى كمال.. ولكن كان الأصعب هو الدعوات التى تصلنى إلى الحفلات الرسمية ، كاحتفالات الأعياد الوطنية أو احتفالات استقبال كبار الزائرين التى يحضرها رئيس الجمهورية أو رئيس الوزراء ، ماذا يكون وضع زوجى الدكتور كمال بالنسبة لهذه الدعوات خصوصاً أنها غالباً دعوات توجه غالباً إلى الشخصيات الرئيسية وزوجاتهم.. يتشرف رئيس الجمهورية بدعوة فلان الفلانى والسيدة حرمه.. فماذا يكون وضع هذه الشخصية الرئيسية إذا كانت امرأة متزوجة.. هل تكون صيغة الدعوة هى.. يتشرف رئيس الجمهورية بدعوة فلانة الفلانية والسيد زوجها.. إنها مشكلة.. مشكلة كبيرة.. وهى كمشكلة قائمة على التفريق العنصرى بين الرجل والمرأة.. لماذا لا يكون من حق زوج المرأة العاملة أن يرتبط بزوجته فى الأوضاع الرسمية كما هو من حق زوجة الرجل العامل الارتباط بزوجها ، وهى ليست مشكلة على المستوى الرسمى فقط ولكنها مشكلة أوسع تشمل المستوى الاجتماعى والشعبى كله ، فإن الزوج الرجل لا يقبل أن ينسب إلى زوجته المرأة.. لن يقبل زوجى الدكتور كمال أبداً أن ينسب إلى رسمياً ، ويدعى رسمياً باسمى.. لن يقبل أبداً أن يحمل لقب زوج الدكتورة سعاد.. أو زوج حضرة النائبة عضو مجلس الأمة.. لن يقبل أن يكون زوج الست.

وقد جرت العادة على تجاهل دعوة أزواج الشخصيات النسائية

الرئيسية ما دام هو نفسه لا يعتبر شخصية رئيسية فى نفس المجال.. وقد حاولت كثيراً أن أتخطى هذه العادة وكنت أسعى كلما توقعت دعوة رسمية ، وبدون علم زوجى كمال ، إلى ضمه إلى هذه الدعوة مع إيجاد الصيغة التى يقبلها ولا تحرجه.. كنت أسعى لدى رئيس الديوان إذا كانت الدعوة توجه من رئيس الجمهورية ، أو أسعى لدى مكتب رئيس الوزراء إذا كانت الدعوة توجه من جانبه.. واقترحت صيغة نصها : « يتشرف رئيس الجمهورية بدعوة الدكتورة سعاد رضا والدكتور كمال رمزى إلى.... » بل إنى اقترحت مرة أن يقدم اسم زوجى على اسمى فى صيغة الدعوة ، ثم اقترحت أن ترسل لكل منا دعوة منفصلة باعتبار أنى أمثل شخصية داخل التنظيم السياسى وهو يمثل شخصية علمية لها مكانتها وقيمتها.

والمشكلة لا تنتهى..

المشكلة تتسع وتتفرع وتشتد خلال السنوات المتعاقبة.

وفجأة واجهت فى حياتى الخاصة مشكلة أخرى.

مشكلة ابنتى فايزة.

إنها الآن فى السابعة عشرة من عمرها.

وهى تحب.

٩

قلت إنى أصبحت أعيش فى مشكلتين.. إنها ليست مجرد مشاكل.. إنها أزمات.. هزات تكاد تقلب حياتى كلها..

ابنتى..

وزوجى..

وكنت قد عهدت بابنتى فايزة وهى لا تزال فى السنة الأولى من عمرها إلى أمى تعيش معها وتتولى كل أمرها ، وبعد أن طلقت من أبيها أصبحت أعيش أنا أيضاً مع أمى.. فى بيتنا.. بيت أبى وأمى.. وقد سبق أن قلت فى هذه الاعترافات أننا عودنا فايزة على أن تعتبرنى كأنى أختها لا أمها. وعودناها على أن تنادينا باسمى... سعاد.. وبعد أن كبرت أصبحت تنادينى غالباً باسم الدلع.. سوسو.. وعشت محرومة طول عمرى من أن أحمل لقب ماما ، ماما ، هذا النداء الذى يرفع الأم وابنتها إلى مستوى من الحب والارتباط والتفاهم وإلى استجابة كل منهما للأخرى.. النداء الذى يرمز إلى جناح الأمان الذى تفرده الأم لحماية أبنائها.. لم أفرد جناحى أبداً لحماية ابنتى فايزة تركتها تحت جناح أمى.. وقد فرحت أيامها فرحة ساذجة بأنى لست «ماما» كأنى فرحة بادعائى أنى ما زلت صغيرة وشابة فى سن أخت ابنتى.. ولكن الواقع هو أنى لم أكن فعلاً «ماما»

فقد تركت فايزة كلها لأمى وبلغ اطمئنانى إلى أمى وثقتى بها إلى أن أصبحت كأنى فعلاً أخت ابنتى.. فلم يعد يهمنى تتبع أخبارها اليومية.. أكلت.. رضعت.. بكت.. ضحكت.. لعبت.. نامت.. كل ذلك لم يعد يهمنى أن أتتبعه ، بل أصبحت أمى تبلغه لى فى كلمات قصيرة سريعة أثناء دخلى وخروجى من المنزل جرياً وراء عملى.. وحتى بعد أن بدأت فايزة تكبر وأصبحت فى حاجة إلى بداية لقاء شخصيتى وشخصيتها ، وعقلى وعقلها.. أصبحت فى حاجة إلى ساعات تقضيها معى لأحكى لها وتحكى لى ، وأقبلها أو أذنبها وأشخط فيها ، وتضحك لى أو تبكى منى... كل هذه الساعات لم أعط منها شيئاً لابنتى.. حرمتها من أمومتى كما حرمت نفسى من بنوتها.. ولم يكن ذلك تعمداً طبعاً ، كما لا يعنى ذلك أن حبى لابنتى ليس له وجود أو أن غريزة الأمومة فى ليست كاملة.. أبداً.. إنى أحبها كما تحب أعظم أم ابنتها وأعطيها من أمومتى كل ما تريد وأكثر.. ولكن اندفاعى وراء طموحى الخاص كشخصية عامة وانشغالى عنها بالمناصب المتعددة التى أشغلها ، واطمئنانى الكامل إلى مسئولية أمى فى تربية ابنتى ، دفعنى إلى أن أصبحت أختلف فى أسلوب التعبير عن حبى وعن أمومتى عن باقى الأمهات.. أسلوب أقرب إلى تشكيل التنظيم السياسى.. فأنا القيادة العليا بالنسبة لابنتى ، ولا يمكن أن يتخذ قرار بشأنها إلا بموافقتى ، وأمى هى السلطة التنفيذية التى تقوم بالإشراف على تنفيذ هذه القرارات ، وهناك اجتماع يجب أن يتكرر كل يوم بين القيادة العليا أى أنا ، والسلطة التنفيذية أى أمى ، والشعب أى ابنتى ، لتقديم التقارير ومناقشة الأحداث.. هذا ما صورته عقليتى لى كتنظيم لمسئوليتى عن ابنتى ، لمجرد إقناع نفسى بأنى أقوم بواجبى.. وكان أضعف ما فى هذا التنظيم هو خلوتى مع ابنتى.. كانت دائماً خلوة سريعة لا تكاد

تبدأ حتى تعطلها المكالمات التليفونية التى لا تكف عنى ، أو ارتباطى بمواعيد لا أستطيع إلغاءها ، أو اضطرارى أن أقرأ أو أكتب الأوراق التى تزدحم بها حياتى العامة ، أو أكون متعبة منهارة فى آخر اليوم فأنام فى حضنها.. حضن ابنتى.. بدلاً من أنتظرها حتى تنام فى حضنى.. حضن الأم.. والمهم أنه لم يكن بينى وبينها أبداً لقاء كامل يجعلنى أؤثر عليها تأثيراً فعالاً بشخصيتى.. والأهم هو أننى لم أكن أعرف أبداً شيئاً من أسرارها ، بل لم يخطر على بالى حتى بعد أن كبرت أن يكون لها أسرار ، حتى هذه الأسرار البريئة النظيفة التى تمر فى حياة كل بنت.. وكان هذا هو إحساس التباعد بينى وبين ابنتى.. فالأم هى المؤثر المباشر فى حياة ابنتها ، وهذا التأثير يتطلب التفرغ الكامل.. كل منهما للأخرى ، وهو تأثير لا يمكن أن تعوضه الجدة أو المدرسة.. الأم لا يعوضها أحد أبداً.. والمثل الشعبى يقول «اكفى السلطانية على فمها تطلع البنت لأمها» هذا المثل إذا لم يتوافر له عنصر تفرغ الأم لابنتها فقد « تطلع » البنت على عكس أمها.

وقد سبق إن قلت أن زوجى الأول عبدالحميد تزوج من بعدى ، وأنه قدم إلى زوجته سميرة حتى أطمئن إليها فأسمح لابنتى فايزة بزيارة أبيها وزوجته وقد وصفت سميرة بأنها أنثى.. أقوى ما فيها أنوثتها.. وبذكاء الأنثى كانت تتصل بى بالتليفون بين حين وآخر تسأل عنا دون أن تحاول أن تندمج معى فى صداقة خاصة إنما لمجرد أن أطمئن إليها ما دمت أسمح بأن تزورها ابنتى..

وقد استطاعت زوجة الأب أن تكسب حب ابنة زوجها.. حب فايزة.. وأصبحت فايزة تفرح بزيارتها لأبيها.. ومع مرور السنوات أنجب عبدالحميد من زوجته ولدين وبنتاً ، وفايزة كلما كبرت زادت من ترددها على أبيها وأصبحت تبيت فى بيته وأمى موافقة وتتركها تذهب إلى هناك وتبقى كما تشاء مكتفية بأن تتصل بها بالتليفون

بين كل ساعة وأخرى.. ولكنى بدأت أغار.. لم يكن هناك شىء معين أو حادث يجعلنى أخاف على ابنتى من زوجة أبيها، ولكنى فقط بدأت أغار خصوصاً بعد أن كبرت فايزة وبدأت تجتاز سن العاشرة.. وبعقليتى التنظيمية بدأت أصدر القرارات.. قررت ألا تذهب فايزة إلى أبيها وتبيت هناك إلا مرة واحدة كل أسبوع.. وحددت اليوم.. الاثنين.. على أن يأخذها أبوها بسيارته من المدرسة ويعيدها إلى المدرسة فى صباح اليوم التالى.. نظام دقيق.. وقد رفضت أن تذهب فايزة إلى أبيها فى يوم الجمعة حتى يكون هذا اليوم لى.. وتلقت فايزة هذا القرار بهدوء دون أن تناقشه كأنها كانت واثقة أنها دائماً تستطيع أن تصل إلى ما تريد رغم أنف القرارات ، أو كأنها كانت ترضينى بالموافقة دون اقتناع.. والذى حدث أن فايزة كانت تذهب إلى أبيها أكثر من مرة فى الأسبوع رغم قرارى وفى كل مرة كانت تجد دائماً الحجة التى ألين أمامها حتى بلا اقتناع.. وغيرتى من زوجة الأب لا تهدأ ولا تشتعل ، إنما تبدو فى كل ما يخص فايزة وأحس أنه من وحى سميرة.. وقد أراد أبوها - مثلاً - أن يلحقها بالمدرسة الألمانية ، واكتشفت أن زوجته سميرة كانت طالبة هناك فرفضت.. رفضت دون أى قياس لمصلحة فايزة ومستقبلها إنما فقط لأن زوجة أبيها صاحبة الفكرة.. إنى أنا أمها وليست الزوجة الأخرى ، ويجب أن أكون أنا صاحبة الوحى وصاحبة القرار.. وصممت على أن تلتحق فايزة بالمدرسة القومية.. أن تتعلم فى المدارس المصرية كما تعلمت.. ورضخ عبدالحميد لقرارى بسرعة كعادته ، وحاولت فايزة أن تجادل ولكنها كأبيها لا تكلف نفسها متاعب العناد والتصميم فاستسلمت كما استسلم أبوها. وهكذا كانت تصرفاتى إزاء كل ما أحس أنه من تأثير زوجة الأب على ابنتى.. وقد وجدتها مرة ترتدى ثوباً جريئاً فى طرازه وألوانه ، يكشف عن ذراعيها

وصدرها ويكاد يرتفع فوق ركبتها.. إنه طراز «المينى جيب» فى أول ظهوره وقبل أن يصل إلى مصر ، وقد ارتدته خصيصاً فى البيت حتى أراه.. وفوجئت بهذا الثوب وقلت كأنى أصرخ :

- من أين أتيت به ؟

وقالت وهى تلف أمامى على طريقة عارضات الأزياء :

- هدية من بابا وسميرة اختارته لى..

إنها تنادى زوجة أبيها كما تنادينى بلا لقب ، وكأنها هى الأخرى أختها كما أنها أنها أختى.. وعدت أصرخ :

- أخلعيه... أنا لا أسمح بهذا العرى.. وما تقبله سميرة ومجتمع سميرة لا أقبله أنا..

ونظرت إلى فايزة فى دهشة كأنها تتعجب من غبائى ثم قالت بأسلوب الاستسلام الذى ورثته عن أبيها :

- حاضر..

وحملت الثوب بعد أيام إلى بيت أبيها وأصبحت ترتديه هناك.. يا لغبائى.. والغباء الأكبر هو أنى طوال هذه المدة لم أحاول أن أكتشف عمق العلاقة بين ابنتى فايزة وزوجة أبيها سميرة.. إلى أى مدى وصلت هذه العلاقة.. ما هو واقع المجتمع الذى يعيش فيه أبوها وزوجته.. وهل تعرف سميرة عن ابنتى أكثر مما أعرف أنا.. هل يتبادلان الأسرار فى الوقت الذى لم أكن أتصور فيه أن لابنتى سراً تخفيه عنى..

ثم هناك الحدث الآخر فى حياة ابنتى..

لقد تزوجت أنا أيضاً..

أصبح لها زوج أم كما أن لها زوجة أب..

ولم تكن السنوات الطويلة التى قضيتها وحيدة فوق سرير خال سببها مجرد رغبتى فى التفرغ لعملى وتحقيق طموحى فى مجال

حياتى العامة إنما كان السبب وربما السبب الأقوى هو أن أكون كلى لابنتى ، وألا أدخل فى حياتى غريباً على ابنتى.. وعندما أرهقتنى الوحدة حتى أدت بى إلى الخطيئة وقررت أن أتزوج لأحمى نفسى بإشباعها باحتياجاتها الطبيعية ، لم أتخذ قرارى إلا بعد أن فكرت طويلاً فى مصير ابنتى بعد أن أتزوج..

ولم يكن أمامى مجال واسع للاختيار..

أن أفضل ما يمكن أن أختاره لها هو أن تبقى كما هى.. أى أن تعيش مع أمى وفى رعايتها ويصبح من حقها أن تنتقل بين بيتى وبيت أبيها..

أصبحت ابنتى فايزة مشتتة بين ثلاثة بيوت ، وأصبحت أحس أن أبعد هذه البيوت الثلاثة عنها هو بيتى أنا.. ولا أدرى هل تغار البنت من زوجة أبيها أكثر أم من زوج أمها.. وربما لم يكن ما يؤثر على ابنتى فايزة هو الغيرة ، ولكنها قوة الاجتذاب ، فبيت أبيها يجذبها أكثر مما يجذبها بيتى.. هناك رجل متحرر من كل المسئوليات الرسمية.. مرح ضاحك دائماً.. وامرأة متفرغة لأنوثتها تعرف كيف تتمتع الأنثى بحياتها وبكل ما يمكن أن يمنحه المجتمع ، وأخواتها من أبيها.. ولدان وبنت.. يعيشون الحياة المنطلقة بكل ما فيها من متع الشباب والطفولة أما عندى فى بيتى ، فامرأة - أى أنا - تعيش فى طموح غريب على طبيعة المرأة ، وتقيد نفسها بكل المسئوليات والمظاهر الرسمية ، ولا تعطى لأنوثتها إلا ما يتبقى من أوقات الفراغ.. امرأة متعبة حتى لو كانت أمها. ورجل جاد متفرغ لعلمه ويضع نفسه كأنه طبيب يعالج الحياة كلها ، فكل شىء من حوله مريض.. ليس الناس فقط هم المرضى ، ولكن الوضع الاجتماعى مريض ، والوضع السياسى مريض ، والوضع الاقتصادى مريض ، وهو يقيم من نفسه ومن كل فكره ومن كل إحساسه طبيباً لكل هذه

الأمراض.. رجل على قدر ما تحترمه وتقدره تحس بثقله.. ولا شك بعد هذا أن تكون جاذبية البيت الآخر بالنسبة لابنتى فايزة تشدها أكثر مما يشدها بيتى..

ولا شك أن زوجى الدكتور كمال كان يرحب ويفرح بزيارة ابنتى لنا ، هذا الترحيب الهادئ والفرح الهادئ الذى يتفق مع طبيعته.. ولا شك أيضاً أنه كان لا يجيد اكتساب حب الأطفال ولا الشابات فى عمر ابنتى ربما لأنه هو لم ينجب.. إنه عاجز عن الإنجاب.. وقد كنت أشك فى هذا العجز لأنه لم ينجب من زوجته الأولى ثم تأكدت منه بعد أن عجز عن الإنجاب منى.. ولم أكن أثير هذا الموضوع بينى وبينه أبداً وأقنعت نفسى بأن أرضى بالواقع وتكفينى ابنتى فايزة.. ولكن هو.. ألا يحدث له أحياناً ما يثير فيه إحساسه بعجزه.. ألا تكون ابنتى تثير فيه هذا الإحساس عندما تزورنا.. إحساس بالعجز.. إنى ألحظ أحياناً أنه لا يبقى معنا طويلاً أنا وابنتى بل ينصرف عنا سريعاً حتى فى غير أوقات عمله محتجاً بأنه يراجع بحثاً.. ربما يكره أن يرى ابنتى.. يكرهها.. يكره ما يثير فيه إحساسه بالعجز عن أن يكون له هو الآخر ابن أو ابنة.. لا.. لا يمكن.. إن كمال شاخ وأصبح أكبر من هذه الأحاسيس ، وهو يبتعد عنا لمجرد أن يتركنا وحدنا.. أم وابنتها.. لتمتع كل منا إحساسها بالأخرى.. ولكن فايزة نفسها ، ماذا تحس تجاه زوجى كمال.. هل تحس بجفائه وتباعده عنها ، أم لا تحس بشىء. لا أدرى.. ولكن الواضح أنها تقبل على زيارة بيت أبيها أكثر من إقبالها على زيارتى.. وتبقى فى بيت أبيها أطول مما تبقى فى بيتى.. بل إنى كثيراً ما ألح عليها فى التليفون حتى تأتى إلى ، وكثيراً ما أصدرت قرارات بتقسيم مواعيد الزيارة بينى وبين أبيها.. قرارات لا تحرص أمى كثيراً على تنفيذها بنصها..

ولكنى أقنعت نفسى.. أقنعت نفسى بأن لا شىء يمكن أن يكون

مشكلة فى تحديد عواطف ابنتى فايزة.. إنما هـو مجرد اختلاف قوة الاجتـذاب بين بيتى وبيت أبيـها.. كـالفرق بين الذهاب إلى السـينما والذهاب إلى المدرسـة.. ثم إنى مطمئنة إلى أن القـرار السليم هو أن تنشأ ابنتـى وهى مقتنعـة بأن بيتهـا هو بيت أمى أى جدتهـا ، حتى تكون أقوى فى شخصيتها المستقلة عن زوجة أبيها وعن زوج أمها.. إلى أن اتصلت بى ماما فى التليفون وقـالت لى فى إصرار ليس من طبيعتها :

– تعالى إلى بيتى الآن..

قلت :

– إن أمامى جلسة المجلس.. سأمر عليك غداً..

قالت فى حزم غريب :

– اعتذرى عن الجلسة.. تعالى الآن : لا تتأخرى..

قلت فى دهشة :

– ماذا حدث ؟

قالت :

– سأقول لك عندما تأتين..

وكدت أصرخ :

– طمئنينى..

قالت فى هدوء :

– إنه موضوع خاص بفايزة.. كله خير بإذن الله تعالى.. أنتظرك.

ولم أرسل اعتذارى عن جلسة مجلس الأمة وجريت إلى بيت أمى لأجلس أمامها مبهوتة وأنا أستمع إلى قصة ابنتى فايزة..

إنهـا تحب.. من أدرانى لعله ليس الحب ، ولنقل إنهـا على علاقـة بشاب فى الثامنة والعشرين من عمـره ، أى أكبر منها بعشر سنوات ، وهو خـريج كلية الهندسـة ، ويعمل مـهندساً فى شـركة المقـاولين

العرب واسمه أشرف عبـد الوهاب ، وأمى لا تعرف شيئاً عن أبيه أو عن عائلته ، ولكنهـا تعرف أن فايزة التقت به فى بيت أبيـها منذ عام أو أكـثر.. إنه صـديق لشـقيق سـميرة زوجـة الأب.. ومنذ يومـين صرحت فـايزة بحكايتهـا لأمى وقالت لهـا إن أشرف سـيتـقدم فى الأسبوع الـقادم.. أى منذ يومين فقط عـرفت أمى الحكاية ، وقررت أنى لا يمكن أن أوافق على هذه العلاقـة ولا على أن تنتهى بالزواج.. إن فايزة لا تزال فى الثانوية العـامة.. إنها كسولة لا مباليـة كأبيها.. ولا يمكن أن يكون من حقها الزواج إلا بعد أن تتـخرج فى الجامعة.. هذا مبدئى الذى وضعته لنفسى وأطالب بفرضه على كل البنات.. ثم تتـزوج من ؟.. من هو هذا الـشـاب ؟.. ابن من ؟.. ولأن أمى كـانت متأكـدة أنى سأرفض فقد أجلت إبلاغى بالحكاية لعلـها تستطيع أن تقنع فايزة بالتـخلص من هذا الشاب.. أو من هذا الحب.. أو من هذه العلاقة.. ولكن فايـزة واقعة لشوشتها.. واتصلت أمى بـأبيها تسأله عن رأيه فضحك باستهتار.. إنه يعرف وهو موافق.. وسميرة زوجته تعرف أيضـاً وموافقة.. أنا وحدى.. أنـا أمها.. لم أكن أعرف شـيئاً.. وظلت أمى تخفى عنى إلى أن كـان هذا المساء فقد كـانت فايزة تريد أن تخرج وأمى تعرف أنهـا خارجة للقاء أشرف فحـاولت أن تقنعها بعدم الخروج وعـدم التعود على قضاء الليـل فى الخارج وحدها مع رجل حتى ولو كانت تحبه.. ولكن فايزة صممت وخرجت رغم إرادة أمى التى اضطرت أخيراً أن تستدعينى لتحملنى مسئولية ابنتى..

وقضيـت الليل مع ماما فى انتظار عودة فـايزة وأنا أغلى.. وأشد ما يندلع فى داخلى من نار هو أن ابنتى التقت بهذا الشاب عن طريق سميرة زوجـة أبيها.. والله عال يا ست سميـرة.. لم يكفها أن تكسب صداقـة ابنتى فقـررت أن تسيطر على مـستقـبلها كله.. أن تجـعلها صورة منها لا منى.. وأن تزوجها من تختاره لها.. وأنا.. أنا الأم.. لا

وجود لى.. ولا قيمة ولا رأى.. بل أنا أيضاً معرضة لأكون ضحية.. ابنة الدكتورة سعاد رضا الأستاذة والنائبة والرئيسة والزعيمة تتزوج قبل أن تتم تعليمها.. ابنتها كبقية البنات العاديات اللاتى يعشن على حساب أنوثتهن ويقمن مستقبلهن على أساس أنهن آلات جسدية لا أكثر.. ثم تتزوج من.. شاب عادى.. لا هو ابن فلان ولا ابن علان وقد كنت أرسم فى خيالى أحياناً الصورة التى ترسم زواج ابنتى ولم أكن أتصور أنها يمكن أن تتزوج إلا باختيار عقلها لا باندفاعها وراء عواطفها ، وعقلها يرسم الصورة الصحيحة لبناء مستقبلها ، والمستقبل لا يمكن أن يختار لها زوجاً إلا من أبناء الطبقة الحاكمة.. وكنت كثيراً ما أستعرض فى خيالى الشخصيات القيادية التى تحيط بى وأتصور أنى اخترت ابن هذا أو ذاك ليكون زوجاً لابنتى.. لماذا لا تتزوج ابن جمال عبد الناصر أو ابن على صبرى أو ابن المشير.. أو.. أو.. وأحياناً أتواضع فى خيالى وأتصورها كأنها انتهت من دراستها الجامعية وتزوجت أستاذاً فى الجامعة.. زواج يشرفنى.. إن الأهل عندما يخططون لزواج أبنائهم يفكرون فى أنفسهم وفيما يريدونه أكثر مما يحسبون حساب ما يريده الأبناء.. يفكرون فيما يشرفهم وفيما يحقق مصالحهم ، لا فيما يسعد البنت أو الولد.. حجتهم أن السعادة كالحب تكتسب بعد الزواج لا قبله.. إن السعادة قبل الزواج هى سعادة مظهرية.. سعادة ترتدى بدلة وكرافتة أما السعادة بعد الزواج فهى سعادة الواقع ، سعادة ترتدى البيجاما والجلابية وقميص النوم..

هكذا كنت أفكر يومها.. وهكذا تزوجت أنا.. تزوجت بعقلى لا بقلبى.. إلى أن عادت فايزة إلى البيت وكانت الساعة قد قاربت منتصف الليل ، وفوجئت بى أمامها أكاد أخنقها بعينى.

وضغطت على أعصابى وتعمدت أن أخفض من رنة صوتى حتى

أبدو هادئة وإن كانت العاصفة لا تزال تنطلق من عينى ، وقلت بعد أن قبلتها قبلة سريعة مرة :

– مساء الخير يا حبيبتى.. أين كنت ؟

قالت وهى تضحك دون أن ترد على السؤال :

– إنها المرة الأولى التى تسهرين فيها عندنا.. لو كنت أعلم لما خرجت..

وعدت أسأل وأنا ألم أعصابى وإن كانت رنة صوتى قد بدأت تنفر من الهدوء :

– أين كنت ؟

وأطالت نظرتها إلى وبين شفتيها ابتسامة تبدو كأنها ابتسامة لا مبالاة وقالت :

– فى السينما.. وبعد السينما فى الكافتيريا..

وقلت فى حدة :

– مع من ؟

وقالت فى بساطة :

– مع أشرف..

واشتدت حدة صوتى وأنا أسألها :

– أشرف من ؟

قالت وهى تزفر أنفاسها كأنها كانت تعرف أنها مقبلة على حساب قاس :

– أشرف عبد الوهاب..

وصرخت فى وجهها وأنا أمسك بيدها وأهزها بعنف كأنى أحاول أن أنفض عنها كل أسرارها كما ينفض التراب عن السجاد :

– فايزة.. تكلمى بصراحة.. أحكى لى بصراحة.. فاهمة..؟!

وأجابت فى برود :

– يا سعـاد أنا عارفـة أن تيتـا حكت لك كل شىء ، وليس عندى أكثر مما تعرفه تيتا..

وتمنيت سـاعتـها أن تنادينى «مـاما» أحـسست لأول مـرة وهى تنادينى باسمى كما تعودت أنى فقدت كل شىء.. كل حقوقى عليها.. كل مسئوليتى.. كل سلطاتى.. إنى مجرد أخت بل أقل من أخت.. إنى صديقة متباعدة... وصرخت فى وجهها :

– ماما حكت لى حكاية مـشروع زواج.. كيف تفكرين فى الزواج وأنت لا تزالين فى الثانوية العامة ولم تدخلى الجامعة..

وقالت بمنطق لم أتعوده منها :

– مـا دخل الجـامـعـة بالزواج.. إنهم لا يـدرسـون الزواج فى الجامعة.. وأستطيع أن أدخل الجامعة وأنا زوجة لو أردت..

وصرخت :

– هذا كلام فاضى.. الدراسة فى حـاجة إلى تفرغ.. وعندما كنت فى سنك تقدم لى عشرات الخطاب وكنت أرفضهم حتى أتخرج..

وقالت فى هدوء :

– خالتى تزوجت ولم تدخل الجامـعة وأعتقد أنها زوجـة ناجحة سعيدة..

وأحسست كأنها تعيرنى بأنى لست زوجة ناجحة وأن أختى التى لم تتم تعليمها هى الزوجة الناجحة وعدت أصرخ فيها :

– أيامنا كانت تختلف.. اليوم البنت كـالولد يجب أن تتم تعليمها.. ثم من هو أشرف هذا الذى أقنعك بالزواج ؟

قالت :

– إنه مهندس..

قلت :

– أعرف إنه مهندس.. ولكن ابن من.. عائلته.. ماذا يعمل أبوه؟

قالت وهى لا تزال محتفظة ببرودها كطبيعة أبيها :

– كأنك تقولين إن العلم لا يكفى.. لا يكفى أن يكون خريج جامعة ومهندسـاً.. ولكن أباه أمه.. أبوه تاجر يملك مـحلاً كبيـراً فى شارع الموسكى..

وصرخت :

– والله عال.. اسـمعى... أنا لست موافـقة على هذا الزواج... ولن يتم..

وقالت وهى تنظر إلى فى دهشة :

– بابا موافق..

قلت :

– تقصدين زوجة أبيك... ست سميرة..

قالت :

– وسميرة موافقة..

وصرخت :

– طبعاً موافقة.. هى التى طبخت كل الحكاية..

وضعـفت فايزة أو ربما أنهكتـها حدة النقـاش وسقطت جـالسة وقالت ودموعها فى عينيها :

– إنى أحبـه يا سعـاد.. أصبح كل حـيـاتى.. ولن تهون عليك حياتى..

ثم انهمرت دموعها تبكى..

وسكت أنا برهة طويلة أحاول أن أجـد الطريق مع ابنتى.. لم أكن أفكر ساعتهـا فى أنها تحبه. إن الحب كما أحس به هو مـتعة أوقات الفراغ.. مهـما قالت إنها تحبـه فإن سعادتها فى كـيانها الذاتى.. فى مستقـبلها.. فى الحياة التى تختارها.. ولكنى كنت أفكر سـاعتها فى قياس مـوقفى.. إنى ضعيفة.. لن أسـتطيع أن أمنع هذا الزواج.. إنها

تستطيع أن تتزوجه رغم أنفى وبموافقة أبيها إلا إذا وصلت إلى حد السفالة وتسببت فى اعتقال حبيبها أشرف مثلاً.. وهذا كان سهلاً فى تلك الأيام.. مجرد رجاء منى ويتم اعتقاله.. عشرات يتم اعتقالهم لأسباب خاصة شخصية لا علاقة لها بالسياسة ولا بالحياة العامة.. ولكنى لا أريد أن أصل إلى هذا الحد الذى قد يؤدى بى إلى فقد ابنتى إلى الأبد.. قد تنتحر أو على الأقل تهرب منى ومن البيت.

وبدأت أخفف من حدة نقاشى وأتعمد أن أقنعها بأن أحترم عواطفها وأعترف بحبها وكل ما أرجوه هو أن تؤجل إعلان الخطوبة إلى نهاية العام بعد أن تجتاز امتحان الشهادة الثانوية ، وكنا لا نزال فى بداية العام الدراسى.. ووافقت فايزة.. واقتنعت بتأجيل موعد إعلان الخطوبة..

وقلت وأنا أفتعل ضحكة :

– على شرط أن تنجحى.. ما فيش واحدة تسقط وتبقى عروسة..

وتمنيت ليلتها أن أبقى معها.. أن أنقل كل كيانى لأعيش معها فى بيت واحد حتى أعطيها من نفسى وأجعل منها قطعة منى.. أنا أمها.. وأصل بها إلى أن تحس بما أحس به ، وتفكر كما أفكر.. ولكنى ليلتها كان يجب أن أعود إلى زوجى..

إلى مشكلتى الأكبر..

وقد قلت إن زوجى الدكتور كمال كان يرفض أن يترك شخصيتى العامة تطغى على شخصيته.. إنه صنف آخر من الرجال غير زوجى الأول عبدالحميد لا يهرب من هذه الشخصية.. شخصيتى.. ولا يستسلم لها أو يتحايل حتى يستطيع أن يعيش معها.. إنه يصر على أن يستولى على هذه الشخصية ، أو على الأقل أن يضعها فى نفس مستوى شخصيته.. إنه يصر على إثبات أنه رجل.. أنه زوجى.. والرجال قوامون على النساء ، خصوصاً إذا

كانوا أزواجاً..

وقلت إنى كنت حريصة على أن توجه الدعوات الخاصة والعامة إلينا نحن الاثنين باسمه.. أو باسمه مقروناً باسمى.. ولكن هذه الدعوات بدأت تثير بيننا لحظات متوترة ومناقشات أقرب إلى المشاجرات.. وكنت غالباً أستسلم لما يريده ، ما دمت لا أعلن استسلامى أمام الناس إنما هو استسلام أقرب إلى الاتفاق بينى وبينه على مظهرنا أمام الناس..

وأذكر أننا فى ليلة عدنا من دعوة خاصة أقامها بعض من أصدقائه الأطباء لا من أصدقائى ، وإذا به يقول لى وأنا أخلع ثيابى.. أخلعها له.. لأعطيه نفسى :

– سعاد.. أرجوك لا تتقدمينى بخطواتك ونحن ندخل أى مكان..

قلت فى دهشة :

– ماذا تقصد ؟

قال وهو معتز بشخصيته كأستاذ :

– اليوم ونحن ندخل إلى بيت أصدقائنا نسيت نفسك ودخلت وأنت تتقدميننى بخمس خطوات على الأقل ، وأنا أسير وراءك.. وهذا لا يصح.. ويجب أن يكون كتفك فى كتفى.. زوج وزوجته..

قلت :

– إنى لم أتعمد..

قال :

– تعمدى العكس.. أى أن تكونى بجانبى دائماً..

قلت :

– إن المرأة تتقدم دائماً.. هذه أصول البروتوكول..

قال وهو يضحك ضحكة مرة :

– كنت أعتقد أنك من أنصار المساواة لا من أنصار البروتوكول..

ثم إنك لست مجرد امرأة إنك منصب رسمى ، وإذا سرت متأخراً خطوات وراء المنصب الرسمى فإنى قد أبدو كسكرتير أو حارس لجانبك ولست زوجك..

وأجبته بسرعة وفى قرف :

– حاضر.. سأراعى أن نكون دائماً كتفاً بكتف..

وعاقبنى ليلتها بأن هجرنى.. لم يقربنى رغم أنى كنت فى حاجة إليه ، وكانت الدعوة التى كنا فيها من المرح والخفة بحيث فتحت نفسى لأقضى بقية الليل فى أحضانه..

وتعمدت منذ تلك الليلة ألا أدخل معه أى مكان إلا وأنا ملتصقة به سواء كنا ندخل سينما أو ندخل قصر عابدين ، بل كنت أتعمد أن أبقى بجانبه طول الحفل ، وأن أراعى أن أثير الاهتمام بوجوده قدر الاهتمام بوجودى..

ولكن المشاكل لا تنتهى..

وأذكر أننا فى إحدى الدعوت التى دعانا إليها أحد زملائى من أعضاء مجلس الأمة أخذنا نتناقش فى حركة اعتقالات كانت قد بدأت وصاحبها تعديل فى الدستور القائم يمنح رئيس الجمهورية ممارسة حرية أكبر فى الحكم كحاكم رئاسى.. وتكلمت طويلاً عن حق الحاكم والنظام والثورة فى الدفاع عن نفسها.. النظرية التى لم أومن بها إلا بعد أن أصبحت أحد أفراد الطبقة الحاكمة.. تحدثت طويلاً دون أن ألحظ أن زوجى الدكتور كمال بقى صامتاً ، رغم أنه كان يتعمد أن يشترك فى كل المناقشات حتى لا يتجاهل أحد وجوده.. وعندما عدنا إلى البيت إذا به يكشف عن غضبة حادة قائلاً لى :

– لا أريدك أن تقولى رأياً فى السياسة وأنا موجود إلا بعد أن نتفق عليه..

قلت وأنا أحس بأنى مقبلة على خناقة :

– إنه رأيى أنا ومن حقى أن أقوله..

قال فى عصبية :

– إن رأيك ينسب إلى لمجرد أنى زوجك إلا إذا عارضتك أمام الناس وهذا ما لا أستطيعه لأنى أيضاً زوجك..

واحتد النقاش بيننا طوال الليل وانتهى كما عودته على أن أخضع له فوعدته بألا أقول رأيا سياسياً فى خلال الدعوات الخاصة.. كنت أريد أن أحتفظ به. وكنت أحاول أن أفرق بين حياتى الزوجية وحياتى العامة.. أنا حرة فى حياتى العامة ولكنى لست حرة فى حياتى الزوجية..

وحدث ما هو أغرب من هذا..

وقد سبق أن قلت إنى أسعى إلى أن يدعى زوجى كمال إلى الحفلات العامة التى أدعى إليها.. وكان قد أقيم حفل عشاء رسمى كبير تحية للرئيس تيتو.. ووضع نظام الحفل بحيث يصطف المدعوون فى طابور طويل وكل مدعو تتقدمه زوجته إذا كان متزوجاً ، ثم يمر الطابور أمام الرئيسين عبد الناصر وتيتو لمصافحتهما.. ولكن الطابور كان مقسماً أيضاً إلى فئات كل فئة تتبع بعضها.. الوزراء ورجال الجيش والنواب و.. و... وأنا عضو فى مجلس الأمة وموضعى فى الطابور مع بقية الأعضاء ، وزوجى مع المدعوين بصفتهم الشخصية فى آخر الطابور.. وبلا مناقشة وقفت فى المكان المخصص لى ومررت لمصافحة الرئيسين ، ثم وقفت فى انتظار زوجى إلى أن ينتهى من دوره فى المصافحة.. ولكن لا أراه.. أين زوجى.. أين اختفى.. وبعد أن يئست استنتجت أنه انصرف... خرج من الحفل الرسمى الكبير وبلا استئذان رغم أن البروتوكول يفرض ألا يخرج أحد إلا بعد خروج الرئيسين.. وأحرجت وكلما سألنى أحد عنه كذبت وقلت إنه استدعى لعلاج حالة عاجلة خطيرة.. وعندما

عدت إلى البيت وجدته هناك مرتاحاً هادئاً وقال وهو يضحك:

– إنى سأطالب بمساواة الأزواج بالزوجات.. إن البروتوكول يبيح للزوج فى الحفلات الرسمية أن يتقدم بصفته الرسمية بجانب زوجته ، فلماذا لا يباح للزوجة ذات الصفة الرسمية أن تتقدم بجانب زوجها ؟

واستمر النقاش طول الليل ، وكان ليلتها سعيداً لأنه أرضى غروره بتحدى البروتوكول والإجراءات الرسمية بالخروج من الحفل بلا استئذان وقبل أن يخرج الرئيسان..

وهكذا كنت أعيش..

مشاكل زوجى..

ومشاكل ابنتى..

وكنت عندما أتعب أدعو رفعت العباسى صديق زوجى والذى وهب نفسه كسكرتير متطوع لى ، ليجلس معى ويسلينى. إنه الشخص الوحيد الذى لا يثير أى قلق لزوجى بوجوده.. إنه يعتبره لا شىء.. وهو لا شىء فعلاً بالنسبة لدرجة ثقافته ولأنه لا يعمل شيئاً وليس له وظيفة ولا يتحمل أية مسئولية ، ولكنى أرتاح إليه.. إنه يحس بى كشىء كبير.. كبير جداً.. كأنى معجزة.. وهو يتباهى بمجرد أنه يعرفنى وأنى أحياناً أكلفه ببعض المهام.. إنه يرضى كل غرورى وكل إحساسى بشخصيتى العامة وبزعامتى العلمية والسياسية.. ويسلينى.. إنه يروى لى قصص المجتمع كله.. ويرويها بأسلوب هادئ مخطوط كأنه جالس على مصطبة قرية يقضى الليل كله يتحدث.. إنه يريحنى فعلاً..

إلى أن حدث ما قلب حياتى كلها مرة أخرى..

..ونسيت أني امرأة

١٠

كان إصرار زوجى الدكتور كمال على أن يفرض نفسه كزوج حتى على حياتى العامة ، يتطور بنا إلى حياة متعبة منغصة تكاد تنقلب إلى جحيم يحرقنا نحن الاثنين.. وقد كنت أتحمل أكثر مما تعودت أن أتحمل لا لشىء إلا لأتجنب الوقوع فى الفشل ، ولم يكن تعلقى بكمال أو حبى له هو الذى يدفعنى إلى التحمل.. لا.. إن كمال لم يعد فيه ما يجعلنى أتحمل إلى هذا الحد.. ولكنى كنت فقط أدافع عن نفسى ضد الفشل.. أو أدافع عن سمعتى كإحدى الشخصيات الرئيسية فى المجتمع النسائى.. لا أريد أن يقال إن الدكتورة سعاد فشلت فى زواجها الثانى وطلقت مرة ثانية.. ماذا يمكن أن يتصورنى الناس بعد ذلك إلا أنى امرأة لا يمكن أن تحتمل ولا أن يطيقها زوج ، وقد تنطلق حولى الإشاعات.. إن الحياة الخاصة للشخصيات المعروفة لا تصبح ملكاً لهم إنما ملك للشعب ، كالحياة الخاصة لممثلات السينما ، فإذا فشلت فى حياتى الزوجية فإنى أصبح مكلفة بأن أقدم حساباً للشعب عن هذا الفشل.. هذا ما كنت أتصوره وما كان يدفعنى إلى تحمل الكثير من متاعب زوجى كمال..

ورغم أنى كنت حريصة – كما سبق أن قلت – على أن يدعى زوجى إلى كل حفل خاص أو عام أدعى إليه ، إلا أنه كان كثيراً ما يرفض تلبية الدعوة ويتركنى أذهب وحدى ، ثم بدأ يتطور تطوراً

عجيباً فإذا ما رفض الدعوة طلب منى أن أرفضها أنا الأخرى.. ولم أكن أثور وأتحداه وأذهب رغم أنفه ، ولكنى كنت أتحايل عليه متضاحكة حتى يقتنع بأن يأتى معى إلى الحفل ، أو يتركنى أذهب وحدى ، إلى أن دعينا مرة إلى العشاء عند على الشرنوبى مع كثيرين من أعضاء المراكز القيادية ، وعلى الشرنوبى كان أيامها هو كل شيء هو ظل الحاكم.. وإذا بكمال زوجى يرفض أن يصحبنى إلى الدعوة.. وقلت فى دهشة :

– لماذا ؟

قال فى برود :

– لأنها ليست دعوة عمل ولا دعوة صداقة إنها دعوة لتغطية المظاهر الرسمية.

قلت :

– حتى الدعوات الرسمية تعطى فرصة للالتقاء بشخصيات كثيرة وتبادل الرأى..

قال :

– أبداً.. إن زحام المدعوين لا يترك فرصة لأحد حتى يتناقش مع آخر.. كل ما يدور كلمات عابرة.. وابتسامات مفتعلة ، وإظهار فنون النفاق..

وقلت فى دهشة :

– لا تتركنى أذهب وحدى يا كمال.. أرجوك..

قال :

– أنا آسف.. لن أستطيع أن أذهب وأفضل ألا تذهبى وحدك..

قلت فى دهشة :

– ماذا تعنى ؟

قال :

– ما دمت سأعتذر فاعتذرى أنت أيضاً..

قلت :

– ولكنى لا أريد الاعتذار..

قال :

– لقد اتفقنا على أن يكون كل منا وحده فى مجال عمله ، أما خارج العمل فنحن الاثنان معاً حتى نحتفظ ونؤكد مظهر الزوجية.. وهذا الحفل لا يدخل فى مجال العمل.. ليس فى لائحة مجلس الأمة ولا فى لائحة الجامعة نص يفرض إقامة الحفلات ، فأنا هنا زوجة ولست مجرد نائبة أو أستاذة.

قلت فى حدة :

– أنا زوجة دائماً ، وسأقول فى الحفل إنك استدعيت كطبيب لحالة عاجلة فلم تتمكن من أن تكون معى..

قال فى برود :

– أفضل ألا نكذب وأفضل ألا تذهبى وأنت حرة..

ونظرت إليه طويلاً وأنا أحاول أن أحدد رأيى.. من السهل على أن أتحداه. إنى حرة فعلاً.. ولكن لا.. من الأفضل أن آخذه على قدر فكره.. إنه متعب فعلاً ولكنه زوجى الذى أريد أن أحتفظ به.. وقلت ضاحكة :

– إذا لم أذهب بم تعوضنى ؟

والتمع وجهه بالفرحة وأخذنى بين أحضانه فى قبلة طويلة وبذل طول الليل كل ما فيه ليعوضنى عن رفض الدعوة ولكنى حتى وأنا بين أحضانه كنت أحس بالندم والغيظ لأنى رفضت هذه الدعوة..

وقد تكررت هذه المواقف ، بل أصبحت المشكلة التى نواجهها مع كل دعوة تصلنا ، ولم أكن أفسر موقف زوجى كمال على أنه موقف سياسى من أصحاب هذه الدعوات ، كنت أعتقد أنها فقط معركة بين شخصيته وشخصيتى.. هو يريد أن تسيطر شخصية الزوج أنا أريد أن يكون للزوجة حق الانفراد بشخصيتها..

إلى أن تقرر اجتماع استثنائى عاجل للجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى يحضره أعضاء مجلس الأمة وباقى الهيئات الرسمية ، وكان معروفاً أن المطلوب فى هذا الاجتماع هو الموافقة على تطور جديد عنيف فى تطبيق النظم الاشتراكية يشمل كل إمكانيات البلد وبالتالى يوقف كل النشاط الفردى ويؤدى إلى حملة واسعة من الاعتقالات وفرض الحراسات.. وكان عادل هو مركز الحركة فى التمهيد لهذا الاجتماع.. وكان قد اتفق معى ومع بقية الأعضاء على كل الإجراءات بل وكل كلمة ستقال.. وإذا بى أفاجأ فى صباح يوم الاجتماع بزوجى كمال يقول لى فى برود :

– لا تذهبى.. اعتذرى..

وقلت ودهشتى تتجمع فى شهقة :

– لماذا ؟

قال :

– إن القرارات التى ستتخذ لا تشرف أحداً ، ولا تتفق مع أى منطق وطنى أو مصلحة وطنية.

قلت وأنا أتحول أمامه من زوجة إلى زعيمة سياسية :

– هذا رأيك وليس رأيى..

قال فى برود :

– إن رأيك ينسب إلى..

قلت فى تحد :

– لا ذنب لى..

قال :

– إنه ليس ذنباً ولكنه مسئولية ، مسئولية الزوج والزوجة.. أنا يشرفنى أن أكون فى نظر الناس زوج الدكتورة سعاد كما يشرفك أن تكونى زوجة الدكتور كمال.. ولكن هذا الشرف يتطلب أن نكون متفقين فى الرأى وفى الموقف..

قلت وأنا أصرخ :

– إن زوجة الدكتور كمال لا يمكن أن تضحى بالدكتورة سعاد ، وأنت تريدنى أن أضحى بنفسى.. إن عدم اشتراكى فى هذا الاجتماع معناه القضاء على مستقبل الدكتورة سعاد ، ومعناه تحطيم شخصية وموقف الدكتورة سعاد.. وربما كان هذا هو ما تريده..

قال فى هدوء :

– إن ما أريده هو أن أجعل الدكتورة سعاد شخصية تعبر عن نفسها لا عن المنصب الذى وصلت إليه ولا عن الذين يوزعون مثل هذه المناصب..

قلت :

– دع الدكتورة سعاد تختار لنفسها ما تريده ، وسأذهب إلى الاجتماع وسألقى كلمة تذاع فى التليفزيون والإذاعة والصحف.. وأنا حرة..

وخرجت كأنى أهرب من معركة سياسية ، وحضرت اجتماع اللجنة المركزية وألقيت كلمتى واشتركت فى كل أوجه نشاطها كما سبق واتفقت مع عادل..

وعدت إلى البيت بعد منتصف الليل..

ولم أجد زوجى كمال..

واستنتجت أنه أراد أن يعبر عن غضبه بالابتعاد عن البيت.. عنى.. وتعمدت ألا أسأل عنه ولا حتى من باب الاطمئنان عليه ، ولم يهمنى أن اكتشف أين ينام ليلته.. فى بيت أخته.. وربما فى العيادة ، وربما فى فندق.. لا يهم.. يجب أن أكون أقوى من أن أخضع لتهديده ، وأقوى من أن أضعف أمام غضبه.. ولكنى لا أستطيع أن أنام.. إن صور حياتى الخاصة تتوالى فى خيالى.. صور الفشل المتكرر.. فشلت مع زوجى الأول عبدالحميد.. وفشلت مع الرجل الذى جذب أنوثتى.. عادل.. وها أنا أفشل مرة أخرى مع زوجى كمال... ما سر

هذا الفشل.. إنى قطعاً لست غبية ولست منفرة ولست منحلة ولست قاسية فى أنانيتى ، فلماذا أفشل فى حياتى الخاصة رغم أنى نجحت إلى أبعد آفاق النجاح فى حياتى العامة.. لماذا أنجح كزعيمة وأفشل كزوجة.. ربما لأنى لم أضع لحياتى الخاصة مبادئ ثابتة كما وضعت لحياتى العامة.. لم أدرس الحياة الخاصة كما درست الحياة العامة.. لم أتخصص فى اقتصاد البيت كما تخصصت فى اقتصاد الدولة ودرستور الدولة .. والحياة الخاصة ليست أهون من الحياة العامة .. ليست مجرد أن تأكل وتشرب وتنام إنها بناء كبناء الدولة ، وأنا استهنت بالحياة الخاصة.. بعواطفى وكيانى الداخلى وبيتى ورحلى.. اكتفيت بأن أحصل على ما تحتاج إليه غرائزى كامرأة لا ما يفرضه على المجتمع كامرأة.

وفى هذه الليلة طال تفكيرى فى مصير ابنتى فايزة.. هل أريد لها ما حققته لنفسى.. ولكن هل أنا سعيدة.. لا أظن.. إنى سعيدة عندما أقف لأخطب فى الناس وعندما أتولى رئاسة اجتماع وعندما أكون فى مكانى داخل مجلس الأمة وعندما أرى صورتى فى الصحف ، ولكنى بائسة وشقية ومسكينة عندما أنفرد بنفسى.. إنى لا شىء كامرأة.. وحيدة.. بعيدة عن ابنتى.. بعيدة عن الرجل.. إن السعادة مجالات متعددة ، وأنا سعيدة كأستاذة وكنائبة ، وغيرى سعيدة كراقصة ، أو سعيدة كزوجة.. فلماذا أحدد لابنتى مجال سعادتها لماذا لا أتركها حرة تختار مجال سعادتها بنفسها..

وانتظرت فى صباح اليوم التالى أن يتصل بى كمال ، على الأقل ليطمئن على ويطمئننى على نفسه.. ولكنه لم يتصل.. الواجب أن أتصل به أنا.. فأنا التى أغضبته وتحديته كزوج.. واتصلت به بالتليفون فى العيادة وبعد كلمتين باردتين قال لى :

– أرجوك.. دعينى وحدى يومين وبعدها أتصل بك وأكون قد انتهيت من التفكير..

قلت :

– التفكير فيم ؟

قال :

– فيك..

قلت وأنا أفتعل ابتسامة أحاول أن أبلغها له عبر التليفون :

– وأنا فى حاجة أيضاً إلى التفكير فيك فلماذا لا نفكر معاً ؟

قال فى برود :

– إننا نفشل عندما نفكر معاً.. ليفكر كل منا وحده..

وتركنى وحدى وفكرى مشتت ولا أدرى فيم يفكر هو وإلى أين سينتهى بفكره ، ولكنى صممت اعتزازاً بنفسى على ألا أحاول الاتصال به.. إنه يقيم عند شقيقته ، ويرسل إلى بيتى كل يوم تقريباً من يحمل له بعض احتياجاته فأرسل له ما يريد دون أن ألتقى برسوله ودون أن أرسل إليه كلمة واحدة..

ومضى يومان.. وثلاثة.. وبعد أسبوع كامل اتصل بى وحدد موعداً لعودته إلى البيت.. إنه لم يعد.. جاء زائراً.. ولكنى تعمدت أن أستقبله كأنه رجل البيت عاد بعد غيبة.. استقبلته وأنا أقبله فأعطانى خداً نافراً لا يرد قبلتى.. وأخذت أحدثه عن أخبار البيت والذين زارونى والذين سألوا عنه وهو يستمع فى هدوء بارد ، ثم قال وصوته فى رنة صوت القاضى المطمئن إلى عدالته :

– لقد فكرت طويلاً واقتنعت أننا لا نستطيع أن نستمر..

قلت فى جزع :

– ماذا تعنى ؟

قال هادئاً :

– أعنى أن نفترق..

قلت :

– هذا جنون.. إن اختلافنا فى آرائنا السياسية لا يمكن أن يصل

إلى حد الطلاق..

قال :

– إن الرأى والموقف السياسى يعبران عن الشخصية ، والاختلاف بينى وبينك هو اختلاف فى الشخصية كلها.. شخصيتان لا يمكن أن يتحدا فى كيان واحد..

قلت :

– ليس من حقك أن تتخذ مثل هذا القرار وحدك.. إنك أكثر تقدماً وأرقى من أن تستغل الحقوق الظالمة للرجل الشرقى.. ثم إن مركزى وسمعتى العامة لا يمكن أن أعرضهما لمثل هذا القرار.. إنك تريد أن تشوه صورتى أمام الناس..

وقال وهو يبتسم كأنه يسخر منى :

– بالعكس.. إن الناس يتعلقون بك أكثر عندما يحسون أنك امرأة عادية مثلهم يصيبها مثل ما يصيبهم.. إن مركز القوة لا يمكن أن يجعل منك امرأة أقوى من أن تختلف مع زوجها إلى حد الطلاق.. أو تجعل من زوجك رجلاً أضعف من أن يكون له حق الطلاق..

وصرخت :

– إنى لا يمكن أن أعرض نفسى لهذه المهزلة.. لا يمكن..

وقال وهو بارد :

– إن ما يثيرك هو أنى أنا الذى أطلب الطلاق.. ولست أنت.. وأنى واثق أنك أنت نفسك فكرت فى أن تتركينى وتطلبى الطلاق أكثر من مرة ، ولكن ما كان يربطك بى ليس اقتناعك بشخصيتى ، ولكنه حرصك على مركزك وسمعتك كشخصية عامة..

وضغطت على أعصابى لأبدو هادئة حلوة واقتربت منه حتى كدت ألتصق به كأنى أغريه بأنوثتى :

– إنى لم أكن شخصية عامة بالنسبة لك أبداً.. أنا أحببتك... هل نسيت كل شىء.. وإنى أعدك أن أحاول المستحيل حتى لا تتكرر

خلافاتنا.. إنك أعز على من كل شىء.

وقال وهو يربت بيده على كتفى :

– ثقى أنك أنت أيضاً أعز على من كل شىء.. لقد كنت دائماً معجباً بك حتى قبل أن نلتقى.. معجب بذكائك وجهادك ونجاحك.. إنك المثل الذى يمثل كل مستقبل المرأة الحديثة. ولكنى اكتشفت أن من الأفضل أن يبقى المعجب بك وهو ينظر إليك من بعيد..

وقلت وأنا أحترق بالغيظ :

– مجرد إعجاب بلا حب..

قال كأنه يلقى بنظرية علمية :

– إن حبى أصبح على حساب إعجابى.. ولذلك قاومت الحب حتى أبقى على إعجابى.. ولذلك قررت أن نفترق..

قلت صارخة :

– قررت.. الدكتاتور قرر.. صاحب الجلالة قرر.. وأنا.. من يصدق أن الدكتورة سعاد يمكن أن تكون ضحية..

قال بلهجة الدكتور العالم :

– إنك لن تكونى ضحية.. بالعكس إنى أنقذك من نفسى... من تأثيرى عليك.. وبعدى ستكونين أكثر حرية فى بناء مستقبلك السياسى وفى بناء المجتمع النسائى الجديد.. ستتفرغين لمطلب الزعامة.. صدقينى هذا فى صالحك..

قلت ساخرة :

– وأنت.. هل هو فى صالحك أيضاً ؟

قال :

– فعلاً.. إنه فى صالحى... فوجودى معك جعلنى فى حالة دفاع سياسى عن نفسى.. ودفاع ضد سيطرة شخصيتك السياسية على.. وأنا لم أتعود الاشتغال بالسياسة ، إنى أريد أن أعيش ما بقى من عمرى كما كنت متفرغاً للطب..

قلت فى رنة رجاء :

– لنؤجل الموضوع بضعة أيام فربما وصلنا إلى حل..

قال فى هدوء :

– الحل حدث..

ثم مد يده فى جيبه وأخرج مظروفاً قدمه إلى.. إنه ورقة الطلاق.. لقد طلقنى فعلاً..

هو الذى طلقنى وقبل أن يتفق معى على الطلاق..

وتركنى كالمجنونة.. إنها أعنف ضربة تقليتها فى حياتى.. لم تكن فى حياتى ضربات إلا هذه الضربة.. ضربة على أم رأسى.. وقد فكرت أن أنتقم منه.. من السهل الانتقام منه.. كلمتان منى ويدخل المعتقل ولا يخرج منه إلا إلى القبر.. ثم إن طلاقه منى قائم على أسباب سياسية.. إنه يرفض الاتجاه الاشتراكى للثورة ، ويتحدى القيادة ، ومن يدرى ، ربما كان يقود تنظيماً سرياً ينظم للثورة المضادة.. و.. و.. كل هذا يمكن أن يقال ويؤدى به إلى داهية تقضى عليه..

ولكنى فى خلال أيام بدأت أتنبه إلى أن كل ما يصيب كمال يمكن أن يصيبنى.. يصيب سمعتى ومركزى السياسى.. ليس من صالحى أن يقال إنى كنت زوجة لمتآمر.. ثم من يدرى ، ربما تصورت القيادة أنى كنت مشتركة معه فى هذا التآمر ، فأضيع معه... وقيادتنا قيادة لا أمان لها.. إنها آذان غبية مرهفة تقودها كلمات مضللة كاذبة.. فإذا صدقوا أن كمال كان يتآمر فمن السهل أن يصدقوا أنى أنا أيضاً كنت أتآمر معه..

ووصلت إلى حد أنى أصبحت أدافع عن كمال ، فقد عرف خبر طلاقنا ، وكان عادل أول من عرفه من الزملاء وقال فى بساطة :

– كنت متأكداً أن هذا سيحدث.. إن اتجاهه رجعى مضلل وكان لا يمكن أن يتفق معك فى موقف ولا فى رأى ، وطبعاً لا يمكن أن يتفق

معك فى بيت.. أعتقد أنه يجب أن تتخذ ضده إجراءات لحماية الاشتراكية وحماية الثورة..

وقلت فى توسل فزع :

– لا يا عادل.. إنه ليس خطراً.. إن عقله مقفول لا يستطيع أن يرى به خارج عيادته.. وأى إجراء يتخذ معه يمسنى ، فلا تنس أنى كنت زوجته وعشت معه خمس سنوات..

واقتنع عادل أو على الأقل وافقنى..

ولم ينشر خبر الطلاق فى الصحف طبعاً.. صدرت تعليمات الرقابة بعدم النشر ، وكنت مطمئنة إلى أنه لن ينشر ولو تلميحاً.. إن صحافتنا تعيش فى حالة رعب يفرض عليها احترام مطالب الطبقة الحاكمة ، وأنى أذكر صحفياً معروفاً كان رئيساً للتحرير كتب تعليقاً عن سيدة حضرت حفلاً خاصاً غير رسمى دون أن يتنبه إلى أن هذه السيدة زوجة لسكرتير مدير مكتب أحد الشخصيات القيادية ، فطرد الصحفى من جريدته فى الحال واعتقل عدة شهور.. إنى أنا أيضاً أستطيع أن أرفت وأعتقل الصحفى الذى يشير إلى خبر طلاقى..

وكان الأثر المباشر لحادث طلاقى هو موقفى من موضوع ابنتى فايزة..

لا يمكن أن أعرضها لما تعرضت له..

لا يمكن أن أحرمها من حقها الطبيعى كأنثى ومن مسئوليتها المقدرة عليها كسيدة بيت.. لا يمكن أن تعيش مثلى محرومة من أنوثته ومحرومة من بيت مستقر تكون سيدته..

وهرعت إليها وإلى أبيها وزوجة أبيها.. حتى سميرة زوجة أبيها بدأت أؤمن بها وأستسلم لها. إنها أنبه منى لأنها أسعد منى. وأعلنت موافقتى على إعلان خطوبة ابنتى إلى أشرف ابن تاجر الموسكى.. لماذا خطوبة.. لقد مضى أكثر من عام على تعارفهما ولم يعودا بحاجة إلى مزيد من التعارف.. وعائلة أبيها تعرف عائلة أبيه..

فلنكتب الكتاب مباشرة ، بعد ظهور نتيجة الثانوية العامة..

ونجحت فايزة فى الامتحان.. ربما لم تنجح إلا لأن نجاحها كان شرطاً لزواجها. وإن كان مجموع الدرجات التى حصلت عليها لا يشرف.. أقل من ٦٠٪.

وأقمنا الفرح..

أنا التى أقمته ، لا عائلة العريس لا أبوها..

كان فرحاً ضخماً ربما كان أكبر الأفراح التى أقيمت أيامها ، وتعمدت أن أدعو إليه كل القيادات ، وكل زملائى فى المراكز السياسية وفى الجامعة وفى الهيئات.. كان المدعوون من ناحيتى أنا وحدى يتجاوز عددهم المائتين ، غير باقى المدعوين.. وغنى عبد الحليم ورقصت سهير زكى.. و.... و....

وأعترف أن كل شىء كان مفتعلاً.. لم تكن فيه هذه الحلاوة والفرحة الطيبة التى تحيط بالأفراح..

كانت فيه عصبية الافتعال ، لأن الدافع هو أنى لم أقم هذا الفرح لابنتى ولكنى أقمته لنفسى دفاعاً عن وضعى بعد طلاقى.. كنت أريد أن أثبت للعالم كله أنه لا تزال لى حياتى العائلية.. وأنى أم.. وأن طلاقى لم يلغ وضعى العائلى ولا حياتى كأنثى مفروض عليها أن تكون ربة عائلة..

وحتى أتحدى تأثير طلاقى أكثر دعوت الدكتور كمال إلى حفل الزفاف.. وجاء.. واسترحت وأنا أرى كل هؤلاء المدعوين يحلقون فيه.... إنهم يعرفون الآن أن لا شىء حدث لى بطلاقى..

وانتهت كل هذه الأيام..

انتهت بأن أصبحت امرأة وحيدة محرومة..

وكنت قد وصلت إلى الثامنة والأربعين من عمرى ، إن المرأة فى هذه السن تتعذب بأنوثتها أكثر ، إنها تحس كأنها تتعلق بالخيط الأخير قبل الغروب.. إن إحساسى بحاجتى إلى رجل يقوى ويشتد..

إنى أبذل مجهوداً أكبر فى كل مجالات نشاطى.. أبذله متعمدة حتى أتخلص من إحساسى بوحدتى وحرمانى.. وربما لو كان عادل قد حاول معى مرة أخرى لاستسلمت له بسرعة..

عادل لا يحاول..

لماذا ؟

هل أصبحت فى نظره عجوزاً فقدت ما تغرى به الرجل... لا أدرى.. ولكن حتى آخر أيامى وأنا متزوجة من كمال كان لا يزال يحاول ، وكنت أقاومه معتمدة على إحساسى كزوجة.. والآن بعد أن أصبحت حرة توقفت محاولاته.. ربما لأن المرأة المتزوجة أشد إغراء للرجل من المرأة الحرة.. إن المتزوجة تعطى الرجل الآخر الأمان بأنها لن تكون عبئاً عليه.. يغريه أنها لن تكلفه شيئاً ولن تطالبه بشىء.. أما الأخرى.. أما أنا الآن.. فقد أطالبه بالزواج.. وقد أذكره بمحاولاته منذ سنوات عندما طلبنى للزواج قبل أن أتزوج كمال.. أو ربما كان قد وجد امرأة تكفى متعته الخاصة.. ولكنه كان دائماً لديه نساء أخريات حتى وهو يغازلنى ويحاول معى ، لا يمكن أن تكون المرأة الوحيدة فى حياته هى أنا ، وأنا لم أعطه نفسى إلا مرة واحدة واعتبرتها خطيئة عابرة..

وأصبحت أنا التى تجرى وراءه وتغريه وتسلط عليه أنوثتها ، وهو الذى يهرب منى ويصدنى.. وقد دعوته ذات مساء للعشاء فى بيتى... نفس البيت الذى كنت زوجة فيه لدكتور كمال.. وكناوحدنا.. وتعمدت ليلتها أن أختار ثوبى وأسوى شعرى بحيث أكون أكثر إغراء.. ولكن.. لا يبدو أنه متأثر بإغرائى.. وسألته وأنا أحاول أن أشده إلى المحاولة معى :

- عادل.. أظن أنه يجب أن تبدأ فى التفكير فى الزواج قبل أن تضيع فى شيخوختك..

وكانت بداية غير موفقة فإنى بذلك أبدو كأنى أطالبه بالزواج

منى إذا أراد أن ينام معى ، ومع أنى كنت أتمنى أن أنام معه حتى بلا زواج ، أصبحت أتمنى الخطيئة..

وقال عادل دون أن يتحرك من مكانه :

– الزواج مستقبل.. وأنا ليس لى مستقبل أطمئن إليه..

قلت مبتسمة ابتسامة كبيرة :

– أذكر أنك طلبتنى يوماً للزواج.. أم نسيت..

قال مبتسماً ابتسامة صغيرة :

– لم أنس.. ولكن أيامها كان شبابى أقوى من مستقبلى..

قلت :

– والآن اكتشفت أنى لا أصلح مستقبلاً لك.. إنى أيامها رفضتك لأنك أنت لم تكن مستقبلاً لى..

قال :

– المستقبل ليس فى يدى ولا فى يدك.. إنه فى يد القوى المتصارعة.. قوة نملكها وقوة تملكنا.. وهذا التصارع لم ينته.. ولهذا أعيش ولست مطمئناً إلى مستقبلى.. من يدرى قد أعتقل غداً..

قلت :

– على كل حال لا يهم الزواج.. هناك دائماً ما يغنينا عنه..

ورغم كل هذا الإغراء لم يتحرك عادل ولم يحاول معى الخطيئة كما حاولها مرة منذ سنوات.. أنهى الليلة فى نقاش ممل حول الأيديولوجية والتنظيم الطبقى..

وأنا دائماً أريده..

أتمناه..

وكل ما يخفف عنى وحدتى هو سكرتيرى المتطوع رفعت العباسى.. الرجل الذى يقدس شخصيتى العامة ولا يشعرنى بشخصيتى الخاصة.. يشعرنى.. بأنى الدكتورة سعاد الأستاذة والنائبة والرئيسة ولا يشعرنى بأنى سعاد.. المرأة الأنثى.. وهو

صديق لزوجى كمال ولكن هذه الصداقة لم تؤثر على ارتباطه بى وإفناء نفسه تقديساً لى.. إنه لا يزال يدخل البيت كأنه من العائلة ، ويسير ورائى فى المجتمعات ، ويفرح ويتباهى لمجرد أنه عرف بأنه صديقى.. سكرتيرى.. تابعى.. خادمى.. كل ذلك يرضيه ويفخر به..

وكنت أحياناً كثيرة أنظر إليه كرجل..

إنه أصغر منى سناً.. يصغرنى بخمس سنوات..

هل أتزوجه..؟

أو هل أحرضه على نفسى ؟

إنه فى يدى.. أستطيع أن أفعل به ما أريد.. لو كان هذا هو أول زوج تزوجته لكان زوجى حتى الآن ، ولما فرقه عنى شىء..

ولكن كان يشغلنى عنه دائماً تفكيرى فى عادل الرجل الذى يثير أنوثتى..

واعتقل عادل..

حدث ما كان يخشاه..

تطورت القوى المتصارعة ، وتطورت علاقة مصر بالاتحاد السوفييتى فبدأ اضطهاد مراكز القوى الماركسية التى كانت قائمة ، فاعتقل عادل..

ولم أتأثر كثيراً باعتقاله.. كان هذا حادثاً طبيعياً فى حياته السياسية.. وقد سبق أن اعتقل فى بداية الثورة ، ثم أفرج عنه وتولى مراكز رئيسية وبدأ هو نفسه يعتقل معارضيه.. وهو الذى قال لى مرة إن الاعتقال هو إجراء فى كل الحياة السياسية.. لذلك لم أتأثر لاعتقاله... ولكنى أحسست أنى استرحت من إغرائه.. استرحت من اشتهائى له.. وأصبح رفعت العباسى أكثر جاذبية لى..

والسنوات تمر..

وحل مجلس الأمة.. وفقدت الهيئات التى أتولى رئاستها قوة نفوذها.. حتى كأستاذة فى الجامعة لم يعد لى قيمة قائمة بذاتها.

وقد وصلت إلى الخامسة والخمسين من عمرى ولكنى ما زلت شخصية رئيسية فى الحركة النسائية.. إن الحركة النسائية فى الواقع ليست حركة إنها مجرد مظهر.. وأنا مظهر نسائى تستعمله القيادات كلما احتاجت إلى استعماله.. لا شىء أكثر.. منذ بدأت الثورة وأنا مجرد مظهر.. لا شىء أكثر.. وهذا ما جعلنى أستمر فى الحياة العامة وفيما يسمى بالحركة النسائية.. وسأبقى.. سأرشح نفسى فى الانتخابات القادمة.. وستعود القوة المظهرية إلى اتحاد المرأة العاملة ، وإلى تنظيم الاتحاد النسائى العربى.. سيعود كل ذلك.. ستعود كل المظاهر الفارغة.. ورفعت العباسى دائماً بجانبى..

لا أريد أكثر من ذلك فقد تعودت أن أنسى أننى امرأة..

(تمت)

١	التجربة الأولى	٣٤	لا تتركونى هنا وحدى
٢	منتهى الحب	٣٥	اللون الآخر
٣	شفتاه	٣٦	يا عزيزى كلنا لصوص
٤	آسف لم أعد أستطيع	٣٧	البنات والصيف
٥	يا ابنتى لا تحيرينى معك	٣٨	لا أنام
٦	لا أستطيع أن أفكر وأنا أرقص	٣٩	أنا حرة
٧	حتى لا يطير الدخان	٤٠	شىء فى صدرى
٨	زوجات ضائعات	٤١	أنف وثلاث عيون ج.١
٩	الرصاصة لا تزال فى جيبى	٤٢	أنف وثلاث عيون ج.٢
١٠	البحث عن ثورة	٤٣	لن أعيش فى جلباب أبى
١١	ومضت أيام اللؤلؤ	٤٤	سيدة فى خدمتك
١٢	فى وادى الغلابة	٤٥	النساء لهن أسنان بيضاء
١٣	خواطر سياسية	٤٦	دمى ودموعى وابتسامتى
١٤	بعيداً عن الأرض	٤٧	الحياة فوق الضباب
١٥	علبة من صفيح	٤٨	وعاشت بين أصابعه
١٦	الطريق المسدود	٤٩	وغابت الشمس ولم يظهر القمر
١٧	زوجة أحمد	٥٠	قلبى ليس فى جيبى
١٨	لا ليس جسدك	٥١	كانت صعبة ومغرورة
١٩	لا شىء يهم	٥٢	فوق الحلال والحرام
٢٠	لا تطفىء الشمس ج.١	٥٣	وكر الوطاويط
٢١	لا تطفىء الشمس ج.٢	٥٤	لن أترك كل هذا
٢٢	فى بيتنا رجل	٥٥	ونسيت أنى امرأة
٢٣	النظارة السوداء	٥٦	بنت السلطان
٢٤	صانع الحب	٥٧	وتاهت بعد العمر الطويل
٢٥	بائع الحب	٥٨	الهزيمة كان اسمها فاطمة
٢٦	أين عمرى	٥٩	الراقصة والسياسى
٢٧	بئر الحرمان	٦٠	الحب في رحاب الله
٢٨	الخيط الرفيع	٦١	الوسادة الخالية
٢٩	عقلى وقلبى	٦٢	العذراء والشعر الأبيض
٣٠	على مقهى فى الشارع السياسى	٦٣	رائحة الورد وأنوف لا تشم
٣١	السعادة ليس لها تاريخ	٦٤	أيام شبابي
٣٢	حالة الدكتور حسن	٦٥	ثقوب فى الثوب الأسود
٣٣	لم يكن أبداً لها	٦٦	تاريخ أحد اللصوص

بطاقة فهرسة:

عبد القدوس ، إحسان .

ونسيت إنى امرأة / إحسان عبد القدوس . -ط ١ . - القاهرة

: قطاع الثقافة ، أخبار اليوم، ٢٠٠٩

١٩٢ص ؛ ٢٠سم . - (مجموعة الأعمال الكاملة)

تدمك ٩٧٧٠٨١٤٢١٠

١ - القصص العربية القصيرة

أ - العنوان

٨١٣/ .١

رقم الإيداع

٢٠٠٩/١١٢٨٠

الترقيم الدولى

977-08-1421-0

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

0-7241-80-9973

مجموعة الأعمال الكاملة

إحسان عبد القدوس

6 222007 800047 27